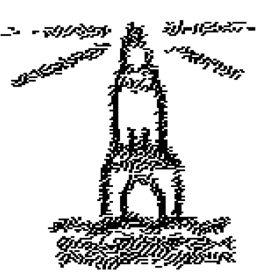
دراسة وتحقيق
دكتور محمد زكريا عناني

النصوص الصقلية

من شعر ابن قلاقس الاسكندري (ت ٥٦٧) وآثاره النثرية



دار المعارف

النصوص الصقلية

من شعر ابن قلاقس الاسكندري (ت ٥٦٧) وآثاره النثرية

دراسة وتحقيق

دكتور محمد زكريا عناني

١٩٨٢



دار المعارف

بسم الله الرحمن الرحيم

إليهـــا

إلى قلب مفعم بالإيمان والوفاء

وإلى روح شفيف وذهن متوقد

ونفس ثرية بالصفاء والنبـــل

إلى زوجتى : أهدى هذه السطور

مقدمة

هذه صفحات كتبت الجانب الأكبر منها منذ أمد بعيد ، وحالت عقبات شتى دون نشرها ، فضلا عن أنى كنت أتردد فى إبرازها ، رغبة فى تمحيص بعض جوانبها ، وأملا فى أن أعثر على مزيد من المواد المتصلة بموضوعها .

وقد شغلت زمنا بالمخطوطات العربية ، خاصة ما اتصل منها بالتراث الأدبى فى الأندلس وصقلية ومصر ، وكان مما تيسر جمعه ودراسته شعر ابن قلاقس الاسكندرى ، لكن صفحات ديوانه ، بعد نسخه والتعليق عليه ، بلغت قرابة ألف صفحة ، ولم يكن من سبيل النشر هذا الركام بكل ما فيه من در وحصا ، ومن ثم اجلت البت فيه إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا .

وها أنا اقتصر اليوم على تقديم النصوص الصقلية من هذا الديوان ومن الأعمال النثرية الأخرى التى لصاحبه ، لما لها من قيمة تاريخية إلى جانب أهميتها الأدبية ، وهى — فى مجموعها — مما ينشر لأول مرة ، إذ أن المصادر المعروفة (ما عدا خريدة القصر) لم تحو شيئا ذا بال من هذه النصوص ، ولم تعرض لها إلا لماما .

وإنى إذ أقدم هذه الصفحات ، لأود أن أعترف للقارىء الكريم بأن الرغبة لا تزال تلح على فى أن أترك هذا العمل يقبع حيث كان ، خلف الظلال ، وأشعر فى الوقت ذاته بأنه ضاق بى كما ضقت به ، وأرانى مضطرا لأن أنحيه عنى ولو إلى حين . . .

ونسأل المولى أن يصفح عن زلاتنا ، ويسدد خطانا ، ويلهمنا الصواب .

الاسكندرية ، ديسمبر ١٩٨١ م .

القسم الأول

الفصل الأول

مصادر ومراجع

كان علينا ، قبل كتابة هذه الترجمة عن ابن قلاقس أن نجمع عنه أكبر قدر من الأخبار والدراسات ، وأن نتفحص كل ما له من نصوص شعرية ونثرية . أما الأخبار والدراسات فقد رجعنا في أمرها إلى :

ه «خريدة القصر وجريدة العصر»(١) للعماد الاصفهاني. ويعد هذا الكتاب من أقدم الآثار التي تتضمن مادة هامة عن شاعرنا (توفي ابن قلاقس سنة ٥٦٧ ه ، وتوفي العماد سنة ٥٩٧) وفيها عنه نحو ثلاثة وعشرين صفحة معظمها مختارات . واعتمد صاحب الخريدة فيها على مارواه له نجم الدين بن مصال، والى الاسكندرية على زمن صلاح الدين الأيوبي ، كما اعتمد على كتاب « الزهر الباسم » الذي روى فيه الشاعر خبر رحلته الصقلية ، وألحق العماد بسيرة الشاعر نبذة عن شاعر صقلي اسمه أبو الحسن على ابن أبي الفتح بن خلف الأموي ، وكان من المفروض أن يورد العماد ترجمته في القسم الصقلي من خريدته إلا أنه آثر ذكره هنا حيث اقتضاه هذا الموضع للمكاتبات التي جرت بينه وبين ابن قلاقس » .

وإذا كانت الخريدة لا تقدم تفصيلات ذات قيمة كبيرة بالنسبة لحياة الشاعر ، فإنها تتميز بأنها المصدر الوحيد الذي تضمن مختارات مسهبة من كتاب « الزهر الباسم » المفقود .

ه «بدائع البدائه» (٢) لابن ظافر الأزدي (ت سنة ٦٢٣ ه)، ويعد من أجل الكتب التي قصت طائفة من أخباره وإرتجالاته ومجالسه بالاسكندرية والفسطاط وعدن ، غير أن هذه المعلومات تأتي متناثرة في ثنايا « البدائع » ، وهي تأتي مجموعة

فى « نفح الطيب » (٣) للمقرى (ت سنة ١٠٤١) فى فصل صغير يقع فى أربع صفحات .

☆ « معجم الأدباء »(٤) أو « إرشاد الأريب » ، لياقوت الحموى ، إلا أن ما أورده عن ابن قلاقس يتسم فى مجموعه بالضعف والاضطراب ، وهذه الأخطاء التى وقع فيها ياقوت ستسمع أصداءها عند من نقلوا عنه بغير تمحيص ، على ما سوف نذكره فى ثنايا الدراسة . أما فى « معجم البلدان » (٥) فإن ياقوت يشير فى أكثر من موضع لهذا الشاعر ، وخاصة عند حديثه عن بعض مدن صقلية .

☆ « وفيات الأعيان » لابن خلكان (ت سنة ٦٨١ هـ) ويعد من أفضل المصادر التى قدمت عنه مادة ذات قيمة ، وعن « الوفيات » نقل ابن فضل الله العمرى (ت سنة ٧٤٩) فى « مسالك الأبصار » (٦) واليافعى (ت سنة ٧٦٨) صاحب « مرآة الجنان » (٧) والسيوطى (ت سنة ٩١١) فى « حسن المحاضرة » (٨) وابن العماد الحنبلى (ت سنة ١٠٨٩) فى « شذرات الذهب » (٩) وعشرات غير هؤلاء من قدامى ومحدثين .

☆ « الوافى بالوفيات » (١٠) لصلاح الدين الصفدى (ت سنة ٧٦٤هـ) ، ويعد من أهم كتب التراجم التى تتسم بالدقة ، ويتضمن مختارات شعرية متنوعة من بينها نص موشحة للشاعر . تعد — على ما سنوضح — من أقدم النصوص الشرقية فى هذا المضمار . والصفدى يورد قطعا متعددة من أعمال شاعرنا فى « الغيث المنسجم » (١١) و « التذكرة الصفدية » (١٢) كما ذكر اسمه بين الوشاحين المشارقة فى صدر « توشيع التوشيح » (١٣) .

☆ « مسالك الأبصار » لابن فضل الله العمرى ، وليس فيما أورده عن حياة الشاعر ما يعتد به ، إلا أهاجى الذروى فيه ، ولكن «المسالك» يتضمن مختارات

من شعره تكاد تشكل ديواناً قائماً بذاته .

وهناك نصوص عديدة له فى « مطلع الفوائد» (١٤) لابن نباته ، وفى «خزانة الأدب » (١٥) و « تأهيل الغريب » (١٦) لابن حجة الحموى ، وفى « رياض الألباب » (١٧) و « تأهيل الغريب » (١٨) و « خلع العذار » (١٩) و « صحائف الحسنات » (٢٠) و « حلبة الكميت » (٢١) للنواجى وفى « معاهد التنصيص » (٢٢) للعباسى و « الدر المكنون فى السبع فنون » (٢٣) لابن إياس — وهو غير ابن إياس المؤرخ — و « مختصر بلوغ الآمال » (٢٤) لابن العديم ، ومن الكتب التى تتضمن إشارات او نصوصاً من شعره « سير النبلاء » (٢٥) للذهبى ، و « النجوم الزاهرة » (٢٦) لابن تغرى بردى ، و « الروضتين » (٢٧) لأبى شامة ، و « البداية والنهاية » (٢٨) لابن كثير و « كشف الظنون » (٢٩) لحاجى خليفة ، و « تاريخ مصر » (٣٠) لابن ميسر ، و «هدية العارفين» (٣١) للبغدادى و «سحر العيون» (٣٢) لأبى البقاء البديرى و«ديوان الصبابة» (٣٣) لابن أبى حجلة و «روض الآداب» (٣٤) للشهاب الحجازى وعديد من كتب « المجاميع » المتنوعة ، ومدونات الأدب والتاريخ (٣٥) .

ولدينا ، بالإضافة لما مر ، كتابان كاملان يضمان مختارات من ديوان شاعرنا ، أولهما : « المختار من ديوان ابن قلاقس الاسكندرى (٣٦) » لابن نباته المصرى ، والثانى « ناضج ابن قلاقس » (٣٧) لابن حجة الحموى .

أما « المختار . . . » فيقع فى نحو مائة صفحة ، وله مقدمة قصيرة تقول : « . . طالعت شعر الأديب البارع . . ابن قلاقس ، فطالعت الفن الغريب ، وفتح على بتأمل ألفاظه ، فتلوت : « نصر من الله وفتح قريب » ، بيد أنى وجدت له حسنات تبهر العقول فضلا ، وسيئات يكاد يذكرها ابن قلاقس يقلى ، إما أن

يكون قرضها فى مبادىء عمره ، وإما أن تكون غواة الرواة ألحقتها بنسب شعره ، فميزت من نجومه بين الصاعد والهابط ، وأثبت فى هذا الكتاب من أبناء فكره المنجب ، ونفيت الساقط ، وربما أوردت البيت المضطرب متى تعلق به البيت الشديد ، ووصلت رحمه طلبا لتمام شخص القصيد » .

وأما كتاب ابن حجة فإنه يتكىء أساسًا على كتاب ابن نباتة ، ويقول المؤلف فى المقدمة :

« . . . وقد عن لى أن أهدم البيت المضطرب إذا لم ترفع له قاعدة أدبية بنكتة، ولا حسب الشيخ وقوعه على صاحب الذوق السليم إذا دخل تحته ، وقد قابلت شخص كل قصيد بمرآة الذوق ، ولم أبق منها إلا ما يظهر فى المرآة من المحاسن ، ولم أرض أن أدخل إلى بيت ليس فيه من أنواع البديع ساكن ، وربما أطرحت ربع القصيد إذا لم يكن فيه بيت بالمحاسن عامر ، ولم أثبت إلا ما شعرت بمحاسنه، وقد لا أكون شاعر ، وسميت ما انتخبته هنا ناضج ابن قلاقس ، وأرجو ألا أتحف الأذواق السليمة من نفسه إلا بما يطيب المنافس،وأما المقاطيع فقدأججت نار الذوق مراراً ، وعجزت عن إنضاجها ، ولم يتضح لى فى ظلام سطورها لمة من نور سراجها ، فاكتفيت بما شنفت به الأسماع من طرب مواصيله ، اللهم إلا إن وقع لى مقطوع داخل لم أبخل على أهل السماع بدخوله . . . » .

وفى العصر الحديث نجد أمامنا ما كتبه عن الشاعر على مبارك فى « الخطط التوفيقية » (٣٨) ومحمد فريد وجدى فى « دائرة معارف القرن العشرين » (٣٩) والمستشرق الفرنسى هوارت فى كتابه « الأدب العربى » (٤٠) وهؤلاء اعتمدوا إعتماداً كلياً على ابن خلكان ، ونجد عند بركلمان (٤١) ترجمة موجزة للشاعر إعتمد عليها بعد ذلك د. جودت الركابى فى دراسته (بالفرنسية) عن « الشعر فى ظل

الأيوبيين (٤٢) وأورد جورجى زيدان بدوره ملمحاً عن الشاعر ، يأتى فى مستهل ما قدمه عن الشعراء الفاطميين، ولعل الموضع الطبيعى لهذه النبذة أن تأتى فى ختام الحديث عن هؤلاء الشعراء ، لأن شاعرنا توفى فى نفس السنة التى انتهت فيها دولة الفاطميين . وأورد ميشيل آمارى ، إشارة سريعة عن الشاعر فى دراسته عن تاريخ المسلمين فى صقلية (٤٣) كما ترجم للايطالية كل ما عثر عليه من نصوص لابن قلاقس فى وصف جزيرة صقلية ، وضمنها كتابه الكبير عن « المكتبة العربية الصقلية » (٤٤) :

وفى سنة ١٩٠٥ نشر خليل مطران « ديوان ابن قلاقس »(٤٥) وواقع الأمر أنه إنما نشر المختارات التى صنعها ابن نباته ، غير أن النسخة التى إعتمد عليهاخلت فيما يبدو من الإشارة لذلك ، ومن ثم لم يتبين خليل مطران هذه الحقيقة، ولم يشر قط إلى دور لابن نباتة فيها .

ووضع مطران لطبعته مقدمة جاء فيها :

« هذا ديوان ابن قلاقس ، أحد الشعراء المبرزين الذين نبغوا فى القرن السادس الهجرى، عثرنا على نسخة مخطوطة منه فى مكتبة صديقنا الذكى ابراهيم بك فاضل «متخلفة عن شاعر زمانه المغفور له والده،وهو المرحوم مصطفى بك توفيق الفريق ، نجل المرحوم مصطفى باشا الفريق المعروف برقة نظمه ، ولطف أساليبه فى الترسل وتوشية الأناشيد .

والواقف على هذا الديوان سيجد من حسن الديباجة ورقة النسج . . ما يسر خاطره . .

وقد ترددنا حينا دون الشروع فى تمثيله بالطبع ، على علمنا أنه لا توجد نسخ منه إلا واحدة فى مكتبة باريس ، وأخرى فى مكتبة ويان ، وثالثة فى مكتبة

برلين ، وأنه لولا هذه النسخة لبقى الناطقون بالضاد محرومين أثراً نفيساً من آثار البنيان الأدبى العظيم » .

ولم يكتف مطران بهذه المقدمة، بل عاد وصنع خاتمة فى آخر الديوان وضمن هذه الخاتمة كلاما عاما عن الشاعر من قبيل :

« . . . أما شعر ابن قلاقس فقد ألفيته أربع طبقات ، طبقة ابتكر فيها المعانى فبلغ معها أعلى رتب المجيدين ، وطبقة جود فيها اللفظ . . وطبقة لا يرتفع فيها قريضه بلفظه ومعناه عن متوسط الشعر ، وطبقة سقط فيها إلى حد أنك لاتهتدى إلى إقرار كلمة فى مقرها . . . » وانتقل مطران بعد ذلك إلى الحديث عن مصطفى بك توفيق ، الذى اقتنى المخطوطة ، وعن شعره وما خلف من روايات شعره .

ومن الطريف أن د. جمال الدين الرمادى عقد فصلا فى كتابه عن «خليل النيل وشاعر الشرق العظيم » (٤٦) تناول فيها تحقيق مطران لشعر ابن قلاقس ، وفيما يبدو أنه قرأ خاتمة الديوان وهو فى عجلة من أمره ، ومن ثم لم يفتبه إلى أن خليل مطران تحدث عن مصطفى توفيق بعد أن فرغ من تحليله لشعر ابن قلاقس ، ولذا قال :

« . . وذكر مطران فى ختام الديوان أن هناك رواية شعرية لابن قلاقس ، وصف فيها فتاة ، وهى تمثيل للأمة المصرية ، ووصف عشاقا لها متهالكين عليها — هم الدول الطامعة فى ملك مصر — وجعلها آية من آيات العصر بحسن ديباجتها وجمال تركيبها » .

وممن عرضوا لشاعرنا فى العصر الحديث د محمد كامل حسين فى « أدب مصر الفاطمية » (٤٧) و د. محمد زغلول سلام فى « الأدب فى عصر صلاح الدين » (٤٨)

و د. محمد عبد المنعم خفاجى فى « قصة الأدب فى مصر » (٤٩) وأحمد النجار فى « الإنتاج الأدبى فى مدينة الاسكندرية » (٥٠) وعبد العليم القبانى فى « شعراء الاسكندرية » (٥١) وهناك كتابات أخرى متفرقة (٥٢) .

ومن أفضل ما كتب عنه بحث خير الدين الزركلى فى « الأعلام » (٥٣) وتعد ترجمته لشاعرنا من أطول التراجم التى ترد فى هذه الموسوعة . وقد اعتنى الزركلى فى بحثه هذا برحلة ابن قلاقس لليمن .

وعقد د. احسان عباس (٥٤) فصلا طيبا عن « هجرة الشعر إلى صقلية : ابن قلاقس الإسكندرى » ضمنه كتابه عن « العرب فى صقلية » وسنعود مراراً لهذا البحث ولبحث الزركلى .

وهناك ثلاث مقالات عن ابن قلاقس نشرها المرحوم أحمد أحمد بدوى فى « الرسالة » الأعداد ٢٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ (١٩٣٣) فيها كثير من الإستيعاب ، ولكنها لا تتكىء إلا على المختارات التى طبعها خليل مطران ، ومن هنا غابت عن مؤلفها معلومات كثيرة عن الشاعر وشعره .

هذا عن الإشارات والنصوص والدراسات القديمة والحديثة التى تناولت الشاعر ، غير أن المصدر الأول الذى إعتمدنا عليه هو ما خلف الأديب ، نفسه من آثار شعرية ونثرية .

أ — أعمال نثرية :

— الزهر الباسم

وهذا الأثر مفقود، ولم يكن هناك بد من الاكتفاء بالمختارات التى قدمها العماد الأصفهانى فى خريدته .

ـــ ترسل ابن قلاقس

وهذا الأثر كان مجهولا ، ولم يستفد منه الباحثون إلا مؤخرا ، وهناك ثلاث نسخ منه :

• نسخة الخزانة التيمورية • (٥٥) وهى مخطوطة كاملة حسنة الخط ، كتبها رمضان حلاوة فى القرن الماضى ولا يعرف الأصل الذى نسخ عنه (وقد اعتمدنا عليها فى هذا البحث) .

• نسخة محفوظة فى نيوهافن (٥٦) بالولايات المتحدة الأمريكية ، فى مكتبة جامعة ييل ، وناسخها نفس ناسخ المخطوطة السابقة .

• نسخة فى حوزة خير الدين الزركلى ، وذكر أنها تعود للقرن السادس الهجرى (٥٧) .

أعمال شعرية .

سنتحدث فى ثنايا دراستنا تفصيلا عن شعر ابن قلاقس ، كما سنتحدث عن نثره ، وأما فى هذا الموضع فإننا نكتفى بالإشارة إلى المخطوطات والطبعات التى ظهرت ، وقد سبق أن ذكرنا أمر ما هنالك من مختارات مختلفة ، ونذكر هنا الأعمال التى تحمل عنوان « ديوان » ، وهناك أكثر من مخطوطة ، فمن ذلك :

• ديوان ، نسخة المكتبة الوطنية فى باريس (٥٨)

• « ، نسخة المتحف الآسيوى بلينينجراد (٥٩)

• « ، نسخة المكتبة العامة بفيينا (٦٠)

وهذه النسخ متشابهة للغاية فى النصوص التى تضمها وفى ترتيبها .

• ديوان مخطوطة دبلن ، خزانة شستربيتى رقم ٤٦٠٣٦ (٦١)

وتخالف فى محتواها تمام المخالفة كلا من المخطوطات السابقة ، ومع ذلك فإن نسبتها لابن قلاقس لا يعتريها الشك .

• ديوان • مخطوطة دبلن ، خزانة شستربيتى رقم ٣٨٠٠ (٦٢)

وهى نسخة قديمة أصيلة ، ولا نستبعد أن تكون أخذت عن نسخة بخط المؤلف نفسه ، وهى تخالف فى محتواها وفى ترتيبها المخطوطات السابقة، وإن كانت بعض القصائد الواردة فيها مذكورة فى نسخ باريس وفيينا ولينينجراد .

وظاهرة إختلاف النسخ ، على هذه الصورة ، ظاهرة فريدة للغاية وسنعود إليها فيما بعد على أمل تقديم تفسير لها .

ولعل هناك ، غير هذه النسخ ، بعض مخطوطات أخرى متفرقة فى مكتبات الشرق والغرب .

مراجع وتعليقات

(١) القسم المصرى ، ١/١٤٥ — ١٦٨ .

(٢) ط بولاق ، ومخطوطة باريس (مواضع متفرقة) .

(٣) ط محيي الدين عبد الحميد ٤/٢٣٨ — ٢٤٢ .

(٤) ط رفاعى ، ١٩/٢٢٦ وما بعدها .

(٥) ط بيروت ، (مواضع متفرقة) .

(٦) سيرة رقم ٧٣٣ ، ٥/٢١ وما بعدها ، ط محيي الدين عبد الحميد .

(٧) مصورة القاهرة ، جـ ١٢ القسم الأول ، لوحة ٢٣ وما بعدها .

(٨) مخطوطة باريس ، جـ ٤ ، ورقة ١٧٠ وما بعدها .

(٩) جـ ٢ ص ٣٢٤ طبعة مطبعة الوطن .

(١٠) ط القاهرة ٤/٢٢٤ .

(١١) مصورة باريس جـ ٢٧ ، ونفس النص فى « أعيان العصر وأعوان النصر » نسخة دار الكتب ، جـ ٢ ورقة ٢٢٠ ، مما يرجح معه أن المخطوطة التى تحمل عنوان « أعيان » ليست إلا جزءا من « الوافى » لأنها تضمنت ترجمة ابن قلاقس ، بينما الثابت ان الصفدى أورد فى « أعيان العصر » تراجم الأدباء الذين عاصرهم فحسب .

(١٢) ط . القاهرة .

(١٣) مخطوطة دار الكتب .

(١٤) ص ٣٢ .

(١٥) مخطوطة باريس ، مواضع متفرقة .

(١٦) ط . بولاق ، مواضع متفرقة .

(١٧) الطبعة المصرية ، فى أكثر من موضع .

(١٨) مخطوطة باريس ، مواضع عديدة .

(١٩) مخطوطة باريس ، مواضع عديدة .

(٢٠) مخطوطة باريس ، مواضع عديدة .

(٢١) مخطوطة باريس ، مواضع عديدة .

(٢٢) ط. مطبعة الوطن بمصر ، فى مواضع كثيرة .

(٢٣) ط. بولاق ، مواضع كثيرة .

(٢٤) مخطوطة المكتبة الوطنية فى باريس ، وتتضمن أكثر من ثلاثين استشهادا من شعر ابن قلاقس .

(٢٥) مخطوطة بلدية الاسكندرية .

(٢٦) مخطوطة دار الكتب بالقاهرة جـ ١٢ مجلد ٢٧٦/٢ وما بعدها .

(٢٧) ط . دار الكتب بالقاهرة ٥٩/٦ .

(٢٨) ٥٢٤/١ (ط . د. محمد حلمى القاهرة .

(٢٩) ٢٦٩/١٢ ، (طبعة مطبعة السعادة) .

(٣٠) اعمدة ٧٦٧ ، ٧٦٨ ، ٩٢٣ ، ٩٥٨ (طبعة استامبول) .

(٣١) ص ٨٥ (ط. ماسيه ، القاهرة ١٩١٩) .

(٣٢) ٤٩٢/٢ (طبعة استامبول) .

(٣٣) ط. القاهرة ، نحو عشرات مرات .

(٣٤) ط. القاهرة ، ويضم نحو خمس استشهادات .

(٣٥) ط. القاهرة ، وبه ستة شواهد .

(٣٦) أنظر ، على سهيل المثال ، (المثل السائر) ٣٣٠/١ و «التشفية على التشبيه» للصفدى (مخطوطة باريس) ورقة ١٧ ظ ، ٧٨ ط ، الخ . . . والخطط للمقريزى

١٢/١ وصبح الأعشى ٢٩٢/١ والكشكول (ط. الطاهر الزاوى ـ القاهرة) ٤٣٤/١ الخ.

(٢٧) فى القاهرة نسخ متعددة من هذا الكتاب ، فمن ذلك :

مخطوطة دار الكتب رقم ٥٤٩ ، وتقع فى ٥٤ ورقة صغيرة ، ولا تاريخ لها ، وهى تبدو حديثة العهد ، وعلى غلافها : مشترى من قومسيون حصر ، الأملاك بالضبطية فى ٢٧ يونيه سنة ١٨٨٣ ، والملحوظ أنها معنونة بـ « ديوان ابن قلاقس » لا « المختار . . » وهى مذكورة فى فهرست دار الكتب ١١٠/٣ .

نسخة ثانية رقم ٩٦ م ، محفوظة كذلك بدار الكتب ، وتقع فى ٥٣ ورقة كتبها محمود البابلى سنة ١٢٨٥ هـ ، وهى مذكورة كذلك فى فهرست دار الكتب ٢٣٨/٣ .

نسخة ثالثة بدار الكتب بالقاهرة ، رقمها ٩٠٤٣ أدب ، وأوراقها ٦٤ ورقة ، معنونة بـ « ديوان ابن قلاقس » بينما يجىء فى ختامها : « تم المختار من ديوان ابن قلاقس الاسكندرى لابن نباته » وهذه النسخة كاملة ، إلا أن هناك إضطرابا فى ترتيب أوراقها . وترى وصفا لها فى فهرست دار الكتب ، ٣٠/١ (الملحق).

وتوجد بالمكتبة الأزهرية نسخة كتبت سنة ١٢٩٦ وهى محفوظة تحت رقم ٧٠٦٣ أباظة .

وتوجد فى خزانة الشيخ على الليثى فى قويسنا نسخة من « المختار » أشار اليها خير الدين الزركلى فيما سجله فى « الأعلام » عن ابن قلاقس.

وفى الموصل مخطوطتان تحملان عنوان « ديوان ابن قلاقس » ولا ندرى هل هما نسختان من « المختار . . » أم من أحد دواوين الشاعر ، الأولى بمدرسة جامع الباشا والثانية فى مدرسة عبد الرحمن

جلبي الصايغ ، في محلة إبراهيم ، وذكر النسختين داود جلبي في فهرست مخطوطات الموصل ، ص ٤٧ ، ١٥١ .

وتوجد نسخة من « المختار » في خزانة جامعة ييل بنيوهافن بالولايات المتحدة ، ذكرها ليون نيمورى في فهرسه عن المخطوطات العربية في ييل ، ص ٤٧ ، ورقم المخطوطة ٣٠٦ .

وأهم النسخ نسخة برلين التي يذكرها اهلورات في فهرسه تحت رقم ٧٦٩٤ ، وتقع في ٧٤ ورقة ، وتنتهي بـ : « بلغ مقابلته على نسخة منقولة من نسخة أصله ، فيها بعض تحريف ، فأصلحت ماقدرت عليه ، وأشرت لبعضه بالهامش على قدر الإجتهاد ، وبقيت أشياء لم أطلع على معناها ، كتبه رمضان حلاوة ، ثم بعد ذلك : تم نسخة على يد ياقوت المرسى سنة ١٢٩٩ » .

والملحوظ أن رمضان حلاوة هذا هو نفسه ناسخ مخطوطتى « ترسل ابن قلاقس » المحفوظتين بالخزانة التيمورية وبمكتبة جامعة ييل .

وقد اطلعنا على هذه المخطوطة وعلى مخطوطات « المختار » بدار الكتب والأزهر الشريف .

(٣٨) هذا الكتاب نادر الوجود ، ولم نر فيما استعرضنا من الفهارس إلا مخطوطة وحيدة منه محفوظة في خزانة جامعة ييل بالولايات المتحدة تحت رقم ٣٠٥ (أنظر فهرست نيمورى ، ص ٤٧) ، وتقع في ٣٩ ورقة كتبت بخط نسخي جيد ، ولعلها من مخطوطات القرن التاسع الهجرى . ولدينا منها « ميكروفيلم » .

(٣٩) حـ ٥٦/١٤ (ط بولاق ١٣٠٥ هـ) .

(٤٠) ٩٣٤/٧ .

(٤١) أنظر قائمة المراجع باللغات الاوربية ، وما فى كتاب هوارت لا يعدو أن يكون تلخيصا عن ابن خلكان .

(٤٢) ٢٦١/١ .

(٤٣) أنظر قائمة المراجع الاجنبية .

(٤٤) تاريخ آداب اللغة العربية ١٦/٣ .

(٤٥) ٥٢٦/٢ .

(٤٦) مواضع متفرقة ، بحسب البلدان .

(٤٧) طبع الديوان بالقاهرة ، سنة ١٩٠٥ ، بمطبعة الجوائب .

(٤٨) أنظر الفصل الخاص بـ « تحقيق شعر ابن قلاقس » .

(٤٩) ص ٢٢١ ، واعتمد إعتماداً رئيسياً على « معجم الأدباء » فأوقعه ذلك فى عدد من الأخطاء الجسيمة .

(٥٠) ص ٣٧٨ (ط. الاسكندرية سنة ٥٩) وصدرت منه طبعة منقحة بعنوان « الأدب فى العصر الأيوبى » دار المعارف سنة ١٩٦٨ .

(٥١) ٧٥/٢ (ط. القاهرة ١٩٥٦) .

(٥٢) مواضع متفرقة (صدر عن المجلس الأعلى للفنون والآداب — مشروع الكتاب الأول) .

(٥٣) ص ٩٥ (سلسلة « مذاهب وشخصيات » رقم ١٠١)

(٥٤) أنظر على سبيل المثال : « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » للدكتور شوقى ضيف، ص ٤٨٢ (ط ٥) المنتخب من أدب العرب » للإسكندرى وزملائه ، ٩٧/٢ (ط ١٩٤٩) ، « معجم المؤلفين » لرضا كحالة ،

وذكره مرتين ، الأولى تحت إسم عبد الله الاسكندرى ، ١٤٩/٦ ، والثانية تحت إسم « نصر الله بن قلاقس ٩٢/١٣ وفى دائرة معارف البستانى ٤٦٦/١ ترجمة إعتمدت على ما جاء فى «الأعلام» للزركلى (ط سنة ١٩٦٠) وفى دائرة المعارف الاسلامية ، فى الطبعة الأولى ، سيرة موجزة (ج١/٢٦٥) وفى الطبعة الثانية نبذة أطول اعتمد فيها على ما ذكره د. إحسان عباس فى « العرب فى صقلية » .

ويقدم معجم سركيس ملمحا عن الشاعر ص ٢١٧.(ط. القاهرة ١٩٢٨) . وانظر كذلك كتاب د. محمد رزق سليم « الأدب العربى من عهد الفاطميين إلى اليوم » وهو يعد شاعرنا من بين الشعراء الأيوبيين» وكتاب محمود مصطفى « إعجام الأعلام» ص ٣٤ وكتابه «الأدب العربى فى مصر » ص ٢٣٢.

(٥٥) ٣٤٤/٨ .

(٥٦) ص ٢٨٧ .

(٥٧) وهى الآن ملحقة بدار الكتب ، وقد رجعنا إليها ، وإستنسخنا نصها الكامل .

(٥٨) مخطوطة ذكرها تيمورى فى فهرسه ص ٤٧ ، تحت رقم ٤٤٤ .

(٥٩) أنظر مقالته فى « الأعلام» عن ابن قلاقس.

(٦٠) محفوظة تحت رقم ٣١٣٩ .

وتقع فى ١٢٠ ورقة ، مسطرتها ١٧ سطراً، كتبت سنة ١٠٢٣ هـ على يد محمود الملاح ، وفى آخرها أنها نقلت « عن نسخة أخرى قديمة يرجع تاريخها إلى سنة ٦٢٥ ».

والنص مرتب وفقا لحروف المعجم ، وقد كتب بخط نسخى

حسن ، وليست فيه إلا أخطاء قليلة، ومن التمليكات التى عليه واحدة باسم محمد الجيلى تاريخها سنة ١٠٦٣ ، وأخرى للسيد محمد أبى النصر.
وفى فهرست دى سلان ص ٥٥٤ وصف مفصل لها .

(٦١) محفوظة تحت رقم ٢٩٧ .

وتقع فى ٨٢ ورقة ، أما ناسخها فهو « عبد الرحمن بن مصطفى الشهير بقاضى زاده ، نسخها سنة ١٠٤٥ هـ فى قرية سلفين . أولها « هذا ديوان للقاضى الفاضل ، فخر الأقران والأماثل،الألمعى المحقق اللوذعى المدقق نصر الله بن قلاقس المصرى الأزهرى » .

والنسخة مرتبة وفقا لحروف الهجاء .

(٦٢) محفوظة تحت رقم ٤٦٨ فى مجلد ، ومعه ديوان أبى فراس بن المعلم .
ويقع ديوان ابن قلاقس فى ١٢٠ ورقة ، كتبت بخط نسخ واضح ، سنة ١٠٠٢ هـ ، وأنظر فى وصفه فلوجيل ، فى فهرست مخطوطات فينا ، ٤٥٧/١ .

(٦٣) غير مؤرخة ، وقد رجح آربرى أنها كتبت فى القرن التاسع الهجرى ،
وتقع فى ١٥١ ورقة ، وخطها نسخى جيد .

والقصائد فى هذه النسخة لا تخضع لترتيب محدد ، ويتصدرها :

« ديوان الأديب البارع الأديب اللوذعى الأريب أبو الفتوح نصر ابن عبد الله بن مخلوف اللخمى المعروف بالبخترى» وآخر المخطوطة :
« هذا آخر ما وجدته من بديع شعره ، أمطر الله بشآبيب الرحمة حفرة قبره » .

(٦٤) نسخة غير مؤرخة، ورجح آربرى أنها من مخطوطات القرن السادس الهجرى . وتقع فى ٩٩ ورقة ، وعدد من صفحاتها قد انبهمت معالمه، وبعض الأوراق موضوع فى المخطوطة فى غير موضعه .

وقد قدم آربرى وصفاً مختصراً لها وللمخطوطة السابقة ، فى فهرست خزانة شستربيتى بدبلن ، ج ٤/١٥.

الفصل الثاني

النشأة

هو أبو الفتوح نصر بن عبد الله بن مخلوف بن علي بن عبد القوي ، اللخمي الأزهري الإسكندري المصري . وانفرد النواجي في « تأهيل الغريب » بإضافة « الأوندى » . كما انفردت مخطوطة دبلن رقم ٤٦٢٦ بإضافة : « المعروف بالبختري » وأما لقبه فهو « القاضي الأعز » واشتهر على مر العصور بـ « ابن قلاقس الإسكندري » (١) .

وهذه الكنية الغريبة — ابن قلاقس — تبقى بلا تفسير ، ولم يزد ابن خلكان بصددها عن أن يقول ، « وقلاقس جمع قلقاس » ، وبعض الدارسين المحدثين يرجح أن « أحد الأجداد في عمود نسبه يسمى قلاقس ، فحمل حفيده الشاعر النسبة إليه »(٢) ، وهذا القول افتراضي ، ولا يتكيء على أي سند تاريخي ، ونحن نرى الشاعر يقول في قصيدة له ، معرضا بأحد الأمراء :

جاد لي باللقب الفاسد إذ لم يتح لي بلغة من نشبه

فما هو هذا «اللقب الفاسد» الذي ضاق به الشاعر ذرعا ؟ أهو «ابن قلاقس» — إذا جاز أن نعد ذلك لقبا — أم شيء آخر ؟ .

ومولده بالاسكندرية ، « يوم الأربعاء رابع شهر ربيع الآخر (٣) سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة ، (وهي نفس السنة التي ولد فيها صلاح الدين الأيوبي) ، وغريب أن نعلم اليوم والشهر والسنة التي ولد فيها في حين اننا لا نكاد نعرف إلا القليل عن ظروف نشأته وعن أسرته وذويه ، اللهم إلا أنه ينتمي إلى أصل عربي ، كما تدل النسبة إلى لخم وإن كانت هذه النسبة لا تترك أثرا عميقا في شعره ، ومن المرات القليلة التي تلمح ، قوله :

يابني كنـدة أنتم درر ‏ قلدت تيجان صيد العرب
أنا من لخم ولكن جاركم ‏ وحقوق الجار فوق النسب
ولنا أصل نما في يمن ‏ باسق الفرع زكى المنصب

وتلمح كذلك في قصيدته التي هجا بها أحد الشعراء، ويدعى عبد الله بن يوسف وكان قد هجا بعض اللخميين من أهل مصر :

وإلى سرات بني عدى أنتمى ‏ في حيث تثنى العزة القعساء
قوم هم غرر الزمان وأهله ‏ والعالمون جبلة دهماء
أبناء لخم الأكرمين عصابة ‏ لا يغشون وفي الثبات ثناء
أخذوا عن النعمان شرع مكارم ‏ دامت لضيفهم بها النعماء

ومن المؤكد أن أسرة الشاعر كانت فقيرة رقيقة الحال، ففي دولوينه عشرات القصائد التي تدل على أنه الشاعر كان يعاني في مطلع شبابه من صنوف الجوع والحرمان، فمن ذلك قوله يمدح المحدث المشهور الحافظ السلفي، وكان يحدب على على الشاعر، ويعطيه راتبا جاريا :

أجودك أم فيض جود المطر ‏ وبشرك أم بشر عرف الزهر
فناؤك كالبيت أضحت تسير ‏ وفود النوال إليه زمر
لئن كنت عندك ذا رفعة ‏ فما للورى غير ما قد ظهر
يحط الفتى نقصه درهما ‏ وكيف الذى نقص اثنى عشر

ويقول في قصيدة أخرى، مخاطبا السلفي هذه المرة كذلك :

أصبحت من صرف الزمان الجارى ‏ سكران من عون ومن أبكار
متنقل كتنقل الأيام من ‏ أنياب حادثة إلى أظفار

يالابسا حلل الثناء وعاريا ... دون البرية من ثياب العار
أشكو إليك ثلاثة أوهت قوى ... جسدى فبت على شفير هار
وأقول ماقال الخليع (٤) مترجما ... عن حاله بنتائج الأفكار
« أنا شاعر أنا شاكر أنا ناشد ... أنا راجل أنا جائع أنا عارى
هى ستة وأنا الضمين بنصفها ... فكن الضمين لنصفها بعيار

بل أنه لا يتورع عن أن يجأر بالشكوى من عريه وعويل أحشائه :

فثيابي تمزقت مثل أعـــرا ... ض أعاديك لا رعوا من طغام
هذيان نظمته لك فى الشعـ ... ـر وإنى لصادق فى نظامى

وهذه الشكوى الصارخة(٥) كانت تقابلها فى بعض الأحيان حالات من الأنفة والاعتداد بالذات تجعله يعلن عن سخريته من ذوى اليسار والجاه ، أو تدفعه إلى التفلسف وحث النفس على القناعة والرضا بما قسم الله الذى « لا تكشف إلا به الكروب » (٦) .

فى هذا الطور المبكر اعتمد شاعرنا فى معاشه على الراتب الضئيل الذى كان ينفحه إياه أستاذه الحافظ السلفى (٧) ، وكان هو — فى مقابل ذلك — يدبج فيه المدائح ، ويضفى عليه أسمى النعوت ولو جمعنا قصائده فى الحافظ السلفى لشغلت مجلدا كاملا . وهذا المحدث الجليل ، شخصية فريدة من نوعها ، وأصله — كما هو معروف — من أصفهان ، وقد طوف طويلا فى البلاد ، وقابل العلماء ، ولم يكن يستقر فى صقع من الأصقاع إلا ليغادره إلى غيره ، ولكنه ما يكاد يصل إلى الإسكندرية (سنة ٥١١ هـ) حتى يستطيب المقام فيها ويسلو حياة السعى والتطواف إلى الأبد ، ولم يغادر الثغر بعد ذلك إلا مرة واحدة ذهب فيها للقاء العلماء بالقاهرة .

وغنى عن الذكر أن الأسكندرية بطبيعتها الساحرة وموقعها الفريد ، وبيئتها

العلمية الخصيبة هى التى أغرت السلفى بالاستقرار فيها ، ثم اجتمعت عليه عوامل أخرى قوت عزمه ، من بينها أنه تزوج بسيدة تقية واسعة الثراء ، ومن ذلك أن ابن السلار بنى له بالمدينة مدرسة كبرى، وأتاح له هذا المعهد العلمى أن يلتقى بالعدد الجم من العلماء الأفذاذ والرحالة وطلاب العلم ، خاصة وأن الإسكندرية كانت محط الرحال ، وحلقة الوصل بين الشرق والغرب ، ولعل السلفى قد شعر بأنه لم يعد يطيق حياة التقشف الخالص التى عاشها أيام الشباب ، فما أن اتيحت فرصة الاستقرار بالثغر حتى مال إليها .

وكان السلفى يدرس بمدرسته علوم الحديث ومسائل الخلاف وفقه الشافعى ، ويؤلف الكتب ويراسل العلماء كالزمخشرى وغيره وتخرج على يديه نخبة من المشاهير من بينهم ابن الحباب وابن رواج وهبة الله بن المفرج (المعروف بابن الواعظ) وجمال الدين حفص ابن السكندرى والشاعر ابن سناء الملك، وقد مدحه بقصيدة مطلعها :

حمدنا السرى وهى الحقيقة بالذم   لفرقة أرض غاب عن أفقها نجمى

أما ابن قلاقس فانه ، كما أوردنا ، صاغ المدائح الجمة فى وصف مناقب أستاذه ، ومن ذلك قصيدته :

إن بلغتك العيس نجـــدا   فازدد بها كلفا ووجدا

وهى تبدأ بمقطع وصفى يفضى بدوره إلى مقطع آخر غزلى، حتى إذا ما فرغ من وصف المحبوب، وأومض الشفق فى فحمة الليل كأنه مرج من البنفسج تناثرت فى جنباته الورود :

أجريت ذكـــرى أحـــمد   فلأتها مـــدحا وحـــمدا

بســط الأنامــل غارسا　منــا أثبت النبت جمــدا
للشــرع منــه مشــرع　يــدعى لديه البحر ثمــدا
لازال فضلــك عاقــدا　فى نحر عيد النحر عقــدا
وعلى نظــم قصائــد　ينثرن شمل عداك قصدا
عقدت عليــك لواءهــا　فحبالهــم تنحل حقــدا
هيهــات لا تصــدى أزا　هرها وأنت لهــا تصدى

وهذه المعانى عامة مألوفة ، ومع ذلك تراها تتكرر فى كثير من القصائد التى وجهها للسلفى ، وربما كان مرجع الضعف فيها أنها كتب فى طور الشباب ، قبل أن تنضج الملكة الشعرية وتستقيم للشاعر المعانى وتعمق الأخيلة ، ومن جانب آخر فماذا يمكن أن يقال فى مدح شيخ عالم محدث إلا أمثال هذه الأفكار المتداولة ؟ .

وسنرى أن شاعرنا أخذ يتبين مكانته شيئا فشيئا ، وأن سوق شعره بدأت تروج وتهيىء له بعض الشهرة وقدرا من المال ، ولكنه يظل لفترة من الزمن عكوفا على حضور مجالس أستاذه وعلى نظم المدائح فيه ، ويتصل فى الآن ذاته بعدد من سراة الثغر وكبار موظفى الدواوين هناك،وفى هذا الطور نرى له أشعارا ينظمها فى عرس يهودى أو أحد نصارى الثغر ، فمن ذلك .

فاشرب هنيئــا كــأس را　حك فهى مفتاح السرور
أو رتــل الإنجيــل معتضــدا بألحــان الزبــور
أبنــاء عيســى ســادة　أو قــادة طــول الدهر
أهــل الــدواويــن الذيــن لهم نفــاذ فى الأمور

وفى ختام القصيدة يعرب عن مطلبه ، وما أهونه من مطلب لا يعدو تهيئة ركن أثير ، ووجبة مستطابة !

ثم نراه يتصل بقبيل من نبلاء الإسكندرية اسمه أبو الحسن على بن خليف(٨) ونحن لا نعلم عن ابن خليف هذا سوى أنه كان موفور الثراء محبا للشعر والشعراء، ومما يدل على ثرائه مارواه ابن ظافر الأزدى فى «بدائع البدائه» عن أبن قلاقس: «وحضر يوما عند ابن خليف بظاهر الإسكندرية، فى قصر رسا بناؤه وسما وكاد يمزق بمزاحمته أبواب السما.. فسأله بعض الحضور أن يصف ذلك الموضع الذى تمت محاسنه، فقال:

قصر بمدرجـــة النسيم تحدثت | فيه الرياض بسرهـــا المستور
خفض الخورنق والسدير سموه | وثنى قصور الروم ذات قصور
وكأننا والقصر يجمع شملنا | فى الأفق بين كواكب وبدور
وكذاك دهر بنى خليف لم يزل | يثنى المعاطف فى حبير حبور

والذى يدلنا على أن ابن خليف كان من محبي الأدب ما نراه هنا وهناك من عبارات ترد فى إحدى نسخ الديوان، من بينها قول ابن خليف نفسه:

«وقال (ابن قلاقس)، وكتبها على مجموع كان بيدى، بيديها...»، وابن نباتة — يذكر نفس النص الشعرى، ويصدره بقوله: «وقال يصف مجموعا ألفه ابن خليف..» ولا ننسى أن ابن خليف قام بنفسه بجمع بعض قصائد شاعرنا وهذه مسألة سنبسط القول فيها فيما بعد.

ويضم ديوان الشاعر أكثر من مدحة فى ابن خليف وفى أبنائه وأقربائه، ويستفاد منها ومن المقدمات النثرية التى تصاحبها، أن ابن قلاقس عمل عنده من اشمن ناسخا للكتب (٩)، وقد استنتجنا هذا من عبارات متناثرة فى ديوان الشاعر، من قبيل: «وكتب الى (والمتحدث هو ابن خليف) بتاريخ.. صحبة ديوان شعر المتنبي، يعتذر الى» أو «وكتب بها الى معتذرا عن تأخر كتاب كان

لى عنده ، ينسخه لى، والشاعر يعرب تارةعن اغتباطه بعمله ، وخاصة أثناء نسخه لديوان المتنبي ، وهو ساخط تارة أخرى لأن الورق الذى ينسخ عليه واشح رديء ، غدا معه المداد الأسود فى لون القطن .

وقصائد المديح فى ابن خليف هذا ليست بذات خطر ، وتبدو فى بعض الأحيان شبيهة بالمحاولات الأولى التى لا يلبث الشعراء أن يأنفوا من إثباتها فى دواوينهم حين يصلب عودهم ، وتستوى ملكتهم ، ولعل من أجودها قصيدته :

هو ملتقى أرج النواسم فانظرا هل تعرفان به القضيب الأنضرا

وفيها يستطرد فى الوصف حتى ينتهى إلى الدن وقد هتك جيب قميصه عن خمر يتألق وهجها القانى ، وإذا هى :

ريعت بسيف المزج فاتخذت له درعا من الحبب المحوك ومغفرا
وغمست ثوب الريح فى كاساتها حتى سرى أرج الشمائل أعطرا
فكأنه ذكرى أبى الحسن التى فتقت به الامداح مسكا أزفرا

وفى هذه المدحة يسترسل فى وصف الرياض المزهرة ثم يعرج على الخمر إلى أن ينتهى بالمديح ، وهذا التصميم يشبه ، من بعض الوجوه ، صنيع الشعراء القدامى الذين كانوا يبدؤون بوصف الترحال والمفاوز المترامية والوعول ونحوها ، إلى أن ينتهى بهم التسيار إلى نبع الجود وأصل الكرم وأس المجد الذى لا يطاوله مجـد ..

وبعد حين يحدث أمر ما لا نعرفه ، يفسد العلاقة ما بين الشاعر وممدوحه ، ومن ثم يتحول المديح إلى عتاب ، بل ويتجاوزه إلى التصريح بالقطيعة . ومن قصائد العتاب قوله :

تغـير عن مودته وحالا   وأظهر بعـد رغبته ملالا
فما ينفك يظلمنى اعتداءا   وما أنفك أنصفه اعتدالا
وقد نزهت عن هجر وهجر   وإن أبدى الخليل بى إختلالا
ومن طلب الوفاء من الليالى   على علاتهـا ، طلب المحالا

ثم ينثنى فيناشد ممدوحه القديم ألا يصغى لألسنة الحاسدين ، ولكن الشاعر لا يعاتب فى ضعف وذلة ، بل تسمع فى أبياته نبرة الإعتداد والثقة بالنفس،وأما التصريح بالقطيعة ، والمجاهرة بالخصام فيبدو جليا فى مثل قوله :

أقبل بوجهك إنى عنك منصرف   فما اقول لسؤالى وما أصف

ومنها :

خدعت فى وغرتك الضراعة بى   ومال تيها بك الاعياء والصلف
وكم صبرت وقلت الحر بوجهه   لين الكلام وإن ولى به الأنف

وإلى جانب العتاب والمجاهرة بالقطيعة تبرز نغمة أخرى هى نغمة الفخر بالذات فى صورة أشد وقعا من التى أشرنا اليها من قبل ، وإذا بالشاعر البائس الذى كان بالأمس يتشكى من قرص الجوع يزعم الآن أنه سليل العز والمجد وأن ما به من رقة الحال أمر لا يشينه فى شىء :

يحاول الحال منه ذل جانبه   والعز شىء تغذاه مع اللبن
إن كان كالنبع عريانا بلا ثمر   فمثله هو طلاع على القنن

والذى نظنه أن القطيعة بين الرجلين استمرت فترة من الزمن ثم انتهيا إلى الصلح فى أخريات حياة الشاعر ، ومما يحملنا نرجح مثل هذا الرأى أن ابن خليف هو الذى أغرى الشاعر بأن يجمع رسائله فى كتاب،وكثير ما فى «ترسل ابن قلاقس» كتب فى خلال السنوات الأخيره من عمره ، مما يقطع بأن الود تجدد بينهما مؤخرا ،

بينما لا نرى فى دواوين الشاعر قصائد فى مدح ابن خليف ، مما يمكن إعتبارها من ثمار المرحلة المتأخرة من عمره التى نضجت فيها موهبته وتمثلت فيها براعته .

ومن الممكن أن يكون شاعرنا قد ترك الشعر فى أعقاب خلافه مع ابن خليف وتوجه إلى القاهرة حيث درس بالأزهر الشريف (١٠) ، كما قد تدل على ذلك نسبة « الأزهرى » التى ذكرها له ابن خلكان ، وأشار إليها هو من قبل حين قال :

وأزهر منسب حبى له ... يؤكده أننى الأزهرى

لو صح ذلك لجاز القول بأنه إنما لقب بالفقيه والشيخ لأنه تلقى علومه الدينية بالأزهر الشريف ، وإن كان أمر دراسته بالأزهر يبقى محيراً ، فكيف جاز له — وهو السنى — أن يكمل دراسته فى معهد كان لا يزال إلى هذه الحقبة يتجه إلى تدريس مذاهب المتشيعة ؟

وليست لدينا معلومات واضحة عن طبيعة العمل الذى كان يؤديه على أن لقبه « القاضى الأعز » (١١) يشير إلى أنه كان يؤدى وظيفة ما فى بعض الدواوين ، وإن كنا لا نعرف هل كان عمله بالقاهرة أم بالاسكندرية ، وهناك نصوص تثبت أنه لم يكن على وئام مع « ناظر الديوان » ولا مع كثير من أقرانه فى الوظيفة :

ومن البلية أننى فى بلدة ... ذل التقى بها وعز الفاجر
أبصرت فى الديوان أعمى جالسا ... فسألت من هذا فقيل : الناظر
ورأيته وهو الأشل مقلدا ... سيفا وما يغنى الأشل الباتر
ولقد أبانت لى الدفاتر أنه ... شخص كثير العى فدم فاتر
فصرفت عنه عنان حاجى زاهدا ... فى ناظر قد غض منه الناظر

ما كنت أرغب فى زمان أول   فيروقنى هـذا الزمان الآخـر

وهناك قصيدة أخرى كتبت سنة ٥٥٩ — أى حين كان فى السابعة والعشرين من عمره — فيها مثل ما فى القصيدة السابقة من حنق وسخرية وحدة :

قـل للشريف على مقولتـه   لقـد إنتهيت لغاية الكذب
لقد احتللت مخازيا عذرت   مـن أجلها حمالة الحطب
يا ناظر أعمى وإن لعبت   فى وجهـه ألحـاظ مرتعب
غض الخليفة عنـك ناظره   فنهبت من نسب ومن نشب

ومقطوعة أخرى كتبت فى نفس التاريخ تقول :

إذا أبصرت ناظـرنا   وقد حفت به الخدم
فلا تغررك قمقمـــة   كسته محـالها الحـرم
وخـذ قرطاسه لترى   مقـابح خطهـا القـلم
تجدها ثم شاهـــدة   بأن وجوده عدم !

ولدينا قصيدة كتبت بدورها فى نفس السنة تبدأ هكذا :

أما الكواكب فاحتموا بمواكب   كم من عراب حـولهم وأعارب

ويستهلها بمقطع غزلى ، لايلبث أن ينفلت منه إلى الهجاء ، وفيه يذكر كيف أنه جلى غرر القصائد فى مدح « المنصور » وكان قد قصده ليكون من خدامه، ولكن الرجل أبى إلا أن يقيمه مقام الصاحب ، وخصص له راتبا حيل بينه وبين نيله ، فقد تواطأت عليه الأقدار ، ورزأه الدهر بناظر أعمى لا مثيل له فى الوجود ولا نظير لجشع أتباعه وعماله :

قوم كأن الله صب شخوصهم   واللؤم لما صوبوا فى قالب !

ولسنا نعلم على وجه اليقين من هو « المنصور » الذى يذكره الشاعر فى قصيدته السابقة فهل هو وزير مصر ضرغام وكان قد تلقب بـ « الملك المنصور » حين ولى الوزارة سنة ٥٥٩ هـ ؟ وإذا كان الأمر كذلك فبم نعلل ما جاء فى الديوان من أنه « قال يمدح السلفى ويذكر بناء الصالح ملك مصر مدرسة للفقيه المذكور » (١٢) :

يد الصالح المنصور أعظم نائلا ... وأجزل اعطاء وأوفر مغنما
مليك أضاء الليل من نور وجهه ... وافعاله الحسنى وقد كان مظلما
يريك إذا سالمته البدر طالعا ... تماما وإن جاريته الليث مقدما
رددت الضحى ليلا من النقع مظلما ... وأطلعت فيه بالأسنة أنجما
وشيدت بالاسكندرية بنية ... بها أصبح الثغر المبارك معلما

وفى الديوان قصيدتان غير هذه ، تتصدر كلا منها عبارة تنص على أنه «قال يمدح الحافظ السلفى ، ويعرض بمدح الصالح بن رزيك سلطان مصر» ، وبعض هذه القصائد كتب سنة ٥٥٥ هـ ، أى فى الأونة التى كان فيها الصالح بن رزيك بالفعل السيد المطلق ، وصاحب الكلمة العليا فى مصر ، ولكن الملفت للنظر أن كافة المراجع تجمع على أن الصالح كان شيعيا إماميا ، ولا يشير أى منها إلى أنه بنى مدرسة للسلفى بالاسكندرية ، والشىء المؤكد أن الذى شيد المدرسة للحافظ السلفى هو على ابن السلار الملقب بـ « الملك العادل » ومن ثم عرفت باسم « المدرسة العادلية » وليس الملك الصالح بن رزيك . والملاحظ أن أيا من المصادر لم تذكره على أنه كان « سلطان مصر » ، ولقب السلطان أطلق فى مصر أول ما أطلق على صلاح الدين الأيوبى ، وليس على ابن رزيك .

وإذا كنا لا نعرف شيئاً عن صلات الشاعر بالملك الصالح طلائع ، فإننا

...ـد على العكس من ذلك — نملك طائفة من النصوص والأخبار عن علاقاته ببعض رجالات عصره ، وقد أشار هو إلى شيء منها فى رسالة بعث بها من الفسطاط « إلى بعض أساتذته بالثغر » — ولعلها للحافظ السلفى — ومما قاله فيها :

« كتبت .. إلى مصر .. حرسها الله .. وقد خرجت بظاهرها ليلة الجمعة للتنزه مع الأمراء أدام الله على امتداد ظلهم ، فلما أوقدت السماء مصابيحها وأهدت الرياض إلى المعاطس ريحها ، ورقد الأنام ، وبقى الحى الذى لا ينام هزت معاطفى اليكم نشوات الارتياح ، وحيتنى بنسيمكم ألطاف الرياح ... » .

وفى الديوان مقطوعة بعث بها إلى ضرغام — قبل أن يتولى الوزارة — وكان قد وعده بتقديمه للإنشاد بحضرة شاور :

يا فارس المسلمين انظر إلى تجمد روضا هشيما على قرب من السحب
لا أقتضيك لتقديم وعدت به من عادة الغيث أن يأتى بلا طلب
عيون جاهك عنى غير نائمة وإنما أنا أخشى حرفة الادب !

ولعل مساعى ضرغام أفلحت ، وعلى كل فإن ديوان الشاعر عامر بقصائد المديح فى شاور وفى ابنه الكامل شجاع، وله قصيدة يهنوءه فيها بالوزارة وبقضائه على آل رزيك ، أولها :

بك الإسلام قد لبس الشبابا وكان سناه قد ولى فغابا

ومنهـا :

سلوا عنـه بنى رزيك لما أفاد الحرب منهم والخرابا
وأقدم نحوهم أسدا مشيحا فـولوا بـين أيـديـه ذئـابـا

فإن عمرت جموعهم الفيافى فقد تركوا ربوعهم خرابا
أهاب بهم لسان الخوف حتى أقاموا لراحته نهابا
فإن جعلوا الظلام لهم مطيا فقد جعل النجوم له ركابا
ولو شامت صوارمه القواضى أقامت دونهم سورا وبابا
وساق اليهم عربا ورعبا يسميها الكتيبة والكتابا
وكم قادوا الصواهل مقربات فقادن لهم إلى الذل اقترابا

ثم يمضى فيصور ما إنتهى إليه أمر آل رزيك من هوان ، وكيف أنه لم تغن عنهم الدروع ولا الظبا ، ومن ثم استسلموا طوعا لشاور :

وحسن رتبة قبحت لديهم وكان التاج فى الأرساغ عابا

وفى هذه القصيدة — ومثيلاتها — يمعن فى رفع قدر الممدوح وفى الحط من منزلة أعدائه ، وكأن بينه وبينهم ثأرا أو ضغينة ، ولا ثأر هناك ولا ضغينة ولكنها تقاليد فن المديح ، والشوق إلى العطاء ، والضعف أمام صولجان الجاه والسلطان .

وسنعود بعد قليل إلى متابعة الحديث عن صلات الشاعر بشاور وبغيره من رجالات الدولة ، لنتوقف الآن أمام قصيدته التى يذكر الديوان أنها فى مدح خليفة المغرب عبد المؤمن بن على (١٣) .

وهذا الخليفة توفى ، كما هو معروف ، سنة ٥٥٨ هـ ، فمتى مدحه الشاعر ؟ ولم لم تصل إلينا تفصيلات ما حول هذه الرحلة المغربية ؟ وكيف غاب الأمر عن مؤرخين لهم وزنهم من أمثال العماد الأصفهانى وياقوت وابن خلكان ؟ ولماذا لا نرى له إلا قصيدة يتيمة فى مدح هذا العاهل الكبير ؟

وإذا كنا لا نستطيع أن نصل فى هذه القضية إلى يقين فإننا نعمد إلى الظن

والترجيح ، وإذا كانت القصيدة فى عبد المؤمن حقاً ، فإننا لا نستبعد أن تكون أرسلت اليه مع أحد العلماء أو الشعراء المغاربة ممن كانوا فى المشرق لأمر من الأمور ، وليس فى ذلك غرابة ، فهناك من الشعراء من عاقته الظروف عن أن ينشد قصيدته بنفسه بين يدى الممدوح فاكتفى بإرسالها ، ولشاعرنا نفسه — كما سيأتى — مدائح فى بعض زعماء صقلية كتبها وهو بالثغر ، وشيعها إليهم لكى يعرفوا منزلته وينال عندهم الحظوة حين يصل إلى جزيرتهم . هذا احتمال ، وأما الإحتمال الآخر فهو أن تكون القصيدة فى « ابن عبد المؤمن » أبى يعقوب يوسف ، الذى حكم المغرب من سنة ٥٥٨ إلى سنة ٥٨٠ هـ ، ويكون الشاعر قد أنشده أياها وهو فى طريقه إلى صقلية أو فى أثناء عودته منها .

ولنعد إلى القصيدة نفسها لنراه يقول فيها :

طار عن برقة برق فشمى   ضم سقطيه بسقطى إضم
وعلى السفح عيون جرحت   فهى لا تسفح إلا بالدم

وتمضى هكذا موهمة جياشة ، إلى أن تحين برهة المديح وبأى معان يمدح ؟ :

بمعان ما تأتى حوكها   لزهير فى معالى هرم
عظمت قيمتها مذ علقت   بأمير المؤمنين الأعظم(١٤)
كعبة المن التى من زارها   بات فى أمن حمام الحرم
قبلة الدين التى نأتمها   عندما ينزل عيسى مريم
جوهر النور الذى آنسه   لحظ موسى فى سواد الظلم

وبعد أن أضفى على الممدوح كل هذه الأوصاف الروحانية مال إلى إبراز قوته العسكرية المهيبة ، فهو :

قائد الجيش الذى من راعه ... باسمه قبل التلاقى يهزم
حلقت من خلفه راياته ... فهى أمثال الحمام الحوم

والذى يجعلنا نرجح أن القصيدة أرسلت إلى عبد المؤمن ولم يسافر بها الشاعر بنفسه ليلقيها بين يدى الخليفة ، ما يجىء فى نهايتها :

يا إماما خضع الدهر له ... وأطاعته رقـــاب الأمم
دعوة رجعها مستمسك ... بعرى القصد التى لم تفصم
كلما رام نهوضا حثه ... قول زغب عنده : لا تقم

ويضم الديوان عدداً من المدائح فى بعض رجالات الدولة ، فمن ذلك قصيدة ينص على أنها فى مدح « بعض أمراء الدولة المصرية » ، وأولها :

سفحت عيون الغيث أدمع قطره ... فالروض يضحك عن مباسم ثغره

والشاعر يقدم للمدحة بمقطع خمرى طويل حتى يصل بعد لأى للممدوح الذى يناديه بـ :

يا فارس الإسلام حين ترحلت ... فرسانه وتخاذلت عن نصره
والصارم الذكر الذى فضت به ... من خلف ستر النقع عذرة بكره

و « فارس المسلمين » كان من الألقاب التى نعت بها ضرغام ، منذ أن جعله الصالح بن رزيك على رأس فرقة « البرقية » ، ودفعه إلى خوض الحرب ضد الصليبيين ، فلعله هو المقصود بالمدح هنا .

ومن جانب آخر فإن شاعرنا كان لا يفتأ يتغنى بأمجاد ضرغام بن سوار ، ولما دب الخلاف بينه وبين شاور طلب فارس الشام وثاب بن ناصر الدولة ياقوت (١) من الشاعر أن يهجو ضرغاما ، ولكنه يأبى ، ثم يهرب وثاب مع

شاور للشام ، وحينئذ يجد ابن قلاقس الفرصة مواتية لكي يهجو فارس الشام وينعى عليه هربه ، غير أن نجم ضرغام لا يلبث أن يأفل ، واستيلاءه على الوزارة لا يمتد إلا زهاء تسعة أشهر ثم يلاقى حتفه ، ويقف شاعرنا موقفا نبيلا من ولى نعمته القديم فيرثيه بقوله (١٦) :

أصابت سهام اليأس قاب المطامع   وصابت بغيث البأس سحب الفجائع
وما كنت أخشى غيره وقد انقضى   فكل مصاب بعده غير فاجع
وأقسم لو مات امرؤ قبل موته   لكنت على الأعقاب أول تابع

وربما كانت فجيعته فى ضرغام صادقة ، ولكنه — على كل حال — لا يملك إلا أن يطوى هذه الصفحة من حياته ، ويعود من جديد لنظم المدائح فى شاور وأبنه ، وفى الديوان مدحة تتصدرها عبارة :

« وقال فى الأجل الكامل بن شاور ، وأنشدها بين يدى موشحته فيه ، والتى أولها :

« ضحكت إلى الأحباب عن ثغر الحباب »

ومدحة أخرى مفعمة بالحماسة مستهلها :

طليعة جيشك النصر المبين   ورائد عزمك الفتح اليقين
وحيث حللت فالرايات تهفو   عليك وتحتها الرأى الرصين

وصف فيها جيش شاور اللجب الذى أشرق به الفضاء ، وأدخل الرعب فى صدور الأعداء .

وعقيب الحملة النورية الثانية ، التى هبت فى أثنائها الثورة بالإسكندرية ضد شاور ، نجد أن شاعرنا مذبذب النفس ، فهو يمدح وزير البلاد وهو فى الوقت ذاته يأسى لمصير رفقائه الذين حاربوا ضد شاور ، وله فى وصف الصراع

الذى دار بين جيوش شيركوه وجيوش وزير مصر قصيدة مطلعها :

عارض الصفح فى يديك الصفاحا ورأى البأس أن تطيع السماحا

وفيها يعلى من قدر شاور ، ويجعله الحافظ لشئون الرعية ، الكابح لجماح الثائرين :

أى ثغر سما إليه أبو الفتـ ـح فلم يقتدر إليه افتتاحا
وهو الباعث الكتائب لا تحـ ـكى براحا وإن دعت لابرحا
يدع المسرح المباح مصونا ويرى المعقل المصون مباحا
بخيول طارت بأجنحة النصـ ـر فراحت بها تبارى الرياحا
وكماة غر فقصوا الليل وساقوه فى العجاج صباحا
شاركت شيركوه فى النفس والما ل وصاحت به فصاحا فصاحا
طلب الأمن فاستجيب وما يعـ ـرف منك الطلاب إلا النجاحا
بعد ما ضيق الحمام عليه سبلا غودرت إليه فساحا
يحسب الليل قسطلا ويظن الـ ـبرق والشهب أنصلا ورماحا
ويود النهار لو كان ليلا لا يرى فى ظلامه مصباحا

ثم يذكر الثورة بالإسكندرية وكيف أعمل شاور السيف فى زعمائها وصادر أموالهم وقمع حركتهم .

وشاعرنا ، كما نعرف ، سكندرى المولد والنشأة ، وكان من الطبيعى أن يحزن لما لحق بمدينته وبأهلها من بأساء ، ولكن أنى لمثله أن يتصدى للبطش والجبروت ؟ على أننا نرى له فى الوقت ذاته وقفة نبيلة بإزاء الأديب الشاعر الرشيد بن الزبير ، ناظر الدواوين بالثغر ، وأحد زعماء الثورة فيها ، فقد أرسل إليه شاعرنا حين

كان مختبئا بالمدينة ، خوفا من الوقوع بين مخالب شاور ، عدة مكاتب شعرية ، منها قصيدة مستهلها :

تدانيت دارا والوصول شسوع . فخالك ذو الود الوصول قطوع

وأرسل إليه كذلك أبياتا أولها :

عندى فؤاد يكاد الشوق ينزعه وليس يدرى بما تخفيه أضلعه

وقد أجابه الرشيد عنها بأبيات أولها :

يا مغرما بنفيس الدر يجمعه ومولعا بجميل البر يصنعه

ولم يقدر للشاعرين أن يلتقيا بعد ذلك أبدا ، فإن رجال شاور مالبثوا أن اهتدوا إلى مخبأ ابن الزبير ، فسيق إلى السجن ثم قتل بعدها بقليل .

ويؤثر ذلك كله فى نفس شاعرنا فنراه يعقد العزم على عدم الإقامة بالاسكندرية ، ونراه يقول فى رسالة بعث بها الى بعض أصحابه :

« الله يعلم أنى كاره القيام بالثغر لما يتجدد فيه كل يوم من الأسباب المقوية لهذه العزيمة ، والأحوال الباعثة على مصارمته ولو كان جنة الخلد المقيمة . . . »

وإلى أين يمضى ؟ إن أرض مصر كلها تسودها القلاقل وتنبض بالصراع والتربص ، ولم يكن غريبا أن يتطلع إلى الأفق المحجوب عن عينيه ، المتوارى وراء الأمواج ، وهو الذى عاش حياته يشهد السفن القادمة والآيبة ، فتثير فى نفسه الشوق للمغامرة والأسفار ، وها هو الآن وقد أوفى على الثلاثين (سنة ٥٦٢ هـ) واكتسب نصيبا من الشهرة والخبرة بالحياة ، ولم يكن يضيره كثيرا انه نحيل الجسد ، لا لحية له (١٧) ، وأنه كان لا يملك من متاع الدنيا إلا القليل ، إنه يقول فى تحد ولا مبالاة :

شرفى جاوز الغنى ومن المـــا رض ماانحط عن رؤوس الجبال
ونحولى أجـــدى على ولولا دقـة السلك لم يفـــز باللآلى

وفى القصيدة نفسها يقول إنه وإن خف عارضاه فإن ذلك لاينقص من قدره شيئا ، وعلى الرغم من هذا النحول والضعف نراه يتأهب لمواجهة الأسفار الشاقة البعيدة ، وفى ديوانه نصوص متنوعة نرجح أنها تتصل بأمر الاسفار التى عول على القيام بها ، منها نص شعرى كتبه «ليستدعى من أحد رجال الاسكندرية درعا وبيضة وترسا ، ومنها ماقاله رتجالا وقد أهدى إليه ترس :

لله در مجن قـد حبيت بـه صيغت كواكبه فيه على قدر
لم يخط تشبيهه من قال حين بدا إن الثريا بدت فى صفحة القمر

ولدينا عنه جملة من الأخبار تصوره بالقاهرة والفسطاط والاسكندرية ، ونرجح أنها تتصل بالفترة التى سبقت قيامه بالاسفار خارج وطنه فمن ذلك أنه كان جالسا « بمكان بمصر يعرف بدار الأنماط ومعه جماعة . وقد مرت بهم امرأة مشهورة بالجمال تعرف بابنه أمين الملك وكان تسير ثم تقف وتتلفت ، فاقترح عليه الحاضرون أن يعمل فيها شيئا فقال : هذا يشبه قول ابى الطيب المتنبى ... ثم أنشأ ارتجالا ..» وأورد ابن ظافر،غير مامر،: « واخبرنى أبو عبد الله بن المنجم ما معناه : صعدت إلى سطوح الجامع بمصر « يعنى جامع عمرو بن العاص » فى آخر شهر رمضان . مع جماعة ، فصادفت الأديب الأعز أبا الفتوح ابن قلاقس ، ونشو الملك بن المفرج ابن المنجم (١٩) ، وابن مؤمن ، وشجاعا المغربى ، فانضفت إليهم ،فلما غابت الشمس وماتت ... وتجلى زنجى الليل بخلخاله ، اقترح الجماعة على ابن قلاقس وابن المنجم أن يصنعا فى صفة الحال ، فأطرق كل منهما مفكرا .. فلم يكن إلا كرجع البصر حتى انشد ... فكان ماصنعه ابو الفتوح ... »
كما يذكر خبرا آخر عن لقاء بالشاعر مع بعض عشاق الادب وقد صعد الجميع

إلى أحد منائر الجامع ساعة الغروب ، وما ارتجله فى ذلك الموقف من شعر (١٩) .

ويتضمن « بدائع البداته » كذلك طائفة من أخبار الشاعر بالإسكندرية ، فمن ذلك قوله : « والحكاية مشهورة عن ابن قلاقس والوجيه أبى الحسن على ابن الذروى(٢٠) أنهما طلعا منارة الاسكندرية ، والوجيه يومئذ فى عنفوان شبابه وحياه ، وهبوب شماله فى الجنوب وصباه ، وابن قلاقس مغرم بحبه ، مكب على تهذيبه ... فاقترح عليه ابن قلاقس أن يصف المنارة فقال بديها :

وسامية الأرجاء تهدى أخا السرى ... ضياء إذا ما حندس الليل أظلما
لبست بها بردا من الأنس ضافيا ... فكان بتذكار الأحبة معلما
وقد ظللتنى من ذارها بقبة ... ألاحظ فيها من صحابى أنجما
فخيل أن البحر تحتى غمامة ... وأنى قد خيمت فى كبد السما

فحين رأى ابن قلاقس ما أتى به اشتد به سروره وفرحه ، فقال بديها يصفها ويمدحه :

ومنزل جاوز الظلماء مرتقيا ... كأنها فيه للنسرين أوكار
راسى القرارة سامى الفرع فى يده ... للنون والنور أخبار وآثار
أطلقت فيه عنان الفكر فاطردت ... خيل لها فى مجال الشعر مضمار
ولم يدع حسنا فيه أبو حسن ... إلا تحكم فيه كيف يختار
حلى المنارة لما حل ذروتها ... بجوهر الشعر بحر منه زخار
مازال يذكى بها نار الذكاء إلى ... أن أصبحت علما فى رأسه نار

كان الذروى إذن تلميذا ، لابن قلاقس ، غير أن شيئا مالايلبث أن يقضى

على ما فيها من وشائج ، وابن ظافر — فى الخبر الذى سقناه منذ قليل — يقول « ولم تكن وقعت بينهما تلك الهناة ، ولا استحكمت بينهما أسباب المهاجاة ، فما هى تلك الهناة التى أفسدت ما بينهما ؟ لا أحد يدرى ، ولكننا نلمح بعض جوانب هذا الخلاف فى عدة مواضع من ديوان شاعرنا ومن مجموعة ترسله ، فمن ذلك مقطوعة تقول :

يا ذرويا كان فى حبه　　جسمى فى الرقة كالذر
أقصدتنى بالهجو من بعدما　　أقصدتنى من قبل بالهجر
كن آمنا فالدهر قد شفعت　　أحداثه فيك مدى الدهر !

وفى « الترسل » خطاب بالغ القصر كتبه الشاعر إلى ابن الذروى واستهله ببيتين هما :

جرح الخواطر ليس يو سى　　فيه تبين عجز عيسى
فحذارا منه يا وجيـ　　ـه كما زعمت ولست موسى

وفى ذلك الخطاب حديث غامض عن حاجة كانت للشاعر لدى صاحبه ، ولكنه يائس من أمره ، والدليل على ذلك قوله فى الختام : « واعلم أنك لا يعمل فيك الملام . فما لجرح بميت إيلام ، والسلام » :

أما ابن الذروى فاننا لا نظن أن ديوانه موجود ، ولكننا نستدل من مقطوعتين اوردهما الصفدى له انه كان ناقما حانقا على صاحبه ، حتى ليقول فى المقطوعة الثانية ، وهى الأقل فحشا .

ياسائلى عن أبى الفتوح وعن　　عيشته فى البلاد من أين
يعيش من شعره وقحته　　فاعجبت ان عاش من كنيفين !

وفى أعمال شاعرنا ما يدل على أنه تخاصم وعبد الله بن يوسف الشاعر (٢١) ، وكثر بينهما الهجاء ، كذلك نجد أهاج عديدة فى شاعر سكندرى يدعى أحمد الآبى (٢٢) — وهو من الأدباء الذين أورد ياقوت ترجمة لهم — فمن ذلك مقطوعة ذمه فيها لأنه « سأله مساعدته فى شراء سنبوق (نوع من الزوارق) فلم يفعل » ، من أبياتها :

أتروم خلا فى الوداد صدوقا   حاولت أمرا لو علمت سحيقا
فاعلق بأطراف الوداد فإنه   من دافع الأمواج مات غريقا

وهذه المقطوعة تخلو من الحدة التى ستتميز بها أبيات الشاعر التى قالها فى الآبى هذا ، حين التقيا فى عدن ، على ما سترى ..

واما أطرف ألوان السجال فكانت بين شاعرنا و بين مغن بالاسكندرية يدعى الحسام بن صاحب ربع ، وفيما يبدو أن ابن قلاقس قد هجاه لأمر ما ، فأراد الحسام هذا أن ينتقم منه ، على نحو ما يتضح من هذه القصة التى أوردها ابن ظافر نقلا عن ابن المؤيد عن أبيه :

« كنت عند الأمير شمس الملك نبهان بن عين الزمان ، وعنده الأعز ابن قلاقس وجماعة ممن يجالسوه ، وعنده مغن يقال له الحسام ، وهو ابن صاحب ربع المشهور ، فجعل يغنى بليقة لحسام الدين الاسكندرانى فى هجاء ابن قلاقس ، أولها :

أسألوا عنى فتوح   ابن قلاقس
كيف رأى ضرب التلوح   بالدرافس

فعز على ابن قلاقس ما فعله ، وقام ، وأوهم أنه يمضى إلى المتوضا ثم عاد سريعا حتى وقف بباب المجلس وقال :

ليس الحسام حساماً وإنما هو غمد
يشدو فكم من فؤاد تحت السياط يشد

فكأنما ألقمه حجراً »

وفى ديوان الشاعر مقطوعة فى هجاء مغن - لعله هو الحسام الذى مر بنا أمره - وكان قد تفاخر بأنه من رواد مجالس السلطان :

إن كان قد زاد فى رقاعته وقال إنى جليس مولانا
فالشمس والشمس ماعلمت بها تجلس فيها الكلاب أحيانا

ولم نجد للشاعر مدائح فى الخليفة العاضد، وإن كانت هناك ستة أبيات اختار ابن نباتة معظمها وصدرها بالعبارة الآتية :

« وقال بديها ، فى بعض الخلفاء »، وفى مقابل هذه العبارة نجد أن نفس النص بالديوان مسبوق بالعبارة الآتية :

« ووجدت له من قصيدة صنعها باليمن ، يصلح ان يمدح بها خليفة » والفرق جلى بين قول ابن نباته وما جاء فى الديوان ، ونحسب أن الشاعر لو كان اتصل بالعاضد لوجدنا إشارات عن ذلك ، ولعله كتب أبياته هذه ، وكان يعتزم أن يوجهها للخليفة غير أن المنية وافته قبل أن يحقق غايته .

وإذا كنا لانجد فى شعره ماينم عن صلاته بأى من أبناء البيت الفاطمى فإننا - فى مقابل ذلك - نجد له آثارا عديدة موجهة لبعض رجالات الدولة الفاطمية فمن هؤلاء القاضى الجليس (٢٣) وكان شاعرا ناثرا وطيد الصلة ببيت الخلافة . ولما توفى القاضى الجليس (سنه ٥٦١ هـ) رثاه شاعرنا بقصيدة مطلعها :

علمنا وقد مات الكمال التساويا فيا حسنات الدهر عدن مساويا

ومنها :

سألت فقالوا مصرع لو علمته فأيقنت لكنى خدعت فؤاديا
ومن يسأل الركبان عن كل غائب فلابد أن يلقى بشيرا وناعيا

وتوطدت صلاته بأشهر كتاب عصره قاطبة ، وهو القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى (٢٤) ، ومعروف أنه كان قد عمل فى الاسكندرية فترة من الزمن ، قبل أن تذيع شهرته ويصبح على رأس ديوان الإنشاء ، ولا ندرى شيئا عن بدء علاقة شاعرنا به ولا عن تاريخ مدائحه فيه ، والذى نرجحه أن المدائح التى بين أيدينا قيلت فى القاضى الفاضل بعد أن انتقل للقاهرة وبعد أن أخذ يحتل المنزلة الرفيعة ، أى منذ عهد العادل بن رزيك ، ومما يدفعنا إلى هذا الترجيح ما نلمسه من سمات النضج الفنى فى المدائح التى الفها ابن قلاقس فيه ، ومن أبرزها القصيدة التى مطلعها :

ما ضر ذاك الريم ألا يريم لو كان يرثى لسليم سليم

وكذلك قصيدته :

نضا عضبـــا من الجفـــن يرد العضب فى الجفـــــن

ومن مدائحه الأخرى فى الفاضل قصيدته التى مطلعها :

طرحنا فوق غاربها الزمامـــا فأسلمنا العرار إلى الخـــزامى

أما أجود قصائده فى الفاضل فهى الثائية التى أولها :

دعته المثانى وادعته المثالث فها هو للندمان والكأس ثالث

وللشاعر مدائح فى عدد من السراة والأمراء ونحوهم ، ومن هؤلاء الأمير

نور الدين إبراهيم بن شادى البلوى ، وفى الديوان أن « بلاده بأعلى الصعيد » وقد مدحه بقصيدته :

حيث التفت فكثبان وقضبان   شجتك يبرين واستهوتك نعمان

ويطيل فيها فى المقطع الغزلى إلى أن يصل إلى ممدوحه فيقول فيه :

ماذا الضلال ونور الدين متقد   يكاد يبصر منه النور عميان
لو اجتدى كفه حسان ما ظفرت   يوما بلفظة شعر منه غسان
ولو حوى البدر جزءا من محاسنه   لم يعترض لكمال البدر نقصان

ومن خيرة شعره فى المديح قصيدته :

لا تثن جيدك إن الروض قد جيدا   ما عطل الروض من نواره جيدا

وفيها يقول فى المقطع المدحى :

سمعت بالجود مفقودا فهل أحد   يقول لى قد وجدت الجود موجودا
الحمد لله لا والله ما نظرت   عيناى بعد أبى المنصور داودا . .
ملك إذا هم ألقى الهم مقتضبا   مهندا فى جبين الشمس مغمودا
والباعث الخيل أرسالا مضمرة   والقائد الجيش أبطالا صناديدا
والطاعن الطعنة النجلاء نافذة   والضارب الضربة القوهاء أخدودا
وإن قطعت هجيرا فى مهاجرتى   فكم تفيأت ظلا منك ممدودا

ونرجح أن يكون أبو المنصور داود من بنى سنبس فقد عرج عليهم الشاعر فمدحهم .

وله كذلك قصيدة مطلعها :

راع لها فى السهب   وارم عراص الهسب

يشير فيها كذلك لبنى سبنس (٢٥) .

ونستطيع أن نتبين من هذه النصوص ومن أخوات لها أن الشاعر كان دائم التسفار فى أنحاء مصر ، عارضا بضاعته على الأمراء والقبائل متكسبا بشعره ، وكأنما كان ذلك كله تمهيدا لفكرة الحت عليه وملكت جماع نفسه ، وهى أن ينتقل فى الأصقاع شرقا وغربا على نحو ماتنقل الشعراء من أمثال أبى نواس وأبى تمام والمتنبى ، ولعل طيف المتنبى هو الذى أضرم فى أحنائه الشغف بالمغامرة والضرب فى متاهات المجهول ، وما كان الشاعر يحس بأنه يخسر فى هذا التجوال شيئا ، إذ لم يكن يملك من الدنيا إلا قصائده يتكسب منها ، وإلا مقاطع اللهو والهوى يصوغها من حين لحين ، تعبيرا عن خوالج نفسه وإلا أبيات الهجاء يصوبها نحو أعدائه ، ولنستمع إلى ابن فضل الله العمرى حيث يقول فى « مسالك الأبصار » عن ابن قلاقس :

« .. كان شمس عصره إلا أن وقته ضحى ، . . أطفأ بشعراء عصره على أنهم نجوم سماء تزهر مصابيحها ، وتهب فى مهاب الصبا ريحها ، فكسدت بسببه بضائعهم ، وفسدت بأدبه صنائعهم ، وجاء بالفن الغريب ، وأتى منه « نصر من الله وفتح قريب » ، ولم تزل تحدى به سفائن آل ، وسفين بحر سما به حباب الماء حالا على حال ، يغربه منى بها غالبت عمره القصير ، وأسفار بلى بها ولا يعرف إلى أين المصير ، وقد كان له فى الدولة الصلاحية مقيل لو اكتفى بظلها ، ووافى بظمائه إلى زلالها ، ولكنه اتخذ التشتيت فى البلاد دابه لا يسأم دوامه ، ولا يضرمه أوامه ، على أن الحرمان ما ملأ له كيسا ، ولا أقر به عيسا ، هذا مع أنه ما حل بأرض إلا وعبقت به رحابها ، وتعلقت بجلابيب إقامته أصحابها ،

وحيي بوسيع القرى وسريع الكرم الحثيث ، إلا أن حرفة الأدب كانت عليه غالبة ، وشقوة الحظ لما لديه سالبة . . »

ولعل فى حديث ابن فضل الله هذا ما يهيىء ذهن القارىء لكى يتابع الشاعر وهو ينطلق عبر البحر الابيض ، متجها إلى جزيرة صقلية .

* * *

مراجع وتعليقات

(١) تضطرب المصادر فى بعض تفصيلات هذا الاسم وما يتصل به ، فهناك من يذكر « أبو الفتح » بدلا من « أبو الفتوح » ، (مسالك الأبصار ، شذرات الذهب مقدمة المختار من الديوان لابن نباته — وان كان ابن حجة فى « ناضج ابن قلاقس » يورد نص مقدمة أبن نباته وفيها : « أبو الفتوح ») والذى نظنه أن الكنية الصحيحة هى مااخترنا ، لأنها هى المذكورة فى النسخ المعتمدة من ديوان للشاعر وفى كتاب ترسله ، وكذا فى كثير من المصادر الموثوق بها مثل الوفيات ومعظم ما ذكرنا من كتب الثقاة ، وبخاصة « بدائع البداته » ، ومن جانب آخر ، فان البليقة التى قيلت فى هجاء شاعرنا أولها : « اسألوا عنى فتوح ابن قلاقس » وفى هذا دليل قاطع ، كما أن الوجيه ابن الذروى هجا الشاعر بقوله « ياسائلى عن أبى الفتوح .. الخ »

وفى معظم المصادر « نصر الله » بدلا من « نصر » (الوفيات ، معجم الادباء ، اوانى بالوفيات ، سير أعلام النبلاء ، شذرات الذهب ..) أما « نصر » فترد فى معظم مخطوطات الديوان الأصيلة — مخطوطى دبلن — وفى الترسل وخريدة القصر وبدائع البداته وكتاب الروضتين ومسالك الأبصار وحلبة الكميت ... ، كما نرى فى الديوان بيتا موجها للحافظ السلفى أوله .. « عبدك نصر وأنت تعرفه » وعلى كل فالخلاف بين التسميتين أهون من الخلاف الذى ذكرنا حول الكنية ، هذا وفى النص الذى نقله د . عبد العزيز الأهوانى عن « توشيع التوشح » للصفدى نقرأ « نصر الدين » — انظر « أبن سناء الملك ومشكلة المقم والابتكار » ص ١٩٢ ، أما نفس النص فى طبعة البير مطلق من « توشيع التوشيح » ففيه « نصر الله » ، وفى حسن المحاضرة « نصير الله » ولعل هذا مجرد خطا مطبعى .

وتنفرد مخطوطة فينا من الديوان بتسميته « نصر الله محمد اللخمى المعروف بابن قلاقس » .

وفى الخريدة « أبن الازهرى » بدلا من الآزهرى ، ولعل ذلك لخطأ فى النسخ ، وأما لقبه فى « نهاية الأرب » فـ « القاضى الاغر » بدلا من الأعز » ونرجح أنه من أخطاء النسخ أو الطباعة .

ويضبط « ابن قلاقس » — بضم القاف الأولى — فى « معجم البلدان » كما يرد « ابن ملامس » فى « شذرات الذهب » وهذا مجرد خطأ مطبعى .

(٢) م . ع . خفاجى ، « قصة الادب فى مصر » ج ٢ ص ٥٧ .

(٣) استندنا فى ذلك للترسل « ومعجم الادباء » و « حسن المحاضرة » « والروضتين » أما « الوفيات » — ط محيى الدين عبد الحميد ففيها: ربيع الأول .

ولننبه إلى أن بعض الدارسين يخلط بين شاعرنا هذا وبين أبى الفتح نصر ابن عبد الرحمن بن إسماعيل الفزارى الاسكندرى(انظر على سبيل المثال كتاب الروضتين ٥٢١/١ ، بتحقيق د. محمد حلمى، ففى النص إشارة لموت ابن قلاقس ، أما المحقق فإنه وضع تعليقا بالهامش لاينطبق على شاعرنا ولكنه ينطبق على أبى الفتح نصر الاسكندرى الفزارى) .

والفزارى هذا كان فقيها رحالة ، قابله العماد الاصفهانى فى بغداد ،وقال عنه : « رأيته شابا متوقدا بالذكاء والفطنة ، عارفا بالادب » ونقل عنه فى مواضع كثيرة . وترجم له السيوطى فى بغية الوعاة » — ص ٤٠٣ ، وقال عنه : « كان شابا فاضلا زكيا له معرفة تامة بالادب ، صنف كتابا فى أسماء البلدان والامكنه والجبال والمياه ، كبيرا فى معناه » ، وقد اعتمد ياقوت على هذا الكتاب فى أكثر من

موضع (انظر « معجم البلدان » ، مواد : بلبيس ثبير ، فراص ، الخ .) .

وكان الفزارى قد ارتحل إلى بغداد ، وجالس بها العلماء ، وحدث عن الحافظ بن عساكر وعن غيره ، ثم اتجه فى أخريات أيامه إلى أصفهان ، ومات بها نحو سنة ٥٦٠ هـ .

وانظر عنه ، غير ما ذكرنا ، الوافى بالوفيات ، ج ٢٧ صفحة ٣٠ ، وكشف الظنون ٥٧ ، ٥٨٥ .

(٤) هو الخليع الأصغر ، محمد بن أحمد الرقى ، شاعر من ديار مضر ، من ولد عبيد الله بن قيس الرقيات ، وله ترجمة فى « معجم الشعراء » للمرزبانى ص ٤١٠ ، ويتيمة الدهر « ٣٧١/١ » ، والوافى بالوفيات ٣٩/٣ ، و « المحمدون » للقفطى (ط . معامرى) ، ص ١٩ ، الخ . . .

والبيت الأول فى « الوافى » و « معجم الشعراء » :

أنا شاكر أنا ذاكر أنا ناشر ... أنا جائع أنا راجل أنا عارى

وفى « المحمدون » « أنا حامد » بدلا من « أنا ناشر » .

وفى المستطرف ١٤٧/١ حكاية طويلة عن « حذيفة المرعشى رضى الله عنه ، وكان قد خدم إبراهيم الخواص رضى الله عنه وصحبه مدة ، فقيل له ما أعجب ما رأيت منه ؟ فقال : بقينا فى طريق مكة أياما لم نأكل طعاما ، فدخلنا الكوفة فآوينا إلى مسجد خرب فنظر إلى إبراهيم وقال : ياحذيفة : على بدواة وقرطاس ، فأحضرتها إليه فكتب رقعة لكى أسلمها إلى أول من ألتقى به فى الطريق ، وقال :

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر ... أنا جائع أنا ضائع أنا عارى »

إلى آخر القصة . . .

(٥) من الأشعار الأخرى الواردة فى الديوان أبيات أولها :

الحمد لله ليس لى نشب   لا ورق حزته ولا ذهب

غير أن نفس الابيات مذكورة فى ديوان أبى نواس (ط. غزالى) ص ٤٣٧ وينص الشارح على أن الصولى عدها من المنحول على أبى نواس .

(٦) نشير هنا إلى أبياته التى أولها :

الفكر فى الرزق كيف يأتى   شىء به تتعب القلوب

ومنها :

فان ألمت بك الرزايا   او قرعت بابك الخطوب

فجانب الناس وادع من لا   تكشف إلا به الخطوب

وختمها ببيت عبيد بن الأبرص :

(من يسأل الناس يحرموه   وسائل الله لا يخيب)

(٧) أبو طاهر أحمد بن محمد بن محمد بن إبراهيم بن سلفة (بكسر السين) ، الاصفهانى . . مولده فى جروان ، من قرى أصفهان وينسب إلى جده سلفة (ولا علاقة لهذا النسب بقبيلة سلفة اليمنيه . التى يذكرها ياقوت فى « معجم البلدان » ٣٢٨/٣) ولا يعرف بالضبط تاريخ مولده ، إلا أن الارجح أنه ولد نحو سنة ٤٧٥ ، استنادا إلى ما ذكر من أنه قال : وأذكر مقتل نظام الملك فى سنة ٤٨٥ ، وكان لى من العمر حدود عشر سنوات » .

وبدأ أبو طاهر فى طلب العلم صغيرا ، وظهر نبوغه فى علم الحديث منذ حداثته حتى ان الناس كانوا يكتبون عنه وعمره سبع عشرة سنة ، ثم أخذ يتنقل فى مختلف الامصار طلبا للعلم ، فدرس فى بغداد ، وتلقى فيها علوم اللغة على يد الخطيب التبريزى

وغيره كما تتلمذ فيها على أبي الحسن الهراس ، وروى عن ابن السراج ، ثم ترك بغداد وسمع بالكوفة وبالمدينة ، وطوف فى مدن الجبال والدينور وقزوين ونهاوند وأذربيجان ونصيبين حتى وصل إلى آمد ، ثم تركها ورحل إلى دمشق ، سنة ٥٠٩ ، وبقى فيها نحو عامين ، وغادرها بعد ذلك إلى صور ، ولم يمكث فيها طويلا إذ أنه لا يلبث أن يستقل البحر ميمما صوب الاسكندرية حيث سيلبث فيها إلى وفاته ، سنة ٥٧٦ هـ .

وللسلفى مؤلفات عديدة من بينها : « السداسيات » فى الحديث ، و « معجم الشيوخ » وذكر فيها أكثر من ٦٠٠ شيخ من شيوخه ، « والمشيخة البغدادية » و « معجم السفر » ويعد من أهم مؤلفاته وذكر فيه نحو ألفى عالم التقى بهم أو تراسل وإياهم ، و « السلفيات فى الحديث » و ، « شرح القراءات » فى الحديث ، و « الأربعين البلدانية » ، وجمع فيه أربعين حديثا سمعها عن أربعين شيخا ، فى أربعين مدينة ، له مختارات عديدة فى الحديث .

انظر عنه « وفيات الاعيان » سيرة رقم ٤٣ ، « طبقات الشافعية الكبرى ٤/٤٣ « شذرات الذهب » ٤/٢٥٥ ، « البداية والنهاية » ١٢/٣١٧ الروضتين ١/٦٦٩ « النجوم الزاهرة ٦/٨٧ ، « الكامل » لابن الأثير ١١/٢١٢ ، « مفرج الكروب » ، ٢/٥٦ ، « أزهار الرياض » ٣/١٦٧ « الأنساب » للسمعانى (مادة سلفة) « مرآة الزمان » ١/٢٦١ «طبقات فقهاء اليمن » ٢٢١ ، « حسن المحاضرة » ٢/٢٢٩ « كشف الظنون » ١/٥٤ ، ١/٢٩٣ ، ٢/٥٨٧ ، ٣/١٨٦ .

ولمحمد محمود زيتون كتاب مستقل عنه ، صدر بالاسكندرية ، وكتاب آخر للدكتور حسن عبدالحميد صالح (بيروت) وكتب عنه د. الشيال فى أعلام الاسكندرية ، وأحمد بدوى فى « الحياة العقلية » وإحسان عباس فى مقدمة « أخبار وتراجم .

أندلسية » وهو فصلة من « معجم السفر » .

(٨) يشير ابن قلاقس فى بعض شعره إلى أن ابن خليف هذا ينتمى إلى أصل عربى صميم . فمن ذلك « ترفعت بنى سعد ذرى شرف » و « مفاخر قد خصصتم باجذام بها » .

(٩) لقد استنتجنا ذلك مما وجدنا من دلائل أشرنا لبعضها ، ولم تتعرض المصادر والمراجع جميعا لهذه القضية .

ولعل اشتغاله بنسخ دواين الشعراء كان من أبرز العوامل التى نمت ملكته وقوت محفوظه ، وجعلته — فى الوقت ذاته — قادرا على تتبع انتحالات سراق الشعر ، فى ذلك ما كتبه على أبيات لرجل ينتحل الأشعار يتكسب بها :

يا أميرَ الذكاء يا ابن خليف أظهر الشعر فى يديك اللصوصا

ومن ذلك ما كتبه « على أبيات لرجل منتحل يعرف بابن سليم » وما « كتب بها على أبيات رجل منتحل يعرف بابى جعران السقطى » وما « كتب بها على أبيات رجل منتحل يعرف بعواض » الخ . .

(١٠) اعتبرت معظم المراجع الحديثة أن « الازهرى » نسبة للأزهر الشريف ، ولا نجد أقل إشارة عن ذلك فى المصادر القديمة التى ذكرناها ، وفى كتب الانساب ذكر لاكثر من « أزهرى » لا علاقة له بالأزهر الشريف . انظر اللباب لابن الأثير ج ١ ص ٤٨ .

(١١) يقول القلقشندى فى صبحه (٥/٤٥١) إن لقب القاضى لم يكن وقفا على القضاة بل كان يطلق كذلك على « أرباب الاقلام فى الجملة سواء كان صاحب اللقب متصديا لهذه الوظيفة أو غيرها »

(١٢) لعل ما فى الديوان حول هذه المدرسة قد أصابه التعديل لأمر من الأمور ، ويكون أصل البيت الأول :

يد العادل المنصور . . . الخ .

وعلى ذلك تكون الأبيات قد قيلت قبل سنة ٥٤٨ هـ ، لأن الملك العادل قتل فى تلك السنة . لكن المشكلة أن سن الشاعر تكون حينذاك ستة عشر عاما أو أقل (لأنه ولد سنة ٥٣٢ هـ ،) والأبيات تشى ببراعة فنية تعلوا على مستوى من كان فى مثل هذه السن .

(١٣) كان محمد بن تومرت ، رأس الموحدين ، قد اختار قبل موته عبد المؤمن بن على لكى يكون خليفته ، وجعله على رأس جيوشه .

وبعد موت ابن تومرت سنة ٥٢٤ قاد عبد المؤمن جيوش الدولة الموحدية بحنكة وبأس حتى استطاع أن يستولى على المغرب كله ويقضى على دولة المرابطين، ولم يكتف بذلك بل اتجه إلى الأندلس واستولى على كثير من أنحائها وقضى على كل نفوذ النورمان فى تونس والمهدية وسفاقس وقابس . وفى سنة ٥٥٨ خرج بقصد الفتح حتى وصل إلى مدينة سلا ، وظل ينتظر هناك حتى تكتمل عساكره ، غير أن العلة داهمته هناك فمات فى جمادى الآخرة من تلك السنة ، وتولى ابنه أبو يعقوب يوسف ملك دولة الموحدين من بعده .

أنظر عنه « وفيات الأعيان » ٢ / ٤٠٢ ، « النجوم الزاهرة » ٥ / ٢٦٣ ، والروضتين ١ / ٤٠٢ « الجامع المختصر » لابن الساعى ٨/٩ .

(١٥) كان أبوه يشغل منصب « صاحب الباب » أيام الخليفة الحافظ، وناب عنه مدة ثلاثة اشهر فى خلال مرض الخليفة ، وعرضت عليه الوزارة فأباها ، ثم عين واليا على الصعيد الأعلى بقوص ، ولما كوتب الصالح بن رزيك لكى يخاص

القاهرة من شر وزيرها عياس لم يقدم الصالح على الخروج من قبل أن يستشير ناصر الدولة أما ابنه رثاب فلا توجد عنه معلومات تذكر ، والنص الذى يسوقه ابن قلاقس يجزم بأنه أصبح من أعوان شاور .

وانظر « النجوم الزاهرة » ٥/٣١١ .

(١٦) ترد هذه المرثية فى كل من مخطوطة باريس ومخطوطة دبلن (رقم ٣٨٠٠) على انها فى رثاء ضرغام بن سوار ، أما « ترسل ابن قلاقس » ففيه أن هذه القصيدة وكذلك قصيدته :

شق الكمال عليه ثوب سواده   وافاض طرف المجد ماء فؤاده

قيلتا فى رثاء (الملك المنصور) ، بينما يذكر الديوان ان قصيدة « شق الكمال » قيلت فى رثاء « ابن رجا الصقلى » .

والمشكلة أن لقب « الملك المنصور » مشترك بين ضرغام وبين أسد الدين شيركوه ، والذى نرجحه أن الشاعر قال القصيدتين فى رثاء ضرغام غير أنه كتم أمرهما خوفا من بطش شاور ، ثم أذاعها بعد ذلك ، على أساس أنه يرثى بالأولى الملك المنصور شيركوه وبالثانية ابن رجا ، وكان قاضيا على صقلية ، وتوفى سنة ٥٦٢ هـ .

(١٧) يشير لشاعر فى بعض قصائده إلى نحوله أو لأنه بلا لحية ، فمن ذلك :

ومن العجائب أن خدى مجدب   وعليه من سيل الدموع رذاذ

أو قوله :

لى كالنخلة السموق حديث   غير أنى — كما علمت — النواتا

ولو أنى قذفت يوما حصاة   بيدى فطنتى أصبت الحصاتا

وكذلك قوله يصف نفسه :

إن كان كالنبع عريانا بلا ثمر   فمثله هو طــــلاع على القنن

ويقول فى موضع آخر :

لا تغــرنك اللحى من أناس   درجوا كالحـــير تحت الخالى

ولـــئن خف عارضاى فإنى   لا أبالى بكل وافى السبال !

وبعض المصادر التى ذكرناها تقول انه هجى كثيرا بسبب جرده هذا ، غير أننا لم نجد شيئا من هذا الهجاء .

ومما يتصل بصورته البدنية كثرة الأخبار والنصوص التى تشير إلى مرضه فمن ذلك ما يرويه ابن ظافر فى « بدائع البدائه » : « أخبرنى الفقيه أبو الحسن على ابن الطوش المعروف بابن السيورى » قال: دخلت على الأديب الأعز أبى الفتوح ابن قلاقس وهو مريض فقال : قد صنعت بيتين بديها فى الحمى ووصفتها بأحسن من صفة أبى الطيب فاستنشدته إياهما فأنشدهما :

وبغيضة تدنو وما دعيت   فتبيت بين الجلد والسكن

يصبو الفؤاد لبينها فاذا   ولت بكاها سائر البدن

هذه رواية ابن ظافر ، اما الصفدى فى الوافى فيذكر بدلا من العجزين فى البيتين :   « فتبيت بين الخلب الكبد »

و « ولت بكاها سائر الجسد »

وابن قلاقس يشير إلى بيتى المتنبى :

وزائرتى كأن بها حياء   فليس تزور إلا فى الظلام

بذلت لها المطارف والحشايا   فعافتها وباتت فى عظامى

من قصيدته « ملومكما يجل عن الملام »

ومما قاله المرض ورواه عنه الأمير نجم الدين بن مصال والى الاسكندرية

نكست فى الأمراض بعـــــد إفاقتى نكس الهــــلال
والرأس مثل الكـــأس لو لا عـــلة نالتــــه خالى

وله فى الديوان قصيدة يعاتب فيها صديقا لأنه أبطأ عن زيارته عند مرضه وبعض مقطعات فى مدح طبيب يدعى عبد العزيز بن فارس الطبيب ، ويشير فى كتاب ترسله إلى حالات مرضه وضعفه .

(١٨) أبو المنجم (نشو الملك على بن المفرج) — وبعض المصادر تلقبه بـ « نشو الدولة » قال عنه العماد : « سمعت القاضى أبا القاسم حمزة بن عثمان ، سنة إحدى وسبعين (وخمسمائة) بدمشق ، وقد أوفد اليها (ابن المنجم) فى مهمة ، يقول : « حضر شاب مبرز فى الشعر مجيد . . وإنما أفسد حاله أنه ضمن الصابون والملاهى ، وارتكب العسف والمناهى فاستغاثوا منه،واستعدوا عليه . . فعذب بالنفى إلى عيذاب ، ثم وصل إلى الشام ، فى خدمة الملك المعظم توران شاه بن أيوب من اليمن ، فلقيته . . . » .

وقال السيوطى « كان أشعر أهل زمانه وأفضل أقرانه ، مدح الملوك والوزراء وفيه فضائل » وأما ابن أصيبعة فيقول إنه « كان شاعرا مشهورا خبيث اللسان » ويذكر ابن تغرى بردى أنه مغربى الاصل ، مصرى المولد والوفاة ، ويورد أن صلاح الدين الايوبى كان معجبا بشعره .

انظر عنه « الخريدة » ١/١٦٨ (القسم المصرى) « حسن المحاضرة » ١/٣٢٦ « مسالك الأبصار » مجلد ١٢ قسم ، لوحة ١١٧ ، « أعيان العصر ٢/١١٣ ، « النجوم الزاهرة » ٦/٥٦ (وفيات الاعيان) — ضمن ترجمة أسامة بن منقذ .

(١٩) النص فى ديوانه (نسخة باريس) وفى مختارات ابن نباتة ، ويذكره الصفدى فى « التنبيه إلى التشبيه » ورقه ١٧ ط ، وفى « الوافى بالوفيات » ورقة ٢٣٧ و ، وفى خطط « المقريزى ١٠٢ وفى بدائع البدائه ٢٤٤/١ مع تفصيلات .

(٢٠) وجيه الدين ، أبو الحسن على بن يحيى بن أحمد الملقب بابن الذروى شاعر مصرى ينسب إلى ذروة ، من بلاد اليمن ، ويروى ابن خلكان أن ذاليته :

لك الخير عرج بى على ربعهم فذى ربوع يفوح المسك من عرفها الشذى

« سارت مسار الأمثال » وأما أبو شامة فيقول : « وما أظن أنه نظم على قافية الذال أرق منها منها لفظا وأدق » .

وابن الذروى هو صاحب البيت المشهور :

أقام يعمل أياما قريحته وفسر الماء بعد الجهد بالماء

ويقول السيوطى إنه « من مشاهير الشعراء بمصر ، كان فاضلا نبيلا ، ذا معرفة تامة ، له نظم فائق وشعر رائق » .

وتدل ترجمته فى « الخريدة » و « بدائع البدائه » وغيرها على أنه كان من أصحاب ابن قلاقس وابن المنجم وابن وزير وابن مماتى . وكانت لهم مجالس لهو ومنادمات كثيرة . وللذروى مدائح فى العاضد وصلاح الدين والقاضى الفاضل وغير هؤلاء .

وتوفى ابن الذروى سنة ٥٧٧ ، وهو فى نحو الأربعين .

انظر عنه الخريدة ٥٥/١ ، « حسن المحاضرة » ٣٢٦/١ ، « بدائع البدائه » — مواضع متفرقة — ، « مسالك الأبصار » مجلد ١٢ القسم الأول لوحة ١٠٦ ، « وفيات الأعيان » خلال سيرة سيف الدولة بن منقذ — سيرة ٥٢٥ « النجوم الزاهرة » ٥٦/٦ ، « أعيان العصر » ٢١٩/٢ .

(٢١) لم نعثر على شيء عنه فى كل مامر من مصادر .

(٢٢) ذكر ياقوت أنه « من أهل آبه ، من ناحية برقة ، وسافر إلى اليمن تاجرا ، واجتمع بأبى بكر العيدى (فى الاصل : السعيدى) بعدن ، وحدثنى المولى المفضل بقصته مع العيدى عنه وقال انه سمعها منه ، ثم قدم الاسكندرية، وقام بها ، فجرى بينه وبين القاضى شرف الدين عبد الرحمن ، ابن قاضى الاسكندرية ، ما أحوجه إلى قدومه إلى القاهرة ، وشكا منه إلى الصاحب صفى الدين ابن شكر يشكه (أى لم يزل شكواه) فأقام بالقاهرة إلى أن مات . وكان شكواه من قطع رزقه من مسجد كان يصلى فيه أو نحو ذلك . وكان قدومه إلى القاهرة سنة ست وستين وخمسمائة ، ومات بعد ذلك فى نحو سنة ثمان وتسعين ، وصنف كتابا فى النحو رأيته بخطه ، وهى مسائل منثورة » .

وقد أوردنا معظم ما ذكره عنه ياقوت فى « معجم الأدباء » ٥/٥٥ (ط . الرفاعى) لأنه المصدر الرئيسى عنه ، وأما ما أورده السيوطى فى « بغية الوعاة » ص ١٦٩ فلا يعدو أن يكون تلخيصا لما فى « معجم الأدباء » .

وفى بقية ما ذكره ياقوت شيء من شعره الآبى ، وهو شعر متوسط المستوى، وذكر أيضا أنه كان يتردد على مجالس أبى الحجاج يوسف بن خلال، كاتب الإنشاء .

وفى ترسل ابن قلاقس مواضع كثيرة يرد فيها اسم أحمد الآبى هذا .

(٢٣) من خيرة قصائد الشاعر فى القاضى الجليس مدحته :

عفا طربى إلى عانى الهشيم　　　فلا روى الغمام ربى الغميم

ومنها ، وقد فرغ من وصف الرحلة ، يذكر أن ناقته :

إلى الشيخ الجليس استنهضتها　　　أزمة نجدة وحـــداة خيم

فقـال لهـا لسان الدهر هـذا　　　تمـام الفضـل أودع فى تميم

عجبت لوجهـــة ولراحتيه ‏ ‏ ‏ ‏ سنا شمس تبـدت فى غيـوم

ولابن قلاقس مدائح فى شخص آخر من أسرة ابن الحباب ، هو جمال الملك أبو القاسم عبد الرحمن بن الحباب ، وكان قاضيا بالاسكندرية .

(٢٤) وفى الديوان (مخطوطة باريس) قصيدة يتصدرها : «وقال يمدح الحافظ السلفى ويذكر شاورا ويعرض بالقاضى الفاضل» ، ومطلعها :

تعود الطرد بها والطراد ‏ ‏ ‏ ‏ أى جواد فوق متن الجواد

ومعظم هذه القصيدة فى مدح الفاضل

(٢٥) كانت جماعات كثيرة من بنى سنبس تقطن على مقربة من هرم سقارة، وطوائف بدمياط وسخا والصعيد .

وانظر القلقشندى فى «نهاية الأرب» ، ص ٢٤٥ ، و «اللباب» ١/٥٦٨ ، و «تاريخ مصرى» لابن ميسر ، حوادث سنة ٤٦١ هـ ، ٢/١٩ ، والخريدة ٢/١١٣ (القسم المصرى) .

الفصل الثالث

الرحـــلة الصقليـــة

رأينا فيما مر بنا عن شاعرنا كيف أنه كان واسع الطموح متقلب الأهواء ، نزاعا إلى الرحلة والمغامرة ، ساخطا على الأقدار لأنها تمنع عنه ما يرى أنه أهل له ، وعرفنا شيئا عن مدائحه فى رجالات الاسكندرية والقاهرة وصعيد مصر ، ولم يكن ذلك كله الا تمهيدا لرحلات أخرى أبعد مدى وأوسع طموحا .

وليس غريبا أن يفكر هو أو يفكر غيره من رجال الادب فى الهجرة والابتعاد عن مصر ، لأن المناخ السياسى كان مدلهما غائما ينبىء بالقلاقل والمحن ، وفى مثل هذا الجو المضطرب تنصرف الأذهان عن الشعر وأهله ، وقد صور ذلك العماد الاصفهانى أصدق تصوير حين بين كيف أنه — بعد مقتل طلائع بن رزيك — « انكشف شمس الفضائل الزاهرة ، ورخص سعر الشعر ، وانخفض علم العلم ، وضاق فضاء الفضل ، واتسع جاد الجهل ، وانحل نظام أهل النظم ، وانتشر عقد ذوى النثر ، واستشعر الطاقة الشعراء ، وعدم البلغة البلغاء ، وعد الفضل فضولا ، والعقل عقولا . . وطفق فضلاء الحضرة يغيبون لحضور الناقصين فلم تزل مصر بعده منحوسة الحظ منسوخة الجد » (١) .

وقد اختار الشاعر أن يتجه بآماله الكبار ، إلى صقلية (٢) ، ومن البديهى أن نتساءل نحن الآن : ولم فكر فى الذهاب لصقلية على وجه التحديد ؟

وربما أمكن التوصل إلى جواب ، ولو نسبى ، إذا ما نظرنا لبيئة الإسكندرية بنحو عام ، وإلى مجلس الحافظ السلفى بنحو خاص ، فقد كانت الإسكندرية مركزا من أهم مراكز التجارة فى البحر الأبيض ، كما كانت محط رحال الوافدين من

الاندلس والمغرب وصقلية أو العائدين إلى هذه الاصقاع ، وكانت جموع العلماء وطلاب العلم تتدفق على مجالس السلفى ، حتى إذا ماعاد هؤلاء لديارهم كاتبوه وكاتبه غيرهم من علمائهم وأهل الفضل والرياسة فيهم .

وليس ببعيد أن يكون ابن قلاقس قد التقى بعدد من أبناء صقليه ممن قدموا للمشرق بقصد الحج أو التجارة أو طلب العلم، وزين له نفر منهم أن يؤم بلادهم ، وتجاوبت كلماتهم مع خوالج نفسه ، لاسيما وهو ابن الثغر العتيد ، وقد درج منذ طفولته على أن يمد بصره عبر أمواه البحر ، وعلى أن يرى السفن تجيء وتمضى فتذكى فى خياله الشوق للمغامرة والجاه والثراء .

كان سلطان المسلمين قد زال آنذاك من صقلية ، إذ كان النورمان قد استولوا عليها سنة ٤٤٤ هـ غير أن المسلمين ظلوا حتى ذلك العهد (سنة ٥٦٣) يشكلون الأغلبية السكانية فى الجزيرة ، وكان عدد منهم يتولى أعلى المناصب فى الحكومة النورمانية (٣) ، وكانوا فى معظم الأحوال وخاصة فى المدن ، يحظون بمعاملة عادلة وها هو ابن الاثير يقول عن روجار الأول — أول ملوك صقلية من النورمان : — « ولما صار أمرها إليه، واستقر به سرير ملكه . نشر سيرة العدل فى أهلها ، وأقرهم على أديانهم وشرائعهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وذراريهم » (٤) .

وفى عهد غليالم الثانى (وليم الثانى) — ممدوح ابن قلاقس — زار ابن جبير صقلية ، وكتب يقول إن الجزيرة معمورة بعبدة الصلبان . . والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم ، قد أحسنوا السيرة فى استعمالهم واصطناعهم » (٥) وكان غليالم هذا يعرف بالطيب ، وقد تولى الملك سنة ١١٦٦ م ولم يكن قد بلغ سن الرشد بعد ، ومن ثم تولت امه الوصايا عليه ، واتخذت لها مستشارا يدعى اسطفانو .

ومما يلفت النظر ان هذا الملك النورماندى قد نشا محبا للعربية وكان يحسنها قراءة وكتابة ، وجعل علامته: « الحمد لله حق حمده » على نحو ماذكر ابن جبير ، ويذكرون انه نقش على قصره :

تأمل وقف تر خير ايوان لخير ملوك الأرض غليالم الثانى

وفى عهده كان يتزعم المسلمين أبو القاسم بن الحجر ، ويورد إحسان عباس نقلا عن هوجو فلقندو ، أن مسلمى الجزيرة كانوا منحرفين عن غليالم بتأثير من ابن القاسم ، الذى حز فى نفسه أن يرى المستشار اسطفانو ينحاز إلى جانب منافسه ابن السديد (٦) .

وكان كل من هذين الزعيمين على صلة بالحافظ السافى ، ونحن نرى فى ديوان ابن قلاقس قصيدة مطلعها :

عرضت لمعترض الصباح الأبلج حوراء فى طرف الظلام الأدعج

وتتصدرها فى الديوان (مخطوطة باريس) العبارة التالية « وقال يمدح الفقيه السديد أبو المكارم هبة الله الحصرى ، وكتب بها إليه من الاسكندرية يهنئوه بالعيد سنة خمس وخمسين وخمس مائه ، وأما فى مخطوطة دبلن (٧) فنجد نفس القصيدة تسبقها جملة تقول : « . . . كتبت إليه قديما من الاسكندرية ، قبل اجتماعى به بصقلية ، وكان قد مدح قبل ذلك الشيخ الفقية الحافظ . . . »

وفى تلك القصيدة يصور الشاعر بؤسه وسهده وأمانيه :

لا تنكرن على عادية الأسى فالحب كأس خمرها لم يمزج
أو رحت فى سمل الثياب فإننى كالعضب يفرى وهورث المنسج
ولقد صحبت الليل قلص برده لعباب بحر صباحه المتموج
وسهرت ارقب من سهيل خافقا متفرداً فكأنه قلب الشجى

واستعبرت مقل الغرام فأضحكت   منها ثغور مفوف ومـــــدبج
وفضضت عن مدح السديد ختامها   فغنيت عن زهر الربى المتأرج
ودعوت ياهبة الإله فقال لى   لفظ النجاح الهج بـذلك تنهـج
هو كعبة الأفضال إلى أنهـــا   بعدت ومن لم يستطيع ولم يحجج

وللشاعر قصيدة بعث بها سنة إحدى وستين وخمسمائة إلى أبى القاسم بن الحجر ، اولها :

أرقصها مطرب الاغاريد   فاسترقت هزة الاماليـد
ودب خمر السرى بأذرعها   فهى على البيد فى عرابيد

ولم تصل إلينا هذه المدحة كاملة ولكن العماد الاصفهانى يورد منها فى الخريدة ثلاثة وثلاثين بيتا ، ومن أبياتها فى مدح ابن الحجر :

قد أقسم الحمد لا يسير إلى   غير أبى القاسم بن حمود
فى يـــده للنوال معركة   أرى بها البخل صارم الجيد

ومنها ، وفيه دلالة على أن ابن الحجر كان له باع فى شؤون التحرير وأعمال الدواوين :

وتلتقى كتبه الكتائب فى   جيش من الخط صائد الصيد
بكل لفظ كأنه نفس   غير ممل بطول ترديـــد

ها ان قصيدتان مدح بهما الشاعر بعض رجالات صقلية قبل أن يصل إليها ، ولا نعرف شيئا عن الظروف التى دعته لمدح السديد وابن حجر ولعله سمع وهو فى مجالس السلفى عن مكانتهما وثرائهما ، كذلك لا نعرف إلا النزر اليسير عن السديد الذى مدحه الشاعر من قبل أن يراه ، ولا نعلم إن كان هو نفسه منافس ابن الحجر على زعامة مسلمى صقلية أم لا .

ولنصل الآن إليه والسفينة تمضى به تمخر العباب، والآمال تجيش فى صدره، والأمواج تهدأ طورا وتثور أطوارا ، ولدينا فى وصف حالته تلك قصيدة من غرر أشعاره ، كتبها فى أثناء الرحلة (٨) ، وارسلها إلى أستاذه الساقى من صقلية ، وقدم لها بقوله ·

« إنى لما تسنمت الأمواج فى ذات الألواح ، وتقسمت من ذات الأرواح ، قلت بالسلامة إما ميلاد ومعاد، أو يوم معاد، وعجبت من حالى، فى حلى وترحالى، فتشوقت الوطن والوطر ، وكلفت الخاطر وصف ذلك فقال » :

وأول القصيدة :

لو لم يحرم على الأيام إنجادى ... ما وصلت بين إتهامى وإنجادى
طورا أسير مع الحيتان فى لجج ... وتارة فى الفيافى بين آماد
إما بطائرة فى ذا وطارمة ... أو فى قتاد على هذا واقتـاد
وما أسير إلى روم ولا عرب ... لكن لريح وإبراق وإرعاد
أقلعت والبحر قد لانت شكائمه ... جدا ، وأقلع عن موج وازدباد
فعاد لا عاد ــ ذا ريح مدمرة ... كأنها أخت ذلك الريح فى عاد

ثم يمضى مصورا العاصفة والامواج التى ترتفع حتى تطاول السماء وحاله وهو قابع فى جوف السفينة كأنه موسد فى لحد ، ورفاق السفر من حوله ركع سجود وما كانوا أهل ورع وتقى ، ولكنه الهلع والتأهب لملاقاة الموت ، وفى هذا الخضم الصاخب ترفرف على الشاعر أطياف الاسكندرية فيحن إلى معالمها التى توارت عن عينيه ، وينشد :

متى تنور آفاق المنارة لى ... بكوكب فى ظلام الليل وقاد
وألحظ الشرفات البيض مشرقة ... كالبيض مشرقة فى هام انجاد

وأستمد من الباب القديم هوى ... عن الكنيسة فيه جل إسنادى
بحيث أنشد آثار وأنشدها ... فيبلغ القدر نشدانى وإنشادى
القصر فالنخل فالجماء بينهما(٩) ... فالأثل فالقضبان الخضر فالوادى
متى تقرر ديار الظاعنين بهم ... والبين يطلبهم بالماء والمزاد ؟

ويكون الوصول فى النهاية إلى ميناء مسيني بصقلية ، فهل سار منها مباشرة إلى العاصمة بالرم (١٠) ؟ لسنا نملك تفصيلات عما كان من أمره عقيب وصوله ، لكن الثابت أنه نظم مدحة فى غليالم الثانى (١١) . وقد ذكر ابن ميسر أن «رجار كان يحب مديح الشعراء ويجيزهم . فذهب إليه جماعة من الشعراء ومدحوه ، منهم ابن قلاقس ، وأمر أن يصنف له تاريخ فصنف له تاريخ كبير » وهذا وهم من ابن ميسر فشاعرنا لم يصل إلى صقلية إلا سنة ٥٦٣ ﻫ ، أى بعد موت رجار بأمد طويل ، ولم يمدح من ملوكها إلا غليالم الثانى ، وقد عثرنا له على قصيدة يقول فيها :

يقر لغليلم المليك ابن غليلم ... سليمان فى ملك داود فى حكم
وتخدمه الأفلاك بالسعد فى العدا ... فتسطو بسيف البرق أو حربة النجم
وما الملك إلا للذى قالت العدا ... هو الغيث إذ يهمى هو الليث إذ يحمى
ففاز بنور الرب يدعو إلى الهدى ... ويحيى لنا الموتى ويبرى من السقم
وزاد على الفضل المسيحى بالذى ... يعلمه حد الحسام من الحسم

ويكشف فى ختام القصيدة عن تشوفه للعطاء الجزيل :

مدحتك إيقانـــا بأنك ملبسى ... من الفخر ما أنجوبه من يد الذم
وأصبح صرف الدهر فى طوع خادمى ... وقد كان يبدى لى مخالفة الخصم

وهذه القصيدة تعد من الأعمال القليلة التى نرى فيها شاعرا مسلما يمدح ملكا

مسيحيا (١٢) وإن كانت صقلية قد شهدت من قبل عددا من الشعراء الذين مدحوا الملوك النورمان، ومن هؤلاء ابن بشرون صاحب المختار من النظم والنثر فى أفاضل أهل العصر ، وقد مدح روجار الثانى ، ومنهم شاعر يدعى المالطى وصفه ابن بشرون بأنه « استنزف جهده فى مدح روجار » ويقول العماد فى القسم الصقلى من « الخريدة » وهو يتحدث عن قصيدتين قيلتا فى مدح روجار : « واقتصرت من القصيدتين على ما أوردته ، لأنهما فى مدح الكفار فما اثبته » ، واستعمل ابن قلاقس فى قصيدته هذه طائفة من التعبيرات المستغربة (١٣) من شيخ فقيه وأوقعه الطمع فى مزالق كان حريا به أن يترفع عنها .

ولا نعرف بم كوفىء الشاعر على مدحه ، والصفدى يسجل أن الملك نفح ابن قلاقس مركبا مملوءا جبنا حين اعتزم العودة إلى دياره ، فهل كانت هذه المركب هى كل ما ناله من غليالم الثانى ؟

وفى البلاط الملكى يلتقى الشاعر بعدد من كبار رجال الدولة ، من بينهم واحد يلقبه بـ « جردن » وزير صاحب صقلية ، وإن كان جردن هذا يبقى غير معروف للمؤرخين إذ أن « التاريخ لا يسمى إلا اسطفان المستشار عند والدة غليالم، الذى كان بمرتبة الوزير ، ولكن إذا صدقنا ابن جبير الذى يتحدث عن وزراء غليالم بصيغة الجمع ، لم نستبعد أن يكون هناك وزراء كثيرون لغليالم ، ولا يبعد أن يكون جردانو واحدا منهم ، بل ربما كان الأرجح أن جردانو وكثيرون غيره كانوا أعضاء المجلس Curia فى بلاط الملك ، وإذن فيكون جردانو أحد أولئك الأعوان الشيوخ » (١٤) .

والشاعر يتحدث كذلك عن شخص يسميه القائد غارات بن جوسن ، خاصة المملكة الغليالمية ، ويلقبه بـ « الحضرة السامية الأجلية العلية القائدية الشجاعية »

ويذكر فى رسالة له أنه «فارق جنابها الكريم ممتلىء اليد نعمة والفم نضمة، والخاطر آمالا ، والناظر أموالا ، اصطناعا منها ، وتفضلا أبى الله الا أن يصدر عنها » .
ولا نستبعد أن يكون غارات هو «جردن» ، نفسه (أو Giordano) وفقا لنطق بعض مسلمى الجزيرة ، ومما قاله شاعرنا فى مدح جردن هذا :

جرت خيل النسيم على الغدير ... وردت تحت قسطلة العبير
وعب الصبح فى كأس الثريا ... وكان براحة القمر المنير
وقام على جبين الشمس يهفو ... كما يهفو اللواء على أمير
فردنا المدائح فاستقرت ... على أعطاف جردنا الوزير
وأعجب ما جرى أنا آمنا ... ونحن بجانب الليث الهصور

ولكن صلات الشاعر الوطيدة لا تتجلى إلا بمسلمى الجزيرة من أمثال أبى القاسم بن الحجر وهبة الله بن الحصرى وابن فاتح الفقيه ، قاضى صقلية ، والشاعر ابن خلف الأموى .

ومن مدائحه فى القاضى السديد هبة الله بن الحصرى قصيدته :

أروه الجلنار من الخدود ... وأخفوا عنه رمان النهود

وفيها يبدأ بالغزل ثم يثنى بالحديث عن مصر وخصبها ونعيمها إلى أن يتساءل :

موارد بى لها عطش شديد ... ولكن لا سبيل إلى الورود
هل الرأى السديد البعد عنها؟ ... نعم ، إن كان للشيخ السديد
معى خلع الثناء وليس منها ... خليع إن عزمت على الجديد

وفكرة الحنين إلى وطنه تتجلى كذلك فى قصيدته :

رحلوا وهم بين الضلوع حلول ... فانحل عقد سلوة محلول

وفيها يمزج حنينه بالفخر، ليتنقل بعد ذلك إلى إنجاز المديح فى الشيخ السديد :

وملأت أسماع الملوك غرائبا ... سارت بها الأمثال وهى مثول
غيرى يقال له ازدهاه منزل ... وزها له المشروب والمأكول
لو كان ذلك سكنت من نهضتى ... مصر وبلل من صداى النيل
وتركت بالفسطاط ملكا وجهه ... متلألئا والقول فيه جميل
لكن سمعت عن السديد وفعله ... فأتيته لأريه كيف أقول

وفى « الترسل » نص رسالة بعث بها شاعرنا إلى السديد بن الحصرى يلقبه فيها بصاحب « المجلس السامى » ، وكان ذلك فى شهر رمضان ، ولذا يدعو الشاعر الله أن يعين ممدوحه على صيامه ، وأن يتداركه بحلول شوال ، غير أنه لايلبث أن يشعر بأنه تجاوز الحد ، ومن ثم يستغفر عن مزح جرى به القلم ، ونطق به الفم » (١٥) .

وإذا ما انتقلنا لابن الحجر وجدنا أنفسنا أمام شخصية معروفة فى التاريخ ، فقد تحدث عنه الهروى فى كتابه « الإشارات » ، وأهدى اليه ابن ظفر الصقلى كتابه الشهير « سلوان المطاع » ، كما أن ابن جبير تناوله فى رحلته ،وكان قد التقى به فى مدينة إطرابنش (ترابانى الآن) وقال عنه إنه :

« زعيم أهل هذه الجزيرة من المسلمين وسيدهم » (٦) وهذا الرجل من أهل بيت بهذه الجزيرة توارثوا السيادة كابرا عن كابر ، وقرر لدينا مع ذلك أنه من أهل العمل الصالح ، مريد للخير ، محب فى أهله ، كثير الصنائع الأخروية من افتكاك الأسارى وبث الصدقات فى الغرباء والمنقطعين من الحجاج ، ويحدثنا ابن جبير كذلك أن أبا القاسم بن الحجر كان قد تعرض فترة من الزمن للمصادرة والعزل من مناصب الدولة ، بسبب ما اتهم به من السعى لإعادة حكم المسلمين ومكاتبة سلطان الموحدين بالمغرب فى سبيل تحقيق هذه الغاية ، غير أنه نال

العفو بعد حين ، وأنفذه غليالم الثانى فى بعض شئونه الديوانية .

وكان أبو القاسم على حالته الأولى من الجاه والثراء لما قصده شاعرنا ، وتدل على ذلك المدائح العديدة ، التى دبجها فيه ، ومن بينها مدحته .

زهرن فاعجب لروض ما زهر ⠀⠀ إلا المباسم والألحاظ والطرر

وفى هذه القصيدة يفخر بنفسه ثم ينثنى إلى المدح فتقول :

ولم اطف بركابى إن نبا وطن ⠀⠀ ولا أطلت اغترابى إن نأى وطر
لكن بنو الحجر استدعت مكارمهم ⠀⠀ عزمى وقد كان يستدعى به الحجر
نادى لسان الندى فيهم فأسمعنى ⠀⠀ فقمت أعبر بحرا كله عبر
هذا أبو القاسم المقسوم نائله ⠀⠀ ماالسيب؟ماالبحر؟ماالأنهار؟ماالمطر؟

ومن قصائده فى ابن الحجر قصيدة :

نعم هو البرق على الأنعم ⠀⠀ فاشق به إن شئت أو فانعم

وأخرى مطلعها :

سفرت عنك أوجه الاسفار ⠀⠀ وجرت بالمنى إليك الجوارى

وفيها يصف الترحال وأهواله ، إلى أن ينتهى به السير إلى رحاب ابن الحجر فيلقى لديه الراحة بعد طول العناء ، وينال من عطاياه مايعوضه عما لاقى من مشقات . ولم ينس أن يشيد بفصاحه ممدوحه ، وبعلو همته فى تسيير الأمور ، وقد رجح احسان عباس، إستنادا إلى هذه الابيات وغيرها من شعر أبن قلاقس ، أن أبن الحجر كان صاحب ديوان الإنشاء بالجزيرة ، وليس هذا بمستبعد، والشيء الثابت على كل حال ، أن ابن الحجر كان يشغل منصبا هاما من مناصب الدولة .

وفى قصائد الشاعر ما يؤكد أو هناك جفوة عرضت فأفسدت العلاقة بينه وبين

ابن الحجر ، غير أنها ما لبثت أن زالت وعاد الصفو بينهما من جديد :

قد سعى بى الوشاة نحو علاه فسعوا لى فلا عدمت الوشاتا
ودعا من بلرم حجى فلبيـ ـت وكانت سرقوسة الميقاتا
وامتطيت الفلاة اقتحم الهو ل ولولاه ماامتطيت الفلاتا
فى جبال أرسى الشتاء عليها قاطنا لايخاف عنه الشتاتا

لم يحدد لنا الشاعر ولاغيره شيئا عن فحوى تلك الوشاية ، وإذا ما صح أن « السديد » الذى مدحه من قبل هو نفسه منافس ابن الحجر على الزعامة فليس بمستبعد أن يزين بعض الوشاة لابن الحجر أن يجفو هذا الشاعر الذى يزجى المدائح فى خصمه ، ولعل ابن قلاقس سعى من جانبه كى يثبت أن علاقته بالسديد علاقة عارضة ، وعلى كل فإن الأبيات التى مرت تقول إن ابن الحجر ، وكان فى سرقوسة ، أبلغ شاعرنا ، الذى كان فى العاصمة بلرم ، أن اللبس قد زال ، ودعاه للحضور اليه ، فلم يتوان عن التوجه لرحابه على الرغم من وعورة الطريق وطول الشقة . ولاننسى أن بلرم فى الجانب الغربى من الجزيرة ، بينما تقع سرقوسة فى أقصى الشرق .

وهذه القصيدة التى مرت ، ومطلعها :

قد عصينا النهى فكيف النهاتا وأطعنا الصبا فكيف الصباتا

وهى تعد من أعمال الشاعر الناضجة التى تنبض بالحيوية والحركة ، ولكن هناك [قصيدة أخرى فى وصف « حال الارتحال » تفوق فيها على نفسه ، وقد أبدى بإحسان عباس تقديره لها فى بحثه عن ابن قلاقس فى صقلية فقال « لدينا من هذه القصيدة قطعة فريدة ، هى قصة فيها شىء كثير من صفات الشعر الجميل ، فيها الإنفعال والحركة ، وفيها قدرة شاعر ذى دربة فى تقليب الأداة الشعرية فى يديه كالعجينة

المرنة ، ولم يستطع الموضوع نفسه ، موضوع الرحلة ، أن يقف فى سبيلها بحيث يجعلها جامدة ، ويجعلها حقيقة جغرافية منظومه لأنها استمدت قسطا وافرا من حيوية ابن قلاقس الشاعر العنيف دائما » (١٧) . وأما مطلع القصيدة — وقد عثرنا على نصها الكامل — فيقول :

أبليت بعدك فى الأنام ظنونى … فظفرت عندهم بكل ضنين

والشاعر هنا لا يتغزل ولا يصف ولا يسترسل فى الحديث عن فعل الخمر فى النفوس بل نراه ينطلق كالسهم ، قاصا علينا اهوال الرحلة وإجحاف الأيام ، وفى البيتن الثانى والثالث يقول :

وشدوا إلى اهلك دون أهلك راجعا … لولا يقينى فى علاك يقينى
وخرجت أطوى من يلزم صحيفة … مانشرت إلا لكى تطوينى

ويمضى به السعى إلى مدينة ثرمة ثم يمضى منها إلى جفلوذ ليغادرها بعد قليل :

أجفلت من جفلوذ اجفال أمرىء … بالدون يطلب ثم أو بالدين
وتركتها والنوء ينزل راحتى … عن مال قارون إلى قارون
وجعلت بقطس عن ابيرى جانبا … وركبت جونا كالليالى الجون
كيف الخلاص إلى ملاص وسورها … من حيث درت به يدور قرينى
وجعلت أنشد حين أنشد صاحبى … من ذا يمسينى على مسينى (١٨)

لكنه فى مسينى لا يلقى الراحة التى كان ينشدها إذ أنه اضطر فيها إلى ملازمة ذلك الذى جرى البرد فى « معطفيه وكفه وكلامه وعجانه المعجون » :

ثم استقلت بى على علاتها … مجنونة سحبت على مجنون
هوجاء تقسم والرياح تقودها … بالنون أنا من طعام النون
وتكفلت سرقوسة بأماننا … فى ملجأ للخائفين أمين

ولم تكن سرقوسة الميقات ونهاية المطاف كما كانت فى القصيدة السابقة ، إذ أنه يمضى فى الوصف ، قاصا علينا أنباء رجوعه برا من سرقوسة إلى بلرم ، مارا بمدينة لنتين ثم انطلق منها ليجوس عبر الجبال الشامخة ، على ظهر جواده ، إلى أن وصل إلى ثرمة ويمم منها صوب بلرم حيث قصر أبى القاسم بن الحجر ، وإذن فقد جاءت اللحظة التى نلتقى فيها بالمقطع المدحى :

يامالىء الدست الذى مذ حازه ... حـــلاه باسمى هالة وغرين

ومقلد الديوان والايوان من ... أوصـــافه بالجوهر المكنون

حاشى خلالك أن تعود مطالبى ... منه إلى بصفقة المغبـــون

وهناك بعض قصائد أخرى فى ابن الحجر ، من أبرزها قصيدته :

ألحق بنفسج فجرى وردتى شفقى ... كافورة الصبح فتت مسكة الغسق

بدأها بالحديث عن الخمر وما فعلته فى لبه ، وذلك الرشأ الفاتن الذى يسعى بها ، وهو يرنو إليه بعينيه الساحرتين فلا يبقى فيه ولا فى الكأس إلا الرمق ، ثم تحتدم سورتها ويدب فى أوصاله الخدر ، وتتلاقى فى ذهنه السكران أطياف الأحلام وظلال الواقع ، ويتملكه الخوف على الاحباب ، ولكن هذا الخوف :

خوف أبو القاسم الارزاق قسمه ... عنى فقد صح إفراقى من الفرق

القائد القائد الضدين فى شيم ... كالماء يجمع بين الرى والشرق

ولعل هذه القصيدة قيلت والشاعر يستعد الرحيل عن صقلية إذ أنه يقول فى ختامها :

وإن يكن جسم عن ذراك مضى ... فإن عندك قلبا فى ذراك بقى

ولكن الشاعر قبيل مغادرته للجزيرة يجمع قدرا مما سطر اثناء الرحلة من شعر ونثر فيتكون له من هذا المجموع كتابا يطلق عليه عنوانه الزهر الباسم فى أوصاف

أبى القاسم ، (١٩)،والكتاب مفقود حتى الآن ولكن سلمت لنا منه بعض نصوص مرت بنا إشارات عنها .

ومن النصوص التى وصلت الينا طائفة من المراسلات الشعرية بين شاعرنا وشاعر صقلى يدعى أبا الحسن على بن أبى الفتح بن خلف الاموى ، وهو شخصية تكاد تكون مجهولة ، ولم يذكر العماد عنها فى القسم المصرى من « الخريدة » إلا عبارة تقول : « لاشك أنه من ساكنى صقلية ، فإن ابن قلاقس أورده فى « الزهر الباسم » وقال : هو حدقة العلم الناظرة ، وحديقة الأدب الناضرة ، وإنما ذكرته أنا فى أهل مصر حيث اقتضاه هذا الموضع ، للمكاتبات التى جرت بينه وبين ابن قلاقس » .

ومن هذه المكاتبات مابعث به ابن خلف إلى صاحبه حين علم باعتزامه الرحيل عن صقلية :

ياماجدا طبعه أحلى من الماذى ومن يفوق ذكاء أهل بغداد
وهمت فى رقعة سيرتها عجلا إليك ما بـــين تلميذ وأستاذ
فابسط لى العذر واعلم أننى قلق ذو خاطر انـــواكم آلم هاذى

فأجابه ابن قلاقس أبيات منها :

هذى المحاسن قد أوتيتها هذى فكل شخص تعاطى شأوها هاذى
أقسمت بالنحل إن النحل قائلة ماذا الحلاوة مما يحسن الماذى
وقت لى من جفاء فى صقلية بلطف مصر عليه ظرف بغداد
إن كان طبعك من ماء ورقته فإن ذاك فرند بـــين فولاذ

وكتب إليه ابن خلف أبياتا أخرى مفعمة بالرقة والمشاعر الجياشة ، أولها :

أيا شمس الجلال على اقتصاد ويابدر الكمـــال لدى اتقاد

ومن أجمل ابياتها قوله :

ويا من بذ فى الأشعار من | أباد الدهر من أيام عاد
لقد أصبحت لى خلا صفيا | وحبك قد تمكن فى فؤادى

ثم يصف حزنه لتفرق الشمل بعد أن توطدت بينهما عرى المحبة :

يعز على أن تنأى وابقى | فريدا مستهاما للبعاد
ولولا طرة للبين تخشى | لبست لذاك أثواب الحداد

وقد رد هذه التحية بمثلها ، وتغنى فى جوابه بصفاء طبع صاحبه الذى يغاير مسلك أهل صقلية الخشن الجاف :

هو النادى وأنت به أنادى | فيامروى الحيا مورى الزناد
تخذتك من صقلية خليلا | فكنت الورد يقطف من قتاد
وشمتك بين أهليها صفيا | فكنت الجمر يقبس من رماد
فإن وسعتك حيزوم وإلا | فما ضاقت حيازيم البلاد
فديتك ، كلانا فيها غريب | وذا نسب يضاف إلى الوداد

وفى الديوان مراسلات شعرية بينه وبين « الفقيه ابن فاتح »(٢٠) ، وكذلك بعض نصوص أخرى تتحدث عن بحيرة فى قصر ملك صقلية وقد صفت أمواهها وصدحت على شاطئها حناجر المغنين وترانيم الأعواد وأصداء المزامير ، أو تتحدث عن الجليد يكلل هامات الجبال أو تصف النوافير البديعة الصنع . .

ويقودنا هذا الذى مربنا إلى أن نتساءل ما الأثر الذى خلفته صقلية فى شاعرية ابن قلاقس ؟ وقد حرص د . إحسان عباس على أن يقرر أنه « من المغالاة أن نفسب إلى صقلية أثرا فى شاعريته وصنعته لأن ذلك القدر من الإقامة لا يبيح مثل هذا التأثير السريع ، وإذا كان شعره تحت سماء صقلية إمتلأ بأسماء

أمكنة صقلية وأعلام من أهلها ، فهذا لا يضفى على الشعر سمات جديدة ، والذين يدرسون أثر بيئة معينة فى الشاعر سيجدون فى مثل ابن قلاقس عقدة من نوع ما ، لأنه لم يكن يستقر فى مكان » . ويعلق على النصوص التى هجا فيها الشاعر الجزيرة وأهليها قائلا : « علينا إلا نثق كثيرا بأحكام أولئك الغرباء الذين كانت تتغير عليهم البيئة ، وخاصة إن كان ذلك متصلا بعاطفتهم ، وما نظن أن الشاعر يصدق صدقا موضوعيا حين يمدح أو يهجو إلا قليلا ، زد على ذلك أن ابن قلاقس عاش فى صقلية تلك المدة محكوما بالحنين إلى وطنه ، يحلم بالعودة . . . »

ونحن نؤثر - قبل أن نحاول الإجابة عن مثل هذا السؤال - أن نعيد النظر فيما وصل إلينا من أعماله الصقلية ، وبخاصة قصيدته :

لو لم يحرم على الايام إنجادى ∴ ما واصلت بين إتهامى وإنجادى

التى وصف فيها أهوال الرحلة للجزيرة ، ثم قصيدته :

قد عصينا النهى فكيف النهاتا ∴ وأطعنا الصبا فكيف الصباتا

وفيها تسجيل الرحلة من بلرم — عاصمة صقلية — إلى سرقوسة ،
وأخيرا مدحته فى الملك النورماندى غليالم الثانى :

يقر لغليلم الملك ابن غليلم ∴ سليمان فى ملك داود فى حكم

وقصيدة وصف التطواف حول الجزيرة :

أبليت بعدك فى الأنام ظنونى ∴ فظفرت عندهم بكل ضنين

إن هذه الأعمال تعكس فى صدق مشاعر المعاناة والخوف من التعرض للهلاك والتربص ، وتنم عن إحساس الأسى الذى كان من الطبيعى أن يعترى نفوس المسلمين وهم يرون صقلية وقد انتزعت من أيديهم ، ومن جانب آخر فإن سيطرة

النورمان ولدت الفرقة والشحناء بين مسلمى الجزيرة ، فقد استسلم فريق للواقع المر بينما ظل الفريق الآخر يراوده الأمل فى عودة السيادة الاسلامية ،وفيما يبدو أن الشاعر فى خلال النصف الثانى من القرن السادس الهجرى أخذت تميل لليأس ، حتى أن عددا من مسلمى صقلية تنصر ، ودبت فيما بينهم العداوة والدسائس والمنافسات وربما لم يحس ابن قلاقس بهذا كله احساسا مباشرا واضح المعالم ، ولكنه وجد نفسه مطالبا بأن يتقرب من الملك ومن رجال حاشيته ، وشعر أنه محاط بجو من الريبة والدسائس ، وقد مربنا أنه قال فى مدحة له ، مخاطبا ابن الحجر :

وشدوا إلى اهلك دون أهلك راجما   لولا يقينى فى علاك يقينى

وهو فى القصيدة نفسها يقول :

من بعد ما أغضت جفونك مرة   عنى وكدت لقولة تجفونى
وسعى بى الواشى اليك فكاد أن   يثنيك بالبهتان أو يثنينى

ويكرر ذكر الوشاية فى قصيدة أخرى :

قد سعى بى الوشاة نحو علاه   فسعوا لى فلا عدمت الوشاتا
حركوا لى الشماة منهم وظنوا   أنهم حركوا على الشماتا

وتضيق نفس الشاعر بهذا الجو المسموم ولا يزيده ذلك إلا حنينا لبلاده ، وشوقا لمراتع صباه ومجالس لهوه وأنسه ، وهكذا يقرر العودة بعد أن أمضى فى صقلية قرابة عامين ،ولعله هم بالرحيل قبل ذلك لكن الظروف لم تساعده ، ومن الطبيعى أنه كتم أحاسيسه هذه فلم يصرح بها فى مدائحه ، ولم يفصح عنها إلا للمحض بخلصائه من أمثال ابن خلف ،والذى نظنه أنه كان ممتلىء الصدر أسى ونقمة

وهو يهجو أهل صقلية لا لأنهم أهل غلظة وخشونة فحسب، بل لأنهم كذلك أهل شحناء وفرقة ، فى وقت كان ينبغى فيه أن تتضافر القوى ، وها هو يقول فى أبيات لعله يخاطب بها ابن الحجر :

وركب كأطراف الأسنة عرسوا ... على مثل أطراف السيوف الصوارم
لامر على الاسلام فيه تحيف ... يخيف عليه أنه غـــير سالم
وقالوا بلرم عند إبرام أمرهم ... فنجمت أن قد صادفوا جود حاتم

إن الرحلة الصقلية قد خلفت — فيما نظن — أثرها فى نفسية الشاعر وفى أعماله ، فهى التى جملته ينتج كل هذا الشعر فى وصف البحر والأسفار والحنين للوطن ، وهى التى أمدته بتجارب جديدة خاصة حين اتصل بملك النورمان ، وعمد إلى وصف مشاهداته فى الجزيرة ، ولكن الأثر الاكبر للرحلة إنما ينعكس على نفسية الشاعر نتيجة للتجارب الفريدة التى اكتسبها والتى سيكون لها أثرها بعد ذلك فى حياته وفى نتاجه الفنى على حد سواء .

ونصل فى نهاية المطاف للشاعر وقد غادر الجزيرة ، وكان ذلك فى زمن الشتاء ، وفى صحبة رسول ما ، لا ندرى من أين جاء ، ولا إلى أين يريد أن يمضى ، ولم تلبث الرياح أن ردت السفينه التى تقل شاعرنا ومن معه إلى الشاطىء، فكتب إلى أبى القاسم بن الحجر :

منع الشتاء من الوصو ... ل مع الرسول إلى ديارى
فأعادنى وعلى اختيـــا ... رى جاء من غير اختيار
ولربما وقـــع الحـــا ... ر وكان من غرض المكارى

وهدأت العاصفة ، فانطلقت السفينه من جديد عبر البحر الابيض ، إلى أن

وصلت إلى الاسكندرية ، ولدينا وصف طريف للحظة وصول ابن قلاقس ، سجله ابن ظافر فى بدائع البدائه » (٢١) :

« وأخبرنى الأنجب السخاوى (٢٢) بالإسكندرية ، قال : لما وصل الأديب ابن قلاقس من صقلية ، وكان قد انتجع أبا القاسم بن الحجر ، فانبجس له بعيون العطايا والفجر ، خرج للسلام عليه جميع معارفه ، وخرجت فى جملتهم ، فلما نزل من المركب ونزلنا للسلام عليه ، إذ بالفقيه أبى العباس أحمد بن محمد بن أبى الصلاح (٢٣) قد خرج ، فحين وقعت عينه على الأعز (ابن قلاقس) أنشد مرتجلا :

أطل هلال الفاسقين فلا أهلا ولا مرحبا بالقادمين ولا سهلا (٢٤)

ثم انصرف ، فتركنا متعجبين من سرعة بديهته ، وقلة وفائه .

ولا نعرف الدافع لمثل هذا التصرف . أتراه خلاف قديم بينهما أم لأن الشاعر قد عرف عنه أنه مدح ملك صقلية النصرانى مما أحنق عليه بعض الناس ؟

مراجع وتعليقات

(١) «خريدة القصر» القسم المصرى ج ١ ص ١٤٥ وما بعدها .

(٢) كانت صقلية تحت النفوذ البيزنطى عندما تطلع إليها المسلمون ، وقد جاءت أولى محاولات الفتح سنة ١٢٢ هـ على يد حبيب بن أبى عبيدة — حفيد عقبة بن نافع — ولم يقدر لهذه المحاولة أن تنجح ، وتجدد الهجوم على صقلية بعد ذلك فى زمن زيادة الله بن الأغلب سنة ٢١٢ هـ وكان ذلك بقيادة أسد ابن الفرات ، وعلى يديه تم الاستيلاء على معظم أنحاء الجزيرة ، وبذا أصبحت صقلية تابعة للدولة العباسية ، ثم تمكن الفاطميون من بسط نفوذهم عليها ، إلى أن دب الوهن فى دولتهم ، ومن ثم نجح النورمان فى الاستيلاء على الجزيرة ابتداء من سنة ٤٤٤ هـ وكان أول ملوكهم روجار الأول ثم خلف ابنه روجار الثانى — وعمر فى الملك طويلا — وتلاهما غليالم الأول فغليالم الثانى ، وفى عهده قدم ابن قلاقس إلى صقلية .

(٣) انظر على سبيل المثال مادة صقلية بدائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية مجلد ١٤ ص ٢٥٧ — ٢٦٣ بقلم كروانر جوردن) وفيها أنه على الرغم من زوال النفوذ العربى « فإن الثقافة العربية وجدت عصب حياتها فى كيان الغزو النورماندى . . . ذلك أن روجار لم يكن متحمسا فى مسيحيته ثم انه شجع هؤلاء المسلمين على ان يتموا مواهبهم إن لم يكن شجعهم على ان ينشروا دينهم ، بل لقد اتهم هو نفسه بأنه مسلم ، واذ رأى بعينيه اللتين لم تظللها غشاوة التعصب عبقرية العرب العظيمة أبى أن يقتل روح هذه العظمة فمنح المسلمين الحرية التامة فى ممارسة شعائر دينهم .. وأخذ بنظام الإدارة الإسلامى بل أبقى على الموظفين المسلمين فظلوا يعملون تحت إمرته . . وكذلك ازدهر علم الطب ، ولم يكن بلاط روجار

مشهوراً ببراعة أطبائه فحسب ، بل كان مشهوراً بكثرة عددهم أيضاً ، وازدهرت اللغة العربية بوصفها وسيلة التفاهم الكبرى ، كما كانت هى اللغة الرسمية » وراجع كذلك بحث جابر يللى عن « الإسلام فى عالم البحر المتوسط » ص ١٠١ — ١٦٠ من كتاب « تراث الإسلام » تصنيف شاخت وبوزورث ، وبخاصة ص ١١٦ - ١٢١ (الترجمة العربية)

(٤) الكامل ١٠ / ١٨ .

(٥) رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٥ وما بعدها (ط . القاهرة ١٩٦٨) .

(٦) « العرب فى صقلية » ص ١٥٠ .

(٧) مخطوطة رقم ٣٨٠٠ .

(٨) هذا ما يرد فى « خريدة القصر » وأما الديوان فيجيء فيه : « وقال بصقلية وكتب بها إلى أصحابه فى الإسكندرية ، ووصلت فى آخر شوال سنة ٥٦٤ »

(٩) الشطرة من بيت لأبى قطيفة (توفى نحو سنة ٧٠ هـ) وكان عبد الله ابن الزبير قد نفاه إلى دمشق ، فبقى فيها حيناً يتغنى بالحنين إلى دياره بالبادية حتى أعيد إليها . وعجز البيت :

أشهى إلى القلب من أبواب جيرون

وانظر الخبر فى « معجم البلدان » ٢ / ١٥٨ ، مادة « الجماء » .

(١٠) كتب النويرى فى « نهاية الأرب » جـ ١ ص ٢٣٤ عن بالرم (أو بلرمو أو بلرمة) : « وبها يكون الملك ، وكانت قصبة الجزيرة بعد أن فتحها المسلمون ، ثم انتقل الناس منها إلى الخالصة . وهى محدثة ، بنيت فى أيام « القائم » ابن المهدى العبيدى ، سنة خمس وعشرين وثلاث مائة ، ثم صارت بلرمو العاصمة ، وصارت الخالصة ربضاً لها » . وفى رحلة ابن جبير (ط . القاهرة ٦٨) ص ٢٣٠ أن المسلمين كانوا يطلقون عليها اسم « المدينة » .

ويشير ابن قلاقس فى « الزهر الباسم » بعد وصف البحر وأهوال السفر إلى انه وصل « طرف الجزيرة بمسيق غرة شعبان سنة ثلاث وستين وخمسمائة ولعله بقى فيها حيناً ، قبل أن يتابع المسير إلى العاصمة .

(١١) غليالم الثانى (أو وليم الثانى) ويعرف باسم « الطيب » :

ولد نحو سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م ، وتوج ملكا فى سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦ م) على أثر وفاة ابيه غليالم الأول (الذى يلقبونه بالفاسد) وفى دائرة المعارف الكبرى Grande Ensyclopédie ج ١٩ ص ٥٧٦ أنه حكم فى أول أمره تحت وصاية من أمه ولكنه سرعان ما استحوذ على حب رعاياه حين أقر العدل وفتح أبواب السجون وألغى الضرائب الباهظة التى كانت قد فرضت على عهد أبيه ، واشترك فى إرسال حملات بحرية وبخاصة إلى مصر . وكانت وفاته فى سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) .

وترك عنه ابن جبير شهادة هامة تعكس بعض صفات هذا الملك ، فمنها ماذكره بصدد وصولهم إلى ثغر مسينى بعد أن تعرضت السفينة التى كانت تقلهم لعاصفة هوجاء :

« ثم تمكن الشروق لجاءتنا الزواريق مغيثة ووقعت الصيحة فى المدينة فخرج ملك صقلية غليالم بنفسه فى جملة من رجاله متطلعا إلى تلك الحال ..

ومن العجيب — على ما أخبرنا به — أن هذا الملك الرومى المذكور أبصر فقراء من المسلمين يتطلعون من الركب ، وليس لهم شىء يؤدونه فى نزولهم ، لأن أصحاب الزواريق أغلوا على الناس فى تخليصهم ، فسأل عنهم فأعلم بقصتهم فأمر لهم بمائة رباعى من سكته ينزلون بها ، وخلص جميع المسلمين .

ومن جملة صنع الله عز وجل لنا ، ولطفه بنا فى هذه الحادثة كون هذا

الملك الرومي حاضرا فيها ، ولولا ذلك لانتهب جميع ما في المركب انتهابا ، وربما كان يستعبد جميع من فيه من المسلمين لأن العادة جرت لهم بذلك . وكان وصول هذا الملك لهذه البلاد — بسبب اسطوله الذي يغشوه — رحمة لنا » .

ص ٢٢٣ من ط . القاهرة ١٩٦٨) .

ويقول (ص ٢٢٥ من نفس الطبعة) :

« وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المجابيب ، وكلهم أو أكثرهم كاتم إيمانه متمسك بشريعة الإسلام وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في احواله والمهم من أشغاله حتى ان الناظر في مطبخته رجل من المسلمين، وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم، ووزراؤه وحجابه الفتيان ، وله منهم جملة كبيرة هم أهل دولته والمتسمون بخاصته ، وعليهم يلوح رونق مملكته لأنهم متسعون في الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة، وما منهم إلا من له الحاشية والخول والأتباع .

ولهذا الملك القصور المشيدة والبساتين الأنيقة .. وهو كثير الاتخاذ للفتيان والجواري ، ولا أنعم ولا أرفه منه، وهو يشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع زينته بملوك المسلمين ... »

ويقول ص ٢٢٦ :

« ومن عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته — على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به — : « الحمد لله حق حمده » ، وكانت علامة أبيه : « الحمد لله شكرا لأنعمه » وأما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن ».

(١٢) أنظر الخريدة ج ص ٢١ — ٢٤ (قسم الأندلس وصقلية من ط . الدسوقي وزميله) .

(١٣) أعتمد الشاعر فى الوقت ذاته على بعض المعانى المستمدة من القرآن الكريم وبخاصة الآية ٤٩ — من سورة آل عمران : « ورسولا إلى بنى اسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله » .

(١٤) د. إحسان عباس « العرب فى صقلية » ص ٢٨٧ وما بعدها .

(١٥) استمرت صلة الشاعر بالسديد بن الحصرى طيلة فترة مقامه بالجزيرة كما يدل على ذلك قوله :

يا هبة الله دنانيره فما ترى يا هبة الله
قد أزف الوقت وداعى النوى أطنب فى ناه ونهناه

وإذا كان السديد بن الحصرى هذا هو نفسه منافس ابن الحجر على زعامة مسلمى الجزيرة ، فكيف ظل الشاعر على صلاته بها على الرغم مما بينهما من تنافس اللهم الا إذا افترضنا ان الصراع بينهما لم يكن على اشده .

(١٦) لدينا فى رحلة ابن جبير نبذة هامة عن ابن الحجر هى (ص ٢٣٦ من طبعة القاهرة ١٩٦٨) :

« ووصل إلى هذه البلدة (مدينة اطرابنش) زعيم أهل هذه الجزيرة من المسلمين وسيدهم : القائد أبو القاسم بن حمود ، المعروف بابن الحجر ...

وكان فى هذه المدة تحت هجران من هذا الطاغية (يعنى غليالم الثانى ملك صقلية) ألزمه داره بمطالبة توجهت إليه من اعدائه ، افتروا عليه فيها احاديث مزورة نسبوه فيها إلى مخاطبة الموحدين — أيدهم الله — فكادت تقضى عليه ، لولا حارس المدة ، وتوالت عليه مصادرات أغرمته نيفا على الثلاثين ألف مؤمنية . ولم يزل

يتخلى عن جميع دياره وأملاكه الموروثة عن سلفه حتى بقى بدون مال .

فاتفق فى هذه الأيام رضى الطاغية عنه ، وامره بالنفوذ لمهم من أشغاله السلطانية ، فنفذ لها نفوذ المملوك المغلوب على نفسه وماله ، وصدرت عند وصوله إلى هذه البلدة رغبة فى الاجتماع بنا فاجتمعنا به ، وأظهر لنا من باطن حاله وبواطن أحوال هذه الجزيرة مع أعدائهم ما يبكى العيون وما يذيب القلوب ألما وفارقناه باكيا مبكيا ، واستمال نفوسنا بشرف منزعه وخصوصية شمائله ، ورزانة حصاته ، وشمول مبرته وتكرمته وحسن خلقه وخليقته وكنا قد أبصرنا له ولإخوته ولأهل بيته بالمدينة (يعنى بالرم) ديارا كأنها القصور المشيدة الأنيقة وشأنهم بالجملة كبير ، لا سيما هذا الرجل منهم .

ومن عظم هذا الرجل الحمودى المذكور فى نفوس النصارى ... أنهم يزعمون أنه لو تنصر لما بقى فى الجزيرة مسلم إلا وفعل فعله اتباعا له واقتداء به » .

(١٧) « العرب فى صقلية » ص ٢٨٧ . ولم يقع د. إحسان عباس على النص الكامل للقصيدة ، ولكنه جمع عددا من أبياتها التى ترد فى معجم البلدان (ونقلها ميشيل أمارى عن ياقوت) وقاد البحث د. إحسان عباس إلى العثور على أبيات غزلية لابن قلاقس مذكورة فى المخطوطة التى تحمل عنوان أعيان العصر فظن أن هذا المقطع الغزلى هو بعينه مستهل القصيدة الضائعة فى وصف صقلية ، لأنهما تشترك مع ما وصل إلينا منها فى الوزن والقافية وواقع الامر أن هذا المقطع الغزلى لا علاقة له بقصيدتنا الصقلية هذه وإنما هو مستهل قصيدة قالها الشاعر فى مدح الأمير جلال الدين ابن الأمير ناصر الدين بن نصر العسقلانى .

(١٨) يرد كثير من هذه الأبيات متفرقا فى معجم البلدان . وانظر نصها فى القسم الثالث من دراستنا هذه .

(١٩) هناك كتاب فى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم عنوانه ، الزهر الباسم فى سيرة أبى القاسم » من تأليف أبى عبد الله مغلطاى المتوفى سنة ٧٦٢ هـ ، نشير إليه هنا حتى لا يختلط الأمر بكتاب ابن قلاقس « الزهر الباسم فى أوصاف أبى القاسم » .

(٢٠) ترد الأبيات التى أولها :

هو النادى وأنت به أنادى   فيا مروى الحيا مورى الزناد

فى « خريدة القصر » على انه أجاب بها الفقيه أبا الحسن بن خلف الاموى الصقلى عن أبيات كتب بها إليه ، بينما يأتى فى الديوان (مخطوطة دبلن ٤٢٢٦) أنه بعث بها إلى أبى الحسن بن فاتح .

ويأتى اسم ابن فاتح هذا فى الديوان (مخطوطة باريس) على أنه « أبو عبد الله محمد بن فاتح قاضى صقلية » أما ابن نباتة فى المختار من الديوان فلا يذكر سوى الكنية « أبو عبد الله » .

وليست لدينا معلومات محددة لا عن ابن خلف ولا عن ابن فاتح ، وكل ما نعرفه عن الأول جملة جاءت فى القسم الأول من الخريدة هى « لا شك أنه من ساكنى صقلية فان ابن قلاقس أورده فى الزهر الباسم وقال : هو حدقة العلم الناظرة وحديقة الأدب الناضرة، وإنما ذكرته أنا فى أهل مصر حيث اقتضاه هذا الموضع للمكاتبات التى جرت بينه وبين ابن قلاقس » .

واما ابن رجا فلم نعثر له على ذكر فى المصادر التى رجعنا إليها ونشير هنا إلى أن العماد فى الخريدة (قسم الاندلس وصقلية ج ١ ص ٢٤٥ تحقيق الدسوقى وزميله) يشير إلى أديب صقلى هو ابو الضوء سراج بن احمد بن رجا الكاتب ، كانت بينه

وبين أمية بن أبي الصلت مراسلات . وربما كان ابن رجا الذي يشير إليه ابن قلاقس من نفس أسرة ابن رجا الكاتب

(٢١) النص فى « بدائع البدائه » مخطوطة باريس ورقة ١٧٧ ط وطبعة محمد ابن الفضل ابراهيم ص ٣٩٦ « وأعيان العصر » ورقة ٢٢٠ (وقد ألمعنا قبلا إلى أن مخطوطة القاهرة هذه هى — فى حقيقة الأمر — بعض أجزاء « الوافى بالوفيات » وليست من « أعيان العصر ») وكذلك فى « نفح الطيب » للمقرى ٤/٢٣٨ - ٢٤٢ وتضم هذا الخبر وغيره من أخبار الشاعر المبثوثة فى « بدائع البدائه » وقد جمعها المقرى ووضعها ضمن باب عنوانه « فضائل أهل الأندلس » وأما فى الطبعة القاهرية (نشر محي الدين عبد الحميد) فتردد مسبوقة بعنوان هامشى : « أمثلة من ارتجالات ابن قلاقس » ، وواضح أن شاعرنا ليس من أهل الأندلس ولا علاقة له بهم ، بل وردت ارتجالاته على سبيل الإستطراد ، وقد نبه المقرى نفسه إلى ذلك حين ختم ارتجالات ابن قلاقس بقوله : « وقد آن وقت الرجعة إلى كلام الأندلسيين الذى حلا ، وأبعدنا عنه بما مر من النجعة » .

(٢٢) شاعر مصرى ذكر العماد فى الخريدة نبذة عنه ، وسماه الفقيه البليغ ابو عمران ، موسى بن على السخاوى ، من الأعمال الغربية بمصر ، وسكنه بمصر ، وذكر أن الأمير عز الدين محمد بن مصال نوه به له سنة خمسمائة وسبعين ، وأثنى على فضائله ، وأنشدنى من أشعاره التى حفظها ، وذكر أنه الآن شاعر تلك المدرة .. »

وكان أبو موسى السخاوى من مداح صلاح الدين الأيوبى ، وكثيرا ما أثنى العاهل الأيوبى على بلاغته ، وله كذلك مدائح فى القاضى الفاضل وغيره من أعلام العصر الأيوبى .

(٢٣) نرجح أن يكون هو نفسه : احمد بن محمد الآبى (ابو العباس) الذى ذكرنا فى الفصل السابق أنه كان مع خلاف مع ابن قلاقس .

(٢٤) جاء البيت فى الطبعة الجديدة من (بدائع البدائه) تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم .

اظل هلال العاشقين فلا أهلا ولا مرحبا بالقادمين ولا سهلا

ولا تتلائم هذه القراءة والمناسبة التى قيل فيها البيت .

الفصل الرابع

العـــودة

عاد شاعرنا إلى مصر فى غضون سنة ٥٦٥ هـ ، ليجد الخلافة الفاطمية تعانى من آلام النزع الاخير ، وكان العاضد لا يزال وقتها الخليفة الشرعى للبلاد، إلا أن جماع الامر كله كان بين قبضتى وزيره صلاح الدين بن أيوب . وكانت له آمال عراض قدر لها ان تتحقق ، منها القضاء المبرم على الخلافة الفاطمية ، وجعل مصر تحت هيمنة الخلافة العباسية مرة أخرى ، على أن يكون له هو السلطان المطلق فى البلاد .

وفى هذه الفترة التى نعرض لها كان صلاح الدين قد أمر بأن يذكر اسم نور الدين فى الخطبة بعد اسم الخليفة ، وإلى هذا يشير ابن قلاقس فى مدحته التى ودع بها السديد الحصرى وهو فى صقلية :

لو سئلت مصر على انها ... منـــازل العـاضد لله
من عرفت سمته فى أول الـ ... بسم وثنت بشهنشاه

جائتك ....

ولعل شاعرنا ، وقد عاد إلى الإسكندرية ، سعى حثيثا إلى توطيد الأواصر بنجم الدين بن مصال والى الإسكندرية من قبل صلاح الدين ، وسرعان ما نجح فى ذلك ، وساعده أن الرجل كان حفيا بالشعر والشعراء ، والدليل على ذلك أن العماد كثيرا ما ينقل عنه فى خريدته وقد اعتمد فى ترجمته لابن قلاقس على ما رواه له هذا الوالى ، وأورد : « ذكر لى ابن مصال أنه كان من أهل الاسكندرية ، وقاد الخاطر ، ذو الفضل الوافر .. أنشدنى له من أبيات يصف أمراضه .. » .

وفى الديوان أكثر من مدحة فى نجم الدين هذا ، فمن ذلك قصيدة :

لم يشف طيفك لما زارنى ألما ... وإنما زادنى إلمامه لممـا

وفيها صور طيف الحبيب إذ راح ينادمه وهو فى الدجنة بلا نديم ولا كأس، حتى اذا ما شاب فود الليل انطلق مع رفقاء السفر ولكن إلى أين ؟ إلى مجلس نجم الدين الذى تتألق فى البعيد أضواؤه ... وهكذا يتسلل الشاعر إلى المديح فيقول :

فكلما قيل نجم الدين قد وضحت ... أنواره فمحون الظلـم والظلما

قلنا وعاد إلى شرخ الشباب به ... جود مضى هرم عنه وقد هرما

ملك تحرمت الدنيا بسطوته ... فردها وهى حل والندى حرما

كأنما الدهر إفشين يخر له ... وقد أقام عليه سيفه صنما (١)

ولا ينسى الشاعر أن ينبه إلى عراقة نسب ممدوحه فيقول :

إن قال آل مصال فيه : من يمن ... قال الأغالب من مـن ولاسيما

أملى على العرب من تسييره سيرا ... فى مصر هزت على فسطاطها العجما

ولا يكاد يذكر اسم نجم الدين بن مصال الا وتذكر معه بسالته فى صد هجوم الفرنجة حين أغاروا على دمياط وحاصروها مستعينين فى ذلك ببعض أساطيل بيزنطة ، وإلى هذه البساله يشير الشاعر فى قصيدة له مطلعها :

راح يرى فى طراده طرده ... فالسمر لاالسمر تيمت كبده

وتسبقها فى الديوان عبارة تقول : « وقال يمدح الملك الناصر صلاح الدين ، ويذكر الوالى على ثغر الإسكندرية . . . » وليس فى القصيدة غزل ولا خمر ولا وصف ، فممدوحه مشغول عن ذلك كله بمقارعة الأعداء ومغالبة الصعاب ، وماتيمت كبده الاسمر الرماح وومضات السيف الصقيل . . وإذ نقترب من

الخاتمة ، نرى الشاعر يعرض لصلاح الدين وللخليفة العاضد فيقول :

حتى انتهى الملك عند ناصره   فطول الله عنده أيده
وأصبح العاضد الإمام به   فى دولة بالسعود معتضدة

ولدينا فى ابن مصال مدحة أخرى مطلعها :

لمن الشموس عرين فى الأكوار   وطلعن بين معاقد الأزرار

وأخرى مستهلها :

ضرب الناس فى العلا الأمثالا   وسمعنا بها ولكن كذا لا

وهذه القصيدة الأخيرة كتبت على أثر محاولة الفرنجة غزو دمياط واستبسال صلاح الدين فى الدفاع عنها ، وفيها يشيد الشاعر بدور نجم الدين بن مصال فى انزال الهزيمة بالمغيرين واجبارهم على الفرار ، ويبرز مدى بأس قواته ، فخيوله :

كلما حومت أدارت جناحا   عنه من ريشه الصبا والشمالا
أقبلت كلها صدورا فرت   خيل مرى (٢) كلها اكفالا

والمقاتلة الشجعان تدافعت جموعها الغفيرة :

وأقامت لثغر دمياط ثغرا   ضاحكا عن كماتها يتلألا
خلف سور من الظباء العوالى   قد تعالى بناؤه وتعالى
وليوث يظن يا ابن مصال   أن عناك علمتها الصالا
لحت نجما على سماء رشيد (٣)   فاجتلى منك الهلال هلالا

وفى الديوان قصيدة أخرى تتصدرها عبارة تقول : « وقال يمدح السلطان الملك الناصر صلاح الدين .. ويهنئه بهزيمة الفرنج ، خذلهم الله ، عن ثغر دمياط »

فى بعض شهور سنة خمس وستين (وستمائة) ويعرض بمدح أمير كان على ثغر الاسكندرية حينئذ وهو الامير نجم الدين محمد بن مصال ، ويذكر حال أسطول السلطان .. وهذا الذى وجد منها »

ويبلغ عدد الأبيات التى وصلت أربعة عشر بيتا ، منها :

تهز بك الخطوب من الخطاب وتنهزم الكتائب بالكتاب
وتخشى نار حربك وهى تخبو فكيف إذا ارتمى شرر الحراب
ركزت حشا اللعين بمنكصات على الأعقاب من جهة العقاب
قطائع تستهل لهـا المنايا فتحسب أنها قطع السحاب
يصارعها العبـاب فتعتليـه فقل لعب الحباب على الحباب

ثم يستدير موجها الخطاب للفرنجة قائلا :

أغربان الشآم حذار شؤما لكم مستوطنا فى الاغتراب
هفت بكم المنى فاطعتموها على الأهواء من عدد التراب
وعند الطير فى الرايات رأى فما يخلو عقاب من عقاب

ولا ندرى إن كان شاعرنا قد أنشد مدحته هذه بين يدى صلاح الدين أم أنه قالها فى مجلس ابن مصال الاسكندرية ، ونحن نرجح أن نكون قد أنشدت على مسمع من صلاح الدين ، لأن المصادر تشير إلى أن الشاعر كان من مداح العاهل الأيوبى الكبير (٤) .

وفى الأعمال التى تحدثنا عنها ما يفصح عن ملكة شعرية ناضجة ويكشف عن قدرة ابن قلاقس على معالجة فنون المديح ، مما أتاح له الفرصة كى يتصل بأكبر رجالات عصره ، غير أنه لا يستقر طويلا فى مصر ، وما هى إلا شهور قلائل ،

حتى نراه وقد استهواه الترحال من جديد ، وكان من الممكن أن يوجه له ، كما يقول العمرى ، « فى الدولة الصلاحية مقيل ، لو اكتفى بظلالها ، ووافى بظمئه إلى زلالها ، ولكنه اتخذ التشقيت فى البلاد دأبا لا يسأم دوامه » ، ولنا ان نتساءل عن أسباب هذه الرحلة الجديدة عن مصر كما تساءلنا من قبل عن أسباب رحلته السالفه إلى صقلية .

ولو عدنا لأحداث العصر فى مصر لربما اهتدينا إلى معرفة شيء من هذه البواعث التى جعلته يسير جنوبا هذه المرة ، صوب عدن وسواحل افريقيا الشرقية ، ففى هذه الفترة (سنة ٥٦٥ هـ) كانت كل الدلائل تشير إلى أن البلاد ستشهد عما قريب أحداثا جساما وتغييرات جوهرية ، وكان واضحا أن الخليفة العاضد يحاول أن يتخلص من صلاح الدين ورجاله بالحيلة حينا وبالقوة أحيانا ، وكان صلاح الدين من جانبه يتحين الساعة التى يضرب فيها ضربته ، ويسقط العاضد عن عرشه ، ومن الناحية المذهبية فان الشيعة كانوا يشعرون بأن أمامهم معركة حياة أو موت وأما أهل السنة فانهم راحوا يستجمعون قواهم بغية القضاء على النفوذ الشيعى وكانت القوى الصليبية بالشام تؤثر على نحو أو آخر فى مجريات الأمور ، والأوضاع — على الرغم من السكون الظاهرى تنبىء بأن الموقف على وشك الانفجار ، ودليلنا على ذلك أن صلاح الدين وجد نفسه فى مأزق صعب حين أتته انباء الهجوم الصليبى على دمياط ، لانه خشى أن تسقط دمياط فى أيدى الغزاة إن هو لم يخرج اليهم ، غير أنه عرف أن غيابه عن القاهرة يتيح للخليفة وللشيعة فرصة ذهبية كان يحرص اشد الحرص على أن يحرمهم منها ، ولم يجد العاهل الايوبى بدا من أن يختار أخف الضررين وبقى فى العاصمة ، معتمدا على جهد رجاله وذوى قرباه فى الذود عن دمياط .

وفى الديوان مدائح فى القاضى الفاضل (*) أشرنا لشيء منها قبلا ، وهى قصائد غير مؤرخة ، ومن ثم يتعذر الحكم بأنها قيلت قبل السفر لصقلية أم على أثر العودة منها .

ومن الجائز أن يكون الشاعر قد أحس بأن رحلته الصقلية لم تحقق كل ماكان يصبو إليه ، ومن ثم قرر الرحيل المبكر لكى ينأى عن جو مصر المضطرب من جانب ، ويحقق من جانب آخر — أحلامه فى المجد والثراء .

مراجـــع وتعليقات

(١) قائد تركى (أو فارسى) الأصل، خدم المأمون ثم المعتصم، وكان له دور مرموق فى إخماد ثورة بابك الخرمى، وهو الذى ساق هذا الثائر مكبلا بالحديد إلى سامرا، غير أنه لم يلبث أن اتهم بالزندقة وسجن ثم قتل.

ولأبى تمام مدائح فيه، وله كذلك بعض قصائد يصم فيها الأفشين بأقبح النعوت.

(٢) المراد به عمورى أو (أمورى) ملك بيت المقدس.

(٣) تشير بعض المصادر إلى أن ابن مصال كان واليا على إقليم الإسكندرية والبحيرة معا، ولا يستبعد أن يكون قد تمركز فترة فى رشيد ليجمع فيها رجاله وينظم صفوفه قبل أن يسير لدمياط.

(٤) انظر فى ذلك كتاب د. أحمد أحمد بدوى عن «صلاح الدين الأيوبى بين شعراء عصره وكتابه»، والحق أن المصادر المعتمدة مثل «مسالك الابصار» «ووفيات الأعيان» لا تدع مجالا للشك فى أن ابن قلاقس قد مدح صلاح الدين غير أننا لا نملك قصيدة واحدة خالصة فيه، وكل الذى بين أيدينا مدائح موجهة فى العاهل الأيوبى وفى ابن مصال معا.

(٥) يقول د. بدوى فى دراسته عن ابن قلاقس (المنشورة بمجلة الرسالة):

«وإذا قرأت شعر ابن قلاقس فى مدح القاضى الفاضل لحظت فيه تأنقا واجتهادا فى استعمال المحسنات اللفظية، ولا غرو فالقاضى الفاضل زعيم طريقة عرفت به وعرف بها، هى طريقة الجمال والتزيين اللفظى، فكان من حسن الذوق أن يجتهد مادحه فى السير على نهجه واتباع مذهبه لان فى ذلك اذاعة لطريقة

يريد أن يذيعها . ويقول إن أول قصيدة قالها هى التى أولها :

ما ضر هذا الريم ألا يريم لو كان يرثى لسليم سليم

ولو صدق هذا الاستنتاج لجاز لنا القول بأن هذه المدحة قيلت بعد عودة شاعرنا من صقلية لأن القاضى الفاضل وإن كان قد عد من المبرزين من قبل ، إلا أن منزلته لم تصل إلى ذروتها إلا فى ظل صلاح الدين بن أيوب .

الفصل الخامس

الرحلة اليمنية

بلغ النفوذ الفاطمى باليمن (١) أوج خطره فى منتصف القرن الخامس الهجرى عندما تمكن على بن محمد الصليحى من أن يبسط سلطانه على عدد من مدن اليمن وقلاعها الحصينة ، واستطاع بالقهر والترغيب أن يعيد للدعوة الإسماعيلية شيئا من مجدها القديم ، وأن يقيم الخطبة للخليفة الفاطمى المستنصر باليمن ثم هيمن على الحجاز وقطع الخطبة عن بنى العباس فى كل من مكة والمدينة .

وقد اغتيل الصليحى سنة ٤٥٩ وهو فى طريقه لأداء فريضة الحج وخلفه ابنه المكرم أحمد ، الذى خلع عليه المستنصر لقب « أمير الأمراء » وغير ذلك من الألقاب ، ولم يكن للمكرم ما كان لأبيه من الدهاء والحنكة غير أنه استطاع أن يبقى اليمن تحت حوزة الفاطميين، وقضى على سعيد الأحول بن نجاح الذى كان قد أوقع بأبيه ، وكانت له الكلمة المسموعة بالحجاز وعمان وغيرها من أصقاع الجزيرة العربية .

ومما ساعد المكرم على توطيد نفوذه زوجته « السيدة الحرة الصليحية » وكانت ذات طموح وحزم وتدبير ، ولما توفى زوجها سنة ٤٨٤ ﻫ سعت لدى المستنصر حتى عينت ابنها (عبد المستنصر) خلفا لأبيه (وكان المكرم قد أوصى بأن يخلفه ابن عمه أبو حمير سبأ بن أحمد المظفر) ، ودبت على أثر ذلك سلسلة من المنازعات ولم يلبث عبد المستنصر أن توفى ، وتطلع أبو حمير سبأ مرة أخرى لتولى زمام الأمور ، واستوجب ذلك أن يتدخل الخليفة الفاطمى نفسه للتوفيق بين أنصاره،

وانتهى الموقف بأن تزوج أبو حمير من السيدة الحرة واقتسما السلطة فيما بينهما ، وبقيت هي إلى أن توفيت (سنة ٥٣٢ هـ) مرهوبة الجانب نافذة الكلمة .

أما آل زريع — الذين سيبرزون في عدن خلال الحقبة الأخيرة من ملك الفاطميين هناك — فيعود أمرهم إلى فترة علي بن محمد الصليحي إذ كان جدهم عباس بن المكرم قد عاضده في نشر الدعوة للفاطميين ، كما عاضد ولده المكرم من بعد ، وحين انقسمت صفوف الفاطميين إلى حافظية (نسبة للحافظ الذي نصب نفسه خليفة على أثر مصرع الخليفة الآمر — سنة ٥٢٤ هـ) وطيبية (نسبة لولد للآمر اسمه الطيب — وكان الأحق بالخلافة ، وفقا لنظام الفاطميين) وانحازت السيدة الحرة إلى جانب أنصار الطيب ، فبادر الخليفة الحافظ إلى الاستعانة بآل زريع ليكونوا دعاة هناك ، وخلع على محمد بن سبأ الزريعي لقب « الداعي المعظم المتوج المكنى بسيف أمير المؤمنين » وعقب موت السيدة الحرة عظم شأن آل زريع خاصة بعد أن اشتروا قلاع الصليحيين سنة ٥٤٧ هـ .

ويشير بعض المؤرخين إلى دور أبي الندا بلال بن جرير المحمدي في توطيد الأمر لآل زريع ، وفي هذا الصدد يذكر ابن المجاور في « صفة بلاد اليمن » خبر تسيير بلال الجيش أعاد محمد بن سبأ لليمن ، وكيف أنه أكرمه وأعلى منزلته واستحلف له الناس ، وزوجه بلال ابنته وجهزه في جيش فحاصر أنيسا ويحيى العامل بالدملوة فملكها وأطاعته البلاد كافة ، وبعد موت الداعي ابن سبأ آل امر الدعوة لابنه عمران بن محمد ، ولما توفي هذا (سنة ستين وخمسمائة) أصبحت الزعامة من الناحية الاسمية ، في ولديه محمد وأبي السعود (٢) ، وأما من الناحية الفعلية فإن الذي كان يسوس عدن وما جاورها هو بلال بن جرير وولداه مدافع وياسر ، وفي عهد ياسر بن بلال فتح الأيوبيون اليمن ، وكان على رأس الحملة

توران شاه الشقيق الأكبر لصلاح الدين ، وانتهت بهذا الفتح السيطرة الشيعية على عدن .

والملحوظ أن معظم المصادر المتصلة بهذه الفترة يتحدث عن ياسر بن بلال (٣) فى شىء من التقدير ، وفيما يبدو أن كان ينهج نهجا يجمع بين الحزم والعدل وفيه يقول عمارة اليمنى قصيدته :

أدركت أوطارا من الأعداء ، وملكت من عدن إلى صنعاء

وكان صاحب ديوان الانشاء على عهد ياسر بن بلال هو ابو بكر بن احمد العيدى (ابو العتيق ، فخر الدين)(٥) ، وهو أحد الشخصيات الأدبية الهامة فى عصره ، وقد شغل هذا المنصب منذ أيام الداعى عمران بن زريع ، ويشير صاحب « طبقات فقهاء اليمن » إلى أن هذا الداعى أمر بأن « من دخل دار الشيخ الأديب — يعنى العيدى — فهو آمن » ، ومن المصادر ما ينعته بالوزير .

والصلة بين العيدى وابن قلاقس قديمة ، تعود إلى سنة ٥٥٦ ، فى هذه السنة يرسل الشاعر الإسكندرى إليه قصيدة يقول فيها :

بكرت لتصحك يا أبا بكر ، غربية من مشرق الفكر
قطعت إليك البر حاملة ، فيها فنون عجائب السحر
من صاحب لك لو بصرت به ، لعجبت من خبر ومن خبر
لو حلقت يوما قوادمه ، لم يرض عند سواك من وكر

ويشير فى هذه القصيدة إلى شاعر من جزيرة دهلك يدعى الكمكى(٤) سطا على مدائحه وذهب بها إلى العيدى طمعا فى نيل عطاء لا يستحقه ، ويرسم صورة ساخرة للكمكى ولجرأته على الإنتحال فهو :

أعيى زهيرا كم ينازعه (لمن الديار بقنة الحجر)
وثنى (قفانبك) التى اشتهرت تبكى قرائصها من الذعر
واضيعتا للنظـــام يملكه دعوى ، ووا أسفا على النثر
حبرت ماحبرت من مدح فاحتـازها بصـورام الحبر
وكسونها زيدا فجرده منها وأفرغه على عمرو !

ولا ينسى شاعرنا فى النهاية أن يبين منزلته ويفخر بدربته فى النظم ، وبعلو كعبه فى نسج برود المديح :

ومحاسن لو أنصفت كتبت بيد الدجى فى صفحة الفجر
رقت وراقت فهى جامعة بين الغـدير ورونق الزهر

وإذا فرضنا أن تاريخ القصيدة سنة ٥٥٦ بالفعل ، فإنها تكون قد كتبت قبل أن يرحل الشاعر لليمن بنحو تسع سنوات ، ويظل الغموض قائما حول الظروف التى تمت فيها هذه الصلة بين الشاعر السكندرى وبين الشيخ العدنى ، ونحن لا نستبعد أن يكون هناك خطأ ما فى التاريخ الذى مر ، وليس ببعيد أن يكون التاريخ الصحيح هو سنة ٥٦٥ ، ففى غضون هذه السنة سافر الشاعر لليمن، ولم يذكر أى مصدر معروف شيئا بالمرة عن رحلة للشاعر هناك قبل ذلك .

والشىء الثابت أن ابن قلاقس تشاور فى أمر رحلته إلى عدن مع الشاعر المؤرخ عمارة اليمنى فوجد من جانبه تحبيذا وتعضيدا ، ولا ننسى أن عمارة كان قد قصد فى أيام شبابه ابا بكر العيدى فأعانه وشد من ازره ، وكان العيدى حفيا بالادباء دؤوبا على وصلهم ورعاية جانبهم .

ولدينا نص رسالة بعث بها شاعرنا الإسكندرى من عيذاب إلى العيدى ، يقول فيها :

« وقد كنت أعد النفس بملاقاة الحضرة فتقتضيني وتمضيني ، ... حتى نشطت من عقدة الكسل ، وخرجت من عهدة الفشل ، وعزمت على مقارعة الدهر ، وقلت : من يخطب الحسناء يغل فى المهر ، على أنى عرضت عليها السير وإزعاجه ، والقفر ومنهاجه ، والبحر وأمواجه ، والريح وأفواجه ،فأبت إلا البدار . . وما زال المولى الفقيه الرشيد نجم الدين عمارة بن أبى الحسن الحكمى يختصر لى قرآن محامد الحضرة فى سورة ، ويجمع لى العالم منها فى صورة ، حتى رأى السفر وآلاته ، والسير وحركاته ، فقال : قبلت الدلالة ، ووردت الضالة ، إنك تظهر إلى الحال التى ما بعدها مظهر فأثار الدفين ، وزعزع السفين.. وقد علمت الحضرة أن السفر إليها ، فليكن السكون والسكنى مضمونا لديها .. »

وهكذا بدأ شاعرنا رحلة جديدة عبر البحر الأحمر هذه المرة ، حتى انتهى به التسيار إلى عدن ، وفى الديوان قصيدة تسبقها عبارة تقول : « وقال عندوصوله إلى عدن فى الشيخ ياسر بن بلال المحمدى ، وصنعها على اقتراح ، بديهة» فهل هذه أول مدائحه ن ابن بلال ؟

أما القصيدة فمطلعها :

إليك من ملك سام ومن ملك   كانت لنا الفلك مرقاة إلى الفلك

ومنها فى مدح ياسر :

والملك شمس ولولا ياسر أخذت   ـ كما أدلك ـ تلك الشمس فى الدلك
هـذا هو العروة الوثقى لمسكها   عز فلا انفصمت فى كف ممتسك

وهذه القصيدة ـــ وتبلغ ثلاثة وثلاثين بيتا ـــ لاتعد من بين أعماله المنتقاة ، ولكنها ، إن صح أنها قيلت بديهة ، دلت على سرعة ملكة فى الإرتجال وبصر بموقع الكلام على نحو قل له النظير .

وهناك قصائد أخرى عديدة فى ياسر بن بلال ، منها مدحته :

هى دولة موصولة الإقبال   محفوفة بترادف الآجـــلال

وأخرى مستهلها :

لم ترض أنى قد حرمت وصالها   حتى حمتنى فى المنام خيالها

ومن أجمل ابياتها فى المديح :

ملك إذا حفيت سنابك خيله   جعل الرؤوس من الملوك نعالها
لو كان يخلق للمـكارم والعـلا   باع لـكان يمينها وشمالها

وله مدحة أخرى فى ياسر مطلعها :

لو حل فى خديه عقد لثامه   نقل الهلال إلى صفات تمامه

وكذلك مدحته :

أحكم على الثقلين الإنس والجان   فأنت أقوم بالملك السليمانى

وواحدة تبدأ بـ :

أنا من جوارك فى أعز مكان   ومن اصطناعك فى منى وأمان

ومن البديهى أن يحظى ياسر بن بلال بالنصيب الأكبر من اهتمام الشاعر ، وأن يعرج من حين لآخر على غيره من رجالات اليمن، ومن هؤلاء ولدى الداعى عمران وهما محمد وأبوالسعود وكانت لهما — كما ألمعنا — السيادة الإسمية ، أما السلطة الفعلية فكانت فى يد ياسر، ولدينا فى الديوان قصيدة تسبقها عبارة تقول : « وقال فى الأميرين ولدى الداعى بعدن ، عمران بن سبأ ، وهى أول ما أنشدهما » ولعل الشاعر ، وقد وصل إلى المدينة ، يمم أول ما يمم صوب قصر ابن بلال

ومدحه ، أما قصائده فى ابنى عمران (٦) فلم تنتظم إلا بعد ذلك وقصيدته . الأولى هذه أولها :

منتاب مصركما بالرفد مغمور   وباب قصركما بالوفد معمور

ومن أبياتها :

الله أكبر لم أنطق بمبدعة   فشأن من نظر الأقوام تكبير
الحمد لله زالت كل داجية   عنا وبالصبح تنجاب الدياجير
أمر الأميرين عند الدهر ممتثل   فالدهر كالعبد منهى ومأمور

ولا ينسى ان يعرج على ياسر بن بلال فيرفعه إلى أعلى منزلة ، وكأن كل ما سبق من حديث فى آل زريع إنما هو تمهيد لا ينبغى الاكتفاء به وحده .

ويقول فى صدر قصيدة أخرى مدح بها ابنى عمران :

سعود سفيكما كملت سناء   فعند الانتهاء الابتداء

ومن أبياتها :

أمنا فى فنائكم الليالى   فلا طرق الفناء لكم فناء
وأحرزنا الغنى بندا أكف   كفت من رام سقياه العناء
سحائبها إذا نشأت بأفق   جرت ديما تدفق أو دماء
فطورا فى العدو تشب نارا   وطورا فى الولى تسح ماء

ولا يفوته فى هذه القصيدة كذلك أن يتغنى بما لياسر بن بلال من سطوة وعظيم شأن :

تقدم ياسر منهم إماما   ولولاه لما ركبوا وراء
مطاع الأمر تقضى مرهفاه   وهل أبصرت من رد القضاء ؟
وكم زرنا من الأملاك لكن   تلت أفعالهم ليسوا سواء

ومن مدائحه الأخرى فى آل زريع القصيدة التى منها :

مامر فى التنزيل فضل أول   إلا ومعناه لكم يتــأول
أما الملوك فإنها خول لكم   حقا وإن عظم الذى قد خولوا

وأخرى مطلعها :

نثرن عليه من صدف الخيام   لآلىء يفسلان من النظام

والمقطع الغزلى فيها مفعم بالعذوبة والرقة ، حيث نرى وصفا لهؤلاء البدويات الحسان اللاتى رفعن البراقع عن وجوه وتوارى البدر منها فى الظلام :

وحى من كنانة قد رمونى   بما حوت الكنانة من سهام
إذا انتضلوا وماثعل ابوهم   اتوك بكل رامية ورام
وكل بين جانحتيه قلب   له خفقان اجنحه الحمام
وتحت يدى إذا ضمت لصدرى   كلوم لا يقوم بها كلامى

وفى القصيدة وصف للترحال وما فيه من تعرض للاهوال والصعاب ، لكن الشاعر يمضى نحو هدفه لا يثنيه شىء :

وهاهو فوق لج الليل طاف   كأنجمه ولج الليل طام
يحاول أن يشق بمكنبيه   إلى البدرين اجنحة الظلام

وأما البدران فانها بطبيعة الحال ، ابنا الداعى ، غير انهما — فى هذه المرة كذلك — لا يذكوان إلا لكى يذكر وزيرهما ياسر بن بلال :

وهاهو شاعرنا ، وقد استطاب المقام بعدن ، يبعث منها برسالة إلى صاحب له فى مصر هو القاضى الأشرف ابن الحباب ، يقول فيها :

« .. كأنى (بسيدنا القاضى) يقول : مثل هذا البائس فى الاغتراب مثل

الغراب رأى خطوة الداجن فاستحسنها ، ورامها فما أحسنها ، وعاد وقد خسى وطلب المشية الأولى فنسى ، فهو بقيد بخجل ، كلما رام النهوض حجل ، ألم يكن فى كنفنا السعيد، يبدى ويعيد، ولا ينظر إلا من بعيد ، ينفصل من القلم والقرطاس إلى الجام والكاس ، ويتصل من المجالس الشارعة ، إلى المجالس الصارعة ، كأس وكيس، وأعطاف تميس، وكوب ومركوب، فلم يزل به البطر حتى ركب الخطر .. ظن أن بينه وبين البحار شجارا والدمن سفارة وأسفارا ، إن الهوى لغشاء البصيرة .. أما أنا فقمت فما رمت ، فاجتنيت واجتليت واختليت ، . . ويكفى سيدنا ، أنى وطئت من اليمن عتبة صارت مرتبة ، وذلك أنى نزلت من الشيخ السعيد ياسر بن بلال ، ملكا صلاته كصلاته ، تلك يبيض بها وجه الليل ، وهذه يسود بها وجه الليل . . وناهيك بملك أنا شاعره المفحم . . ، ويمضى فى رسالته على هذا النحو غير أن طيف الإسكندرية لا يلبث أن ينتزعه مما هو فيه ، وصور مراتع الصبا تتابع أمام مخيلته فيهتف مرددا قول الشاعر :

أحب بلاد الله ما بين منعج إلى وسلمى ان تلوح هضابها
بلاد بها نيطت على تمائمى (٧) وأول أرض مس جلدى ترابها

ونراه يورد فى رسالة أخرى بعض أبيات له يصف فيها رحلاته فى مشارق الارض ومغاربها :

بالثغر يوما ويوما فى صقلية ومصر يوما ويوما فى ربى عدن
برا وبحرا تجرى بذاك وذا موارة البزل أو موارة السفن
كأنما أناسهم والفلا غرض والبين قوس وراميها يد الزمن

والذى نظنه أن شاعرنا رجع إلى وطنه غير انه لم يطل المكث فيه ، وسرعان ما سنراه يكر عائدا من جديد إلى عدن ، فها هو يقول فى رسالة له بعث بها إلى بعض اصحابه فى الاسكندرية :

« .. وما زالت والإسكندرية قرار رسائلي ومدار مسائلي ، امسح بيد الأمل أعطاف الشوق الجامحة ، وأسكن بأنامل المنى أجفان الشوق الطامحة ، .. والأيام تدب بما لا أحب وتأتى بما لا يواتى ، حتى اتفقت سفرة ركبت سنامها ، وسلبت منامها وأرخيت زمامها ، وتوخيت إمامها ، وشممت بقوص فى ذلك التراب رائحة الاقتراب ، فجالت العرب والعراب . والحروب والحراب ، وكان من مسيرى إلى اليمن وعودى ما قوم أودى ، وأثبت طودى ، وأبقل جودى ، وضاعف ذودى ولم يبق الآن إلا دارها ومدارها وجاهها واتجاهها إن شاء الله من ثغر عيذاب . »

وفى غضون سنة ست وستين وستمائة يقوم الشاعر برحلة بقصد التجارة ، ولكن التوفيق لا يحالفه ، ولنتركه يروى لنا ما حدث ، نقلا عن رسالة بعث بها إلى ابى بكر العيدى : « . . كنت قد سلفت من التجار برا بجملة ، واشتريت به من العبيد ، وعولت على قطع البيد إلى زبيد . . وأدخل من هناك إلى عدن اليمن ، أشترى جلبة (أى سفينة) لطيفة بمقدار حملى » . . لقد هجر الشعر اذن إلى حين وتفرغ للتجارة بيعا وشراءا ، ولكن من هم «العبيد» الذين اشار اليهم ؟ إن الذى نرجحه أنه سار حتى وصل إلى السواحل الشرقية لإفريقية ، جهة مصوع وأسمرة وهناك باع بضاعته واشترى بثمنها أحمالا من الفلفل والتوابل والعطور ونحو ذلك ، ثم مضى بقصد العودة إلى اليمن ، غير أن السفينة جنحت به ، وتبدد ماكان معه ، ولنتركه يتابع بسط الذى حدث ، مخاطبا العيدى .

« .. من جانب الصخرة بنخرة (٨) ، وليست صخرة الكليم موسى بل الكليم يوسى . . . شوقى إلى تقبيل تلك اليد الكريمة واستقبال تلك الغرة الوسيمة يكاثر الفلفل المبدد فى السواحل ، والبقم المفرق فى المراحل ، فان ذلك تزيد على الرحل

أعداده ، وهذا تفضل عن الشجر أعواده ، . ومازالت تترامى بنا الأفواج والأمواج ، حتى استأثرت بأموالنا وآمالنا ، فلم تفضل فضلة ، ولا عدلت عن عدل ، ولا سرت بصرة ،.. قد سلم الثلث والثلث كثير ،وحصلنا بجزيرة دهلك (٩) والسلطان المالك بن أبي السداد (١٠) مطلب القاصد عند اعتراض المهالك ، لاجرم أنه ساعدني بالبرء والبر وأصناف البر .. »

اضطر ابن قلاقس إذن إلى اللجوء لجزيرة دهلك وسلطانها ، ولم يكن في تلك الجزيرة المجدبة ما يعزيه عن فقدان تجارته وضياع آماله ، وها نحن نراه يقول في رسالة أخرى :

« .. لما عطبت الجلبة ، وحصلت السلامة واتصلت الملامة ، وفل سبا الفلفل ، وقال الموج مالك مالك ،أما تاجر البضائع ضائع ،وأما اكثر الأعدال الأعدال. إما بنقطة من البحر على الصرة تصير ضرة ، نعم حصلت من المسك على المسك ، ونزلت على أم العنبر فلعنت البحر مع البر ، ولم أصل من العود إلى عود ، وأما البرد فكم بيني و بينها من بريد ، وما ارتد وما اريد . »

ومما ضاعف من محنته أن جانبا من قصائد عدت عليه الأمواج فيما عدت ، وفي هذا الصدد يقول « .. كانت معي كتب كتب البحر عليها المحو ، فلا شعر ولا لغة ولا نحو ،لم يسلم سوى ديوان شعر ابن الهبارية ، بعد أخذه من البلل بقسطي النهل . . ضاع شعري كله ، وانحط عن متن نظري فيه كله ، فقد كنت لا أخلو من إصلاح فاسد ، ومداراة حاسد .. »

ونراه يقول في قصيدة أرسلها من جزيرة دهلك إلى الشيخ ابن الحسن علي ابن ابي الكتائب (١١) يودين :

لو أن فى قلبى قوى كلمى | نابت يدى لى عن حديث فمى
ولكنت تبصر كل منسكب | يسرى إليك وكل مضطرم
وشرقت بالملح الأجاج فما | أنسيت شكر البارد الشيم
واضيعتاه خرجت من عرب | واضيعتاه دخلت فى عجم
وبضاعتى نطق وأكسدها | بيع الكلام على ذوى الصمم

ثم يمضى واصفا مالاقاه من أهوال ، وما يعتمل فى نفسه من ندم على فراق أرض عدن وحلوله عند قوم « كلامهم عجمة ووجوههم مدلهمة » .. وإذ يوشك ان يصل إلى خاتمة المطاف يطلب أن يذكر لياسر بن بلال ما حل به ، ويستدير إلى ولى نعمته فيستصرخه :

يا ياسر بن بلال انتقمت | منى صروف الدهر فانتقم

ويصور صنيع البحر به وكيف تبددت ثروته فيه :

أعطيتنى ما قام يأخذه | منى ، وظنك فيه لم يقم
كم صارخ منا وملتطم | فى زاخر منه وملتطم
مالى رميت بكل عاصفة | أنا لست من عاد ولا إرم
وعلى ابتدائى ذا الحديث جرى | ياليت شعرى كيف تختتمى

ومن الطبيعى ان يصوغ الشاعر المدائح فى مالك بن ابى السداد ، سلطان جزيرة دهلك ، ومما قاله فى قصيدته :

أرابه البان اذ لم يقض آرابا | فارتد ناظره المرتاد مرتابا

وواحدة أخرى مطلعها (١٢) :

قفا فاسألا منى زفيرا وأدمعا | أكانا لهم إلا مصيفا ومربعا

وفيها يقول :

ولولا صفات المالك الملك والعلا ... تنوعت فى أوصافه ما تنوعا
أفاض أبو الفياض فى نـواله ... ووسعت قولى فى نداه فوسعا
ركبت إليه زاخر اللج طاميا ... وعاصفة الهبات نكباء زعزعا
وصغت له تاج المديح ولم أكن ... لأتركه حتى يكون مرصعا
فإن قلت : زرنا أكرم الناس راعنا ... بفتكاته ، حتى نقول : وأشجعا
ومازالت زوار الملوك مبجلا ... لديها عزيزا عندها مترفعا
يمج به شهد المدائـح منطقى ... وينفث فى أعدائها السم منقعا

ومدحه فى نفس السنة (٥٦٦) بقوله :

آيات مجدك لم تزل تتلى ... وصفات جدك لم تكن تبلى
لا مثل سؤدده فإن طلبوا ... فأبو السداد ولم تجد مثلا .
فليهن أهلى إذ عدمتهم ... إنى وجدت بدهلك أهلا !

وله فيه مدحة (١٣) مستهلها :

الناس دونك كلهم أكفاء ... لك بالكمال عليهم إيفاء

ويشير فى بعض أبياتها إلى رغبته فى الرحيل عن دهلك :

ما أنت والبدر المنير وإن غدا ... ملء العيون وراقهن سواء
للبدر فى العرض الضياء وأنت قد ... جمعت بجوهر ذاتك الأشياء
ماضر من لبس السواد بجسمه ... ووراءه نفس لـه بيضاء
وأشاء إذنك فى الرحيل فإننى ... أسرى وشكرى فيك كيف تشاء .
هذا مقام المستجير ولم يخب ... للمستجير لديك قط رجاء .

إلا أن ابن ابى السداد يحتجز الشاعر فترة من الزمن ، ويعده بالموافقة على

رحيله ولكنه يماطله ، ثم يعلن له أنه سيأذن له بالرحيل « عند عود رسوله من بر العرب ، الأمر الذى قد اضطرب فلا اقترب ، وحصول العلم عنده بمستقر عدوه ومستودعه من جوه ودوه .. »

وكان ابن أبى السداد يتوقع هجوما على بلاده من قبل بعض الأمراء الأحباش، ولذا بادر بإرسال رسوله إلى اليمن، واحتجز ابن قلاقس عنده ليرد له على المراسلات التى سوف يحملها رسوله معه ، وفى « الترسل » ثلاث رسائل كتبها شاعرنا على لسان ابن أبى السداد ، الأولى تتصدرها عبارة تقول : « وكتب عن السلطان المالك ابن الفياض ، ابن أبى السداد ، وقد وصله الخبر بأن أبا حربة بن فخراى الحبشى دخل إلى الأمير قاسم ، واستقدمه على أبى الفياض المذكور ، وأن وعدا تقدم من الأمير المذكور له ، وذمة عقدت بينهما » والثانية كتبت إلى « القاسم ابن أبى الغنائم بن وهاس الحسنى صاحب بلاد عثر بين الحجاز واليمن » وأما الثالثة فأرسلت إلى السيد عبد النبى بن مهدى صاحب زبيد ، وكان ابن أبى السداد يدين له بالطاعة : ويكتب له بلفظ « المملوك » .

ونجد فضلا عن هذه الرسائل الثلاث ، رسالة ديوانية تتصدرها عبارة تقول : « نسخة كتاب سلطانى ، بعد التصدير » ، فيها :

« المملوك يقبل البساط الشريف ، وينهى أنه لما أنجد الله الإسلام بعزائمه الماضية ، وأحكامه القاضية ، وأفعاله التى كل فرقة من الامة الحنيفية عليها راضية ، وعساكره التى ملأت البسيطة دما والجو نقعا ولم تأل فى بلاد المشركين — دمرها الله — ضرا ، وفى بلاد المسلمين — عمرها الله — نفعا ، ... ولما كان فى هذه المدة حدث بالجانب المتملك عليه البليني من خرق حرمة الاسلام وهدم مساجده ، وإلجاء من فيه من الموحدين إلى دين النصرانية ، ومنع الوصول إلى السواحل ،

بما كانت العادة لم تزل جارية به من الغلال وغيرها من الأطعمة ، كل ذلك برأى المطران الواصل اليها من الديار المصرية ، حماها الله ، هذا ولم يخرج المطران المذكور عن تلك الديار إلا بعد أخذ المواثيق عليه من البطرك (١٤) بأن لا يحدث حادثا من إلجاء المسلمين إلى التنصر ولا يهدم مسجدا ، ولا يخرج عن الطريق المعهودة من مثله ، وهذا الأمر يحرم الكارم المصرى السعيد النزوح إلى بر من السواحل .. والرغبة إلى المجلس السامى ، أدام الله ملكه ، وجعل المملوك ملكه ، أمره المطاع إلى البطرك المقيم بظله الشريف بتنفيذ مطران ثان عوضا عن (هذا) المطران ، وأن يكون طريقه على ثغر دهلك ... والمملوك يسأل المراحم العالية فى تقويته على ما هو موقوف بصدده .. »

وقد وقف خير الدين الزركلى طويلا أمام هذا النص ، واستنتج منه أن الشاعر كان آنذاك « على اتصال بالسلطان فى مصر » أى بصلاح الدين الأيوبى وأكد أنه « يستفاد من الجملة الأخيرة معنى كبير قد يجعل رحلاته كلها لمصلحة السلطان .. (١٥) أما نحن فنؤثر التحفظ ولا نمضى فى الاستنتاج إلى هذا الحد ، والذى نرجحه أن الشاعر كتب هذه الرسالة على لسان سلطان دهلك مالك بن أبى السداد ، وكان يدين بالولاء للفاطميين من جانب ولعبد النبى بن مهدى من جانب آخر .

وتمدنا مجموعة « ترسل » الشاعر ببعض المناحى الطريفة عن الحياة فى «دهلك» كما نعلم منها أنه لم يكن منقطع الصلة بما يدور فى مصر من أحداث ، يدلنا على ذلك قوله فى رسالة له « ووردت كتب متضمنة جملة من الأخبار المصرية ، منها أن السلطان الاجل صلاح الدين ، خلد الله ملكه وجعل الارض ملكه ، غزا غزة ، من بلاد الفرنج — خذ لهم الله — ، وكسر وأسر وعاد غانما ، والحمد لله رب العالمين ، ورفع المكوس ، وإلى الله تعالى له بالدعاء الايادى والرؤوس ،

وجعل دار الشحنة بمصر مدرسة للعلم ، واستنبط من حرارة اليأس ظل الدعة والسلم » .

وكانت له بدملك مداعبات ومناظرات أدبية فمن ذلك ماقاله يجاوب بعض أصحابه هناك :

قد فزت من نثر الكلام ونظمه   ما استصغر الدر النثير لعظمه

وله يهجو رفاق السفر :

وصحبة قوم لو يقاس أجلهم   إلى الكلب كان الكلب أعلى وأرأسا

والتحم فى تلك الجزيرة النائية مع « رجل غزال » لايسميه ، ولندعه يصف لنا ما وقع ، وكان ذلك بمحضر من « الفقيه ابى محمد عبد الله بن الحسن التميمى المعروف بابن زنخت » .

« . . وطالت المخاصمة فانتظمها الفقيه بقصيدة أوردها لنتكلم عن معانيها أولها :

أخلى قصد عن الحميم فما اختلى   ورأى الحمـــام يغصه فتوشلا

فقلت : حسبك تكلم ونسمع ، أو اسمع ونتكلم ، فأساء الادب ، وأخذ يقسم بالله لقد يدرى من النحو مالا يقوم الاخفشان به . فخفضت له الصوت حتى انقطع هوسه ، وقلت : إنما الكلام على المعانى ، والواجب النظر فى لغة البيت لنتحصل معناه ، وحينئذ يكسى من النحو ما يستحق من فتحة ونصبه فى موضعها ، فقال : هذه جمجمة .. ، وحينئذ بنبرى له فيورد حديثا طويلا عن مواضع الحركة وعلل النحو ، وحديثه هذا يأتى مرسلا لا سجع فيه ولا تعقيد .

ويمضى فى نفس الرسالة يهجو شاعرين هناك هما « عمر الطلا » و « أحمد

الكمكى » ويسوق بعض ارتجالاته ومداعباته ، إلا أن ذلك كله لم يجده شيئا ، وسرعان ما تملىء نفسه باليأس والسأم ، ولا يلبث أن يكتب لبعض أصحابه يصف له ما فيه من ضيق .

« . . وناهيك أنى فى جزيرة دهلك على حالة لا تستقر حلاها ، تقول ثرياها إذا ما رأتنى ولو قلت فى الحق قلت ثراها ، ولولا أن يعثر القلم لجرى وجر وسرى وما سر ، فقد امتلأت المسامع بسوف وعلمت المطامع أنها بوادى عوف :

وكنت أمنع بيع الشعر فى زمن　　أقل ما يتساوى فيه بالذهب

فصرت أصرفه بالبخس فى زمن　　يرد أكثره فى الماء والحطب »

والذى يرجح أن مالك بن أبى السداد كان يستعد آنذاك للحرب وكانت المصاعب تحيط به من كل جانب ، ونرى الشاعر يقدر له ما يوليه إياه من عناية ويقول : « . . اللهم الغفران ولا كفران ، بى من السلطان المالك أكبر آية من العناية ، يقاسمنى فى الدرة بل الذرة . . . » غير أن هذه الرعاية لا تزيل عنه أحاسيس الكآبه ، وها هو يصرخ :

حيل بينى وبين من أنا أهوى　　آه لو فرج التأوه بلوى

ثم يؤذن الله بالخلاص وتحين ساعة الرحيل عن دهلك بعد أن قضى فيها زهاء ستة أشهر ، وحينئذ يشعر بشعر بإحساس السجين يغادر محبسه وينظم :

وأقبح بدهلك من بلدة　　فكل امرىء حلها هالك

كفاك دليلا على أنها　　جحيم وخازنها « مالك » !

حتى إذا ما وصلت به السفين إلى ميناء عدن (١٦) ، مضى نحو قصر وزيرها ياسر بن بلال ، وأنشده قصيدة من غرر أعماله ، صور فيها قصة رحيله وعطب سفينته واضطراره للمقام فى دهلك ، وختمها بالمديح ، والقصيدة مطلعها :

صدرنا وقد نادى السماح بنا ردوا   فعدنا إلى مغناك والعود أحمد

ومن أبياتها :

فيا أيها البحر الذى من هباته   أعدد فيا أنتقى وأعدد
أجرنى من البحر الذى أنا صارم   أجرد من مالى به حيث أغمد
طوانى بسحب الموج تحت سمائه   على أننى يا أيها الشمس فرقد
وحاول إطفائى وإنى لجمرة   يكاد بنارى ماؤه يتوقد
وقيدت فى أرض كأن رسومها   تمشى عليها الدهر وهو مقيد
أقمت بها فى الضيق ستة أشهر   وذاك أقل الحمل ، واليوم مولد
دعوت بصوت الجود حى على الندا   لانك تروى عن بلال وتسند

وتتوالى مدائحه فى ياسر بن بلال ، ويبدع فى كثير منها ويتعسف فى بعضها كما فعل فى ضاديته :

أجل اللهو خمرة فى بياض   بين آت من السرور وماضى

ويعوضه ممدوحه عن خسارته وضياع تجارته ، ولا يكون أمام الشاعر بعد ذلك إلا أن يتأهب للعودة لوطنه ، وهكذا ينظم طائفة من قصائد التوديع ، من بينها قصيدته :

نزلوا فادعوا نزال نزال   بعد ميلى عن حربهم واعتزالى

وقد أنشدها فى موضع يعرف بشعب ، ومن أفضل أبياتها قوله فى إظهار ما له من فضل وما اكتسبه فى حياته من تجارب :

أين أمثال ما أقول ولفظى   بات يقتاد سائر الأمثال ؟
أنا مالى وللبخيل وعندى   فكرة قد جعلتها رأس مالى
شرفى جاوز الغنى ومن العا   رض ما انحط عن رؤوس الجبال

إن تريني على الثلاثين أرقى　　من حضيض الصبا إلى الاكهال
فلقد كنت فى الشيوخ زمانا　　كنت فى عصره الأطفال

ثم يصل إلى المديح وينفلت منه إلى الحديث عن الرحيل المرتقب :

كم نذرت الرحال عندك فلازا　　ل محل الندى محط الرحال
والق شكرى بما عهدت من التر　　حال من قبل حادث الترحال

ويمدحه بأخرى مطلعها :

صاحبت فى سفرى الك الآمالا　　فأعدتنى وأعدتها أموالا

وفيها يشير إلى أسفاره وما حل به من أهوال :

وسريت نحو علاك بدرا كاملا　　حتى انثنيت من الصخور هلالا
والشهم مثلى من يسير مهجرا　　ومهاجرا يتقيل الأقيـــالا

ومن أشهر قصائده فى وداع ياسر بن بلال قصيدته :

سافر إذا حاولت قدرا　　سار الهـــلال فصار بدرا

والحق أنها قصيدة مفعمة بالحيوية والتعبير المتقن والمعانى الأسرة ، انسابت أبياتها طورا تعنف وتحتد وطورا تلين وترق ، وقد استحوذت على إعجاب القدامى كابن خلكان وغيره ، ومن أجمل أبياتها قوله يصف ما أصابه فى رحلة الحياة من كلوم وأهوال وعبر :

إما تريني شاحب الـــ　　وجنات قد ألبست طمرا
فوقائع الأيام تخـــ　　رج أهلها شعثا وغبرا
مدت إلى الأربعـــو　　ن يدا وقد قهقرت عشرا
واستحدثت فى لمـــ　　ـتى نقطا فهلاكن حبـــرا
مرت على النائبـــا　　ت تذوقنى فوجدت مرا

ومروعى بالبحر يحـــسب أنى أرتاع بحرا
أوما درى أنى بتسهيـــــل المصاعب منه أدرى ؟

ثم حانت ساعت الرحيل عن عدن . .

وقد مر بنا أن الشاعر ، وهو فى صقلية ، وصف فى قصيدة له جولته حول الجزيرة وعبر جبالها ، وعرفنا أن قصيدته الصقلية هذه تعتبر من غرر قصائده . وقد أراد أن يعيد التجربة واصفا رحلة العودة ذاكرا « المراسى موضعا موضعا» وتعنى بذلك قصيدته التى يقول فيها :

جزعت بعد إقامتى من رحلتى ليست عقود هواك بالمنحلة
تحت الشراع أبيت غير موسد إلا يدى إذبت تحت الـكلة
وأطوف فى الأقطار لا عن رغبة فى كثرة أو رغبة عن قلة
كم ضاحك حاقى وتحت ضلوعه نار تشب بأدمع منهلة
نطاق الذى خفض اللئام فلا هوى ويدى التى عبثت به لا شلت

ثم يمضى واصفا سفينته وربانها الذى بلغ الذروة فى المهارة حتى أن سيدنا نوح عليه السلام لوكان رأى دربته لشاهه ربانا لسفينته . وفى القصيدة ذكر للباب ـ ولعله باب المندب ـ ولعشرات من أسماء الموضع والمراسى المتناثرة على شواطىء البحر الأحمر ، ومن آخر ما يذكره « هلايب » ، فى أقصى الشمال الشرقى من السودان على البحر الأحمر ، ثم يرد فى البيت الأخير :

نشرت فأنشرت الشراع ولم تعق عند العيوق بمدة عن مدة

وهذا هو البيت السادس والستون منها ، ولعل لها بقية ، خاصة وأن هناك فراغا فى المخطوطة الوحيدة التى توردها يوازى مسافة ثمانية أبيات فى أعقاب البيت الذى ذكرناه .

والذى نعتقده أن الشاعر داهمته العلة فى الطريق فكتب الابيات الباقية بقلم

مرتجف وخط لا يكاد يقرأ ، أو لعل أحد رفقاء السفر كان يحفظ بقية القصيدة ثم غابت عن ذاكرته ، وأيا كان الامر فالقصيدة هى آخر ما كتب الشاعر قبيل أن يموت عند عيذاب ، على الساحل الغربى للبحر الاحمر (فى مواجهة مدينة قوص) فى الثالث من شوال سنة سبع وستين وخمسمائه ، ولما يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاما (١٧) .

مراجع وتعليقات

(١) انظر فى هذا الموضوع : « أنباء الزمن من أخبار اليمن » ليحيى بن الحسين (ط برلين ١٩٣٦) المختصر المفيد « - مخطوطة القاهرة رقم ٨٠٤٨ خ - أخبار اليمن الميمون - مخطوطة القاهرة - لابن الديبع الشيبانى ، « السلوك فى طبقات العلماء والملوك » - مصورة القاهرة رقم ٩٦٦ ، للجندى ، « صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، والمسماة تاريخ المستبصر » لابن المجاور (ط . ليدن ١٦٥٤ ، تحقيق أو سكر لو فغرين) « طبقات فقهاء اليمن » للجعدى ط . القاهرة (تحقيق فؤاد السيد) .

ومن المراجع الحديثة دراسة د . محمد جمال الدين سرور « النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب » ط . القاهرة د . حسن إبراهيم حسن « اليمن : البلاد السعيدة » - القاهرة ١٩٥٨ - والباب الثامن من كتابه « تاريخ الدولة الفاطمية » ، وكتاب د . حسين الهمدانى و د . حسن سليمان محمود « الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن » ٢٦٨ هـ - ٦٢٦ هـ (القاهرة ١٩٥٥) والملكة أروى سيدة ملوك اليمن للدكتور حسين سليمان محمود (القاهرة ١٩٥٥) .

(٢) ترك الداعى عمران ثلاثة أولاد قصرهم منصور وأبو السعود ومحمد ، غير أن ابن قلاقس فى مدائحه لا يشير إلا إلى أبى منصور وأبى السعود .

(٣) ظل السلطان فى يد ياسر بن بلال إلى أن فتح توران شاة - شقيق صلاح الدين - اليمن سنة ٥٦٩ هـ ، فانتهى بذلك حكم آل زريع نهائيا ، وانتهت الهيمنة الفاطمية عندئذ على اليمن .

وقد رعى توران شاه لياسر بن بلال قدرا من مكانته إلى أن اتهم بأنه بعث

برسالة إلى صاحب صنعاء يحرضه فيها على عصيان الأيوبيين ، وقال له (والرواية عن أبى شامة) : « بأى شىء استحققت منك ، وقد قربت منزلتك وأبقيت عليك بلادك ، ورفعت بضبعك على أهل إقليمك » وأراه الكتاب ، فلما وقف عليه ياسر حلف أنه ما كتبه . . فلم يصدق توران شاه ، وأمر به فقتل صبرا بين يديه انظر الروضتين » ١ / ٦٦٤ ، والجعدى طبقات فقهاء الدين ص ٢٢٩ ، الجندى « تاريخ اليمن » ٦٩ ظ . وابن المجاور فى « صفة بلاد اليمن » يقدم رواية أخرى عن مقتل ياسر بن بلال .

(٤) لم نعثر على ترجمة له .

(٥) انظر عنه « خريدة القصر » مخطوطة باريس رقم ٣٣٢٩، ورقة ٢٦٢ظ إلى ٢٧٥ وهى فى طبعة د. شكرى فيصل من الخريدة — قسم الشام ج ٣ ص ١٤٥ — ٢٠١ و « طبقات فقهاء اليمن » للجعدى ص ١٦٩ ، « وتاريخ اليمن » لعمارة » و « المختصر المفيد » لعمارة (مخطوطة القاهرة رقم ٨٠٤٨ ح) وأخبار اليمن الميمون « لابن الديبع ، ورقة ٣٥ « والسلوك » للجندى مصورة القاهرة « لوحة ١٥٦ ، و « صفة بلاد اليمن » لابن المجاور ، ص ٤٦ . ويرد اسمه فى بعض المصادر العيدى ، وأخذنا برواية الخريدة لأنها اوفى المصادر عنه .

(٦) فى الديوان قصيدة قالها «يعاتب فيها أبا السعود المكنى وهو المنشد لكل قصيدة ترد على داعى اليمن» مطلعها :

دون ما بيننا من الود يكفى فاحتفظ يا ابا السعود المكنى

(٧) فى « طبقات الشعراء » لابن المعتز (ط. فراج) ص ١٠٦ ، أن ابن ميادة الشاعر وفد على الوليد بن يزيد فأنشده من المدائح مادفع الخليفة

إلى استبقائه زمنا عنده ، وجاش الحنين فى صدر الشاعر فأنشده مدحة قال فيها :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ‏ ‏ بجرة ليلى حيث ربتنى أهلى
بلاد بها نيطت على تمائمى ‏ ‏ وقطعن عنى حيث أدركنى عقلى

وهل أسمعن الدهر . . . . الخ .

(٨) يلاحظ أن ابن خلكان ، فيما يرويه عن قصة انكسار سفينة الشاعر ينص على أن ذلك وقع عند « جزيرة الناموس ، بالقرب من دهلك » ، ولا يشير إلى نخرة قط (وليس فى معجم ياقوت ذكر لا لهذه ولا لتلك ، وإن كان ينبه إلى جبل فى السراة يسمى نخرة) والشاعر فى ديوانه (نسخة دبلن رقم ٤٢٢٦) يشير إلى جزيرة الناموس وغرقه على مقربة منها ، بينما لا يذكرها بالمرة فى مجموعة ترسله ، ويورد فى أكثر من موضع أن تهشم سفينته وقع على مقربة من جزيرة نخـــــرة .

ويذكر ابن المجاور فى « صفة بلاد اليمن » عن جزيرة الناموس ما يلى (ص ٢٤٥) : وحدثنى ريحان ، مولى على بن مسعود بن على ، قال : بين جزيرة دهلك وعقيق جزيرة ملؤها نامس ، لم يسلكها ولم يسكنها أحد من خلق الله من كثرة النامس الذى بها .

(٩) يقول ياقوت فى « معجم البلدان » ٤٩٢/٢ عن دهلك :

« اسم أعجمى معرب ، ويقال دهيك أيضا ، وهى جزيرة فى بحر اليمن ، وهو مرسى بين بلاد اليمن والحبشه ، بلدة ضيقة حرجة حارة ، كان بنو أمية إذا غضبوا على أحد نفوه إليها . . » .

ويقول النويرى فى « نهاية الأدب » ٢٤٤/١ إن أهلها « قوم من الحبوش مسلمون » .

وابن المجاور فى « صفة بلاد اليمن » يذكر (ص ٢٤٨) أن هناك « أربع مدن فى بر السودان مقابل أربع مدن فى بر العرب : عيذاب مقابل الجار، وهى مرمى ينبع ، ودهلك مقابل السرين ، وزيلع مقابل الصارة ، وعوان مقابل الأهواب » ، وفى دائرة المعارف الاسلامية ط ١ ج ٢ ص ٩٣ من الطبعة الفرنسية (بقلم لونجريج) مقالة عن دهلك ، وفيها أنها تقع فى مواجهة مصوع .

(١٠) ليست لدينا عنه إلا معلومات قليلة، وابن قلاقس يسميه بـ « أبى الفياض مالك ابن أبى السداد » وأما ياقوت فى مادة « دهلك » فيسميه بـ « مالك ابن شداد » ولا يستقيم هذا القول الأخير مع البيت الذى قيل فى مدحه :

و مثل سؤدده فإن طلبوا فأبوا السداد ولم نجد مثلا

(١١) وأرسل له أيضا من دهلك قصيدة مطلعها :

خذها كلون التبر ذائب حمراء بيضاء الذوائب

وفيها يقول :

ورأيتنى وأنا الغريـ ب لديك من إحدى الغرائب
ومن العجائب أن أرا ك ولست أنطق بالعجائب

(١٢) فى الديوان — نسخة دبلن (رقم ٤٢٢٦) « وقال يمدح ياسر ابن بلال . . » ولا يتمشى ذلك مع سياق القصيدة ، وقد نص فى مجموعة ترسله على أنها فى مدح مالك بن أبى السداد .

(١٣) ومن مدائحه الأخرى فى صاحب دهلك ، ما نجده فى الديوان — مخطوطة باريس — :

تلين لعزمى بالأراك العرائك ولا رأى لى فيما تجن الأرائك

ومنها فى المديح :

هو البحر يستمطى البحار ركابنا إليه ويستجرى الرياح السواهك

وأنت الذى أبرمت من آل هاشم قوى دولة حلت عراها البرامك

ومثلك حامى همة وأئمــــة لها الملأ الأعلى حمى والملائك

وله فى مدح مالك كذلك قصيدة مطلعها :

عزمى وحزمى والحسام الماضى تكلفوا بصادق الإيماض

وفى الديوان ، نسخه دبلن رقم ٣٢٢٠ أنها قيلت على البديهة .

(١٤) يقول المقريزى فى «الإلمام باخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام» :

« لابد للحبشة من مطران يوليه بطريق النصارى اليعاقبة بمصر بعد سؤال الحطى ملك أمحرة لسلطان مصر فى ذلك بكتاب يبعثه مرسله صحبة هدية ، فيقوم البطريق بتعيين مطران لهم » .

(١٥) أخذ ريتزتانو فى مقاله عن ابن قلاقس بدائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الفرنسية ج ٣ ص ٧٣٨ ، ط ٢) بهذا الرأى .

(١٦) يجدر بنا هنا أن نسوق الخبر كما رواه ابن خلكان ، لأن معظم المصادر والمراجع اعتمدت عليه :

« وفى آخر وقته وصل بلاد اليمن وامتدح بمدينة عدن أبا الفرج ياسر .. فأحسن إليه ، وأجزل صلته ، وفارقه وقد أثرى من جهته ، فركب البحر ، فانكسر المركب به ، وغرق جميع ما كان معه ، بجزيرة الناموس بالقرب من دهلك وذلك يوم الجمعة خامس ذى القعده سنه ست وستين وخمسمائة ، فعاد

إليه وهو عريان ، فلما دخل عليه أنشده قصيدته التي أولها :

صدرنا وقد نادى السماح بنا ردوا   فعدنا إلى مغناك والعود أحمد

وهذه القصيده من القصائد المختارة . . . ثم انشده بعد ذلك قصيدة يصف فيها غرقه ، وأولها :

سافر إذا حاولت قدرا   سار الهلال فصار بدرا

وهي قصيدة طويلة أحسن فيها كل الإحسان . . . »

وقد عرض الزركلي لهذه الرواية ، وبين أوجه الاختلاف بينها وبين ما جاء في « ترسل ابن قلاقس » وانتهى إلى قوله :

« هذه قصة غرقه ، كتبها بقلمه ، وانتفى بها مزعم المؤرخين جميعا بأنه (غرق ما كان معه وعاد إلى ياسر بن بلال وهو عريان) .

ونحن نتفق مع الزركلي في معظم ما استدل عليه ، ولا نستبعد ، مع ذلك ، أن يكون الشاعر قد دخل على ياسر بن بلال وهو شبه عريان ، زيادة في التأثير ، وطمعا في أن يعوضه عما فقده .

ونشير هنا إلى أن عدداً من الدارسين المحدثين يذكر الخبر في شيء من التحريف فيقول « وغرق جميع من كان معه » بدلا من « جميع ما كان معه » .

(١٧) في « الخريدة » أنه مات عن ثلاثين عاما ، وفي « كشف الظنون » « ١/٧٦٨ أنه توفي سنة ٥٦٩ ، وفي « البداية والنهاية » ١٢/٢٦٩ ، أنه توفي عن خمسة وأربعين عاما ، ولعل مرد ذلك كله لاخطاء في النسخ أو الطبع وفي « الأدب في عصر صلاح الدين » ص ٣٧٩ للدكتور محمد زغلول سلام (وكذلك في كتابه « الأدب في عصر الأيوبيين » ص ٣٥٧ أنه « رجع إلى اليمن بعد أن غرق جميع من

كانوا معه فأعطاه من اتصل بهم من الأعيان وأثرى من العطاء ، فعاد يركب البحر ، ولكنه غرق هذه المرة تجاه عيذاب ، سنة ٥٦٠ هـ ، أما المصادر التى بين أيدينا فلا تنص على أنه غرق بل تقول انه مات بعيذاب .

وانظر عن عيذاب ما كتبه ياقوت (مادة : عيذاب) وفى مجلة المقتطف سنة ١٨٩٢ (ص ٢٣١) مقالة عنها بعنوان « مدينة عيذاب وصحراؤها » .

القسم الثانى

آثاره النثرية والشعرية

١ — النثر .

٢ — الشعر .

الفصل الأول

النـــثر

• « روضة الازهار » و « مواطر الخواطر » :

لدينا من آثار ابن قلاقس النثرية قدر لا بأس به، يسمح بأن يجلى خصائص أسلوبه ، وطبيعة الموضوعات التى تناولها .

وقد ذكر له الصفدى فى مقدمة « الوافى بالوفيات » كتابا سماه « روضة الأزهار » (١) قرنه بـ « يتيمة الدهر » للثعالبى و « جنان الجنان » لابن الزبير الاسوانى . فالكتاب إذن يتضمن تراجم فى الادب ، لكننا لا نعلم شيئا عنه ولا عن قيمته العلمية .

وليس ببعيد أن يكون نهج الكتاب قريبا من صنيع الثعالبى فى « اليتيمة » فقد كان شديد الإعجاب بها ، وعبر عن تقديره باكثر من مقطوعة فمن ذلك قوله :

أبيات أشعار اليتيمة ... أبكار افكار قديمة
ماتوا وعاشت بعدهم ... فلذاك سميت اليتيمة (٢)

وقوله :

حفظ اليتيمة كل من ... فى شرقها والمغـــرب
فشدوت من عجب بها ... كم لليتيمة من أب (٣)

وقد مر بنا ان الرشيد بن الزبير ارسل إلى ابن قلاقس يمدحه بأبيات أولها :

« يامغرما بنفيس الدر يجمعه » فهل يشير ابن الزبير بقوله هذا إلى « روضة

الأزهار ، أم إلى عمل آخر له طابع المختارات ، جمع فيه الشاعر ما وصفه ابن الزبير بـ : « نفيس الدر » :

لا نستطيع الجزم بشيء فى هذا الصدد ، خاصة وأن هناك كتابا آخر لا نعلم عنه شيئا كذلك باستثناء فقرة جاءت فى « الترسل » ، ضمن رسالة « كتب بها إلى الثقة كاتب الضرغام ، يستقضيه كتب شيء من شعره ، ليثبته فى كتابه الموسوم بـ: مواطر الخواطر :

« وقد كان أعلم (الحضرة) عند الانفصال من الثغر المحروس ، واتصال النفوس بالنفوس ، أنه أبتدأ فى كتاب سماه مواطر الخواطر ، وقررت معه بتشريفه بشيء من شعرها وترسيلها ، ليجعلها نجمى حلكة فى فلكه ، ودرى بحره فى نحره ... » .

وقد رد سعيد بن غزال بقوله : « .. ورد كتاب الحضرة السامية الأجلية العلية فمد العبد له فى الطول ، وسوغه ناحية العدل والقول .. على أن الكتب التى سيرها إن كان حاملها العنقاء ، فإن ناظر منتظرها لا تدركه العنقاء تلك لعمر الله كتب ما كتبت إلى الآن ... » وتضمنت الرسالة قصيدة لابن غزال فى مدح الحافظ السافى ، أولها » :

هذا الصراط فجز قويم هداه   واحذر — هديت — تضل فى مسراه

ويسأله أن يصلح ما قد يكون فيها من خلل ، وكان رأى ابن قلاقس أن القصيدة « خالية من العاب ... » .

والشيء الحرى بالذكر أن أحدا من المؤرخين لم يشر إلى « مواطر الخواطر » هذا السرياقوسى ؟ ويبقى هناك — حول هذه النقطة — تساؤل أخير : هل يمكن أن يكون كتاب « روضة الأزهار » هو نفسه « مواطر الخواطر » ؟ أو يكون قد حول العنوان إلى « روضة الأزهار ومواطر الأفكار » على سبيل المثال ؟

« الزهر الباسم فى أوصاف أبى القاسم » : (٤)

هناك كتاب آخر — مفقود بدوره — ، غير انه أسعد حالا مما مضى ، فإن العماد الاصفهانى أورد منه مختارات مطولة فى « خريدة القصر » ونعنى بهذا العمل كتاب « الزهر الباسم فى أوصاف أبى القاسم » .

وقد مرت بنا أطراف مما فى هذا الكتاب أثناء الحديث عن صقلية والرحلة اليها ، ويخيل إلينا أن « الزهر الباسم » كان عزيز الوجود فى القرن السادس الهجرى نفسه ، — وفى القرون التى تلت بطبيعة الحال لأننا لا نكاد نجد أحدا نقل عنه باستثناء العماد الاصفهانى ، كذلك نجد العماد يقول ، ممهدا للمختارات التى استلها من هذا الكتاب :

« . . ثم ظفرت بكتاب الزهر الباسم . . فاطلعت فيه ، وأطلعت فى فلك الخريدة نجوم معانيه ، فأول ما بدأ فيه بوصف الكتاب ، كلام اصفى ديمة من در السحاب ، وأوفى قيمة من در السحاب . . . »

وتضم « الخريدة » قطعتين الأولى فى وصف الكتاب نقلها العماد من مقدمة « الزهر الباسم » ومنها :

« هذا كتاب نظمت فريده فى عقد الكرم ، وجلوت فرنده فى عضب الهمم واستخلصت بنار الطبع تبره ، وشحذت من لسن الذهن نبره ، وأنبت من روض الشرف أزاهره ، واثبت فى سماء العز زواهره ، وسمت عواتق المجد بحمائله ، ورقمت دمائث الحمد بخمائله ، ناضرة مشرقة اللألاء بل مشرفة الآلاء . وهذا السيد الأيد وإن عظم سوره وكبر صوره ، وشرف نسبه وظرف نصبه ، واجتلى من مجالس الفضل ومغارس النبل ، منتدى صدور ايوانها ، ومبتدأ سطور ديوانها ، فان مثلى وإياه ، كراعى سنين عجاف ، ودواعى مسنتين لإيجاف ، طواه إدقاع

وأجراه صفصف قاع فاحتل بوهد ، رهين جهد،ماله بالسحاب وأذيال السحاب من عهد،قد لفته النكباء فى شملها،وأتلفته بتفصيلاتها وجملتها، فلما يبست مراتعه ويشست مطامعه ، أتت أكيلة ليث فسامها ، وعنت مخيلة غيث فشامها .. »

وأما القطعة الثانية فإنها فى وصف أبى القاسم بن حجر ، ومنها :

« والعصر إن فى المصر ملكا استملك رقاب المدح ، واستهلك المحن بالمنح ، نقل الدهر إلى نقش خاتمه ، وجعل مواطىء كعبه همة كعبه ، وباهى بنهضة من عمره نهضات عمره .. وإنما لقيت من وعثاء السفر،ولقاء الخطر ، وابتغاء الظفر ، قبل حلولى بهذه الحضرة النضرة ، حضرة القائد أبى القاسم الاجل الذى إن ألبس قلمه المداد عرى من الفصاحة « قس اياد » وأنطق طرسه الرسائل اخرس عن الخطابة « سحبان وائل » يلزم لديه « ابن العميد » سمت العبيد ، ويغدو عليه « عبد الحميد » غير حميد ، ويقول له « الصاحب » أنا عبد لاصاحب .. » .

ضاع كتاب « الزهر الباسم » كما ذكرنا ، لكن فى القدر الذى ذكره العماد ما قد يدل ، ولو على نحو عام ، على محتواه ونهج ابن قلاقس فيه ، وقد أحسن العماد صنعا حين أورد شيئا من النصوص الشعرية التى ألفها شاعرنا وهو بالجزيرة ومادار بينه وبين بعض شعراء صقلية من مراسلات ومطارحات .

ولدينا من هذا الكتاب — الزهر الباسم — قدر لا بأس به مما تضمنه من شعر ، وهذا القدر مذكور فى الديوان وليس بمستبعد أن يكون جامعو ديوان الشاعر قد ذكروا النصوص الشعرية(*) التى وجدوها له، وبذلك يكون بين أيدينا جل مادة الكتاب .

ومن البين ان الحكم الحقيقى على « الزهر الباسم » ان يتأتى لنا إلا اذا تم اكتشاف نسخة منه ، وأما القدر الذى بين أيدينا فانه يجعلنا نقول فى شىء من

الحذر إن مادته لم تكن — فيما يبدو — من ذلك اللون الحى الجياش المتوثب الذى يصور حياة الناس ، ويعكس صورة الأوضاع السياسية على النحو الذى تتيحه لنا رحلة ابن جبير ، على سبيل المثال .

وعلى الرغم من كل هذا ، فإن فى « الزهر الباسم » اشارات وجملا عارضة ذات دلالة عميقة فى الكشف عن الأوضاع فى صقلية بعد أن سقطت فى أيدى النورمان ، وقد نبهنا إلى شىء من ذلك فى أثناء الحديث عن شاعرنا فى صقلية .

* ترسل ابن قلاقس :

هذا هو الأثر النثرى الوحيد الذى وصل الينا كاملا ، ويقع فى قرابة خمسين ورقة ، ومنه نسخة فى الخزانة التيمورية على غلافها :

« ترسل الأعزابى الفتوح نصر بن عبد الله بن عبد القوى ، المعروف بابن قلاقس ، رحمه الله تعالى ، ثم تقدم عنه نبذة موجزة ترتكز على ما جاء عنه فى « وفيات الأعيان » » .

وللكتاب مقدمة قصيرة فيها :

« كتب الشيخ الأديب الأعز .. ابن قلاقس ، إلى الفقيه أبى الحسن على ابن عبد الوهاب بن خليف ، وقد سأله تعليق شىء من رسائله :

أنا أطال الله بقاء سيدنا إطالة باعه ، وكثر مناقبه تكثير أتباعه ، وإن كنت إنما أتعلق من الأدب بذيل ، وأخبط منه فى جنح ليل ، فإنى أوجب أمره ، وإن كان اشارة ، وأفترض طاعته وإن لم أسمع عبارة ، وقد رأيت ميله إلى تعليق شىء من ترسلى ، مع كثرة توسلى إلى الإنتهاء لرسومه وقلة توصلى ، فعرضت عليه ما كتب موالى وإخوانى ، وكان بنانى فيه رسل بيانى ، ولولاه — أدام الله علاه — لاحتجبت .. وهل أنا فيه الا كما قال المثل : لا ناقة لى فى هذا ولا جمل .. وهذا أول ما وقع إلى يدى وإن شاء الله أبتدى » .

والرسالة الاولى «نسخة كتاب أجبت به بعض الاصدقاء» وبعده رسائل إلى ابى الحسن سعيد بن يعقوب ،كاتب الضرغام وإلى الامير عنان بن نصر العسقلانى وإلى الحافظ السلفى،وإلى ابى بكر العيدى — كاتب ديوان الإنشاء فى ثغر عدن — والقائد غارات الصقلى — وابن فاتح ، وغيرهم ، فضلا عن عدد من الرسائل الديوانية — كتبها فى دهلك — وشىء مما كتبه على لسان غيره ، وأهم ما فيه ما وجه إلى الكامل بن شاور على أثر ثورة الاسكندرية وما تلاها من إرهاب وسلب ونهب ، وهذا المحتوى يعود بنا إذن إلى الفترة التى سبقت سفر الشاعر إلى صقلية ، كما انه يمتد إلى الأعوام الأخيرة من عمره .

والذى نظنه أن ابن خليف قد طلب من شاعرنا تأليف هذا الكتاب على اثر عودته من صقلية ، فجمع فيه ما تيسر له ، ثم جاءت الرحلة إلى اليمن والمقام فى عدن ودهلك ، فأضاف الشاعر هناك ما وجده حريا بأن يضاف ، وعاجله الموت بعد ذلك سنة ٥٦٧ ، فى أثناء العودة إلى مصر ، فتوقف الكتاب عند الصورة التى وصلت إلينا .

وبهذا الأثر قدر من الرسائل الإخوانية على النحو الذى نراه عند كثير من الكتاب — إلا أن «ترسل ابن قلاقس» يتضمن فى الوقت ذاته عددا من النصوص التى تعكس صورة صادقة لطبيعة الفترة القلقة العاصفة التى سادت مصر - وبخاصة الاسكندرية — فى أعقاب عودة شاور إلى الحكم ، واشتعال الصراع بينه وبين الجيوش النورية بقيادة أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبى .

كذلك تعتبر الرسائل التى كتبت فى دهلك بمثابة وثائق تاريخية على قدر كبير من الأهمية ، نظرا لقلة ما يعرف عن هذه الجزيرة ، وطبيعة الصلات التى كانت تربطها ومصر .

وغنى عن القول أن الكتاب — فى الوقت نفسه — أحد المصادر الرئيسية التى تقدم معلومات هائلة عن الشاعر نفسه ، وعن صلاته برجالات عصره .

✡ ✡ ✡ ✡ ✡

لقد كان ابن قلاقس الاسكندرى شاعرا قبل أن يكون ناثرا أو مؤرخا، ومع ذلك فإننا حين نتأمل فى الآثار النثرية التى سلمت لنا من أعماله ، نرى فيها قدرا كبيرا من المهارة الفنية التى تتفق والتقاليد الأدبية فى ذلك الحسين ، وقد أعجب القدامى — وبخاصة الصفدى — بنثره كما أعجب به فريق من المحدثين فالزركلى على سبيل المثال — يصف شاعرنا بأنه « من كبار الكتاب المترسلين » والحق أن هذا النثر يدل على خصوبة فى الثقافة الأدبية فمعانى القرآن الكريم والشعر القديم والأمثال العربية حاضرة فى ذهنه ، وهو — وعلى الرغم من الإرتكاز على الصنعة البديعية — يعرف كيف يعبر عن الفكرة فى شىء من الحيوية والصفاء ، ونجد الجملة عنده تأتى — بصورة عامة — قصيرة منغمة ، وكل جملة تأتى بعدها أخرى تحاكيها وكأنها صدى لها ، وتمتد مع قريناتها دائرة حول معنى واحد ، ثم تنفلت فى يسر إلى معنى جديد ..

ولننظر فى مقدمة « الزهر الباسم » التى أوردنا منها فقرات ، وفيها — بعد الوصف العام، والحديث عن الممدوح — : « وهذا السيد الأيد » الخ تناول لمواهب الممدوح الذى يقبدى لنا وكأنه أفصح الفصحاء ، ونتقابل بعد ذلك مع وصف أهوال الرحلة ، وتصوير البحر فى حالة غليانه وغضبه — ولكن كل هذا يهون مادام التعب قد أفضى إلى المثول بين يدى الممدوح .

ومما لا ريب فيه أن ابن قلاقس كانت تسيطر عليه هنا أخيلة الشعر وطبيعة بناء القصيدة التقليدية ، وقد ساعده موضوع « الزهر الباسم » على ذلك ففيه

وصف الترحال والعزف على نغمة الغريب الذى ينشد الملاذ والمعوز الذى يحتاج إلى من يسبغ عليه العطاء . الخ .

واما كتاباته فى « الترسل » فيختلف ايقاعها بحسب الغاية من الرسالة ، فهناك رسائل سلسلة جياشة ليس فيها تفتيش عن السجع أو الجناس، كتلك الرسائل التى بعث بها إلى العيدى وابن أبى الكتائب ، والتى كتبها فى معمعة انفعاله بما تعرض له من أخطار،على أثر ارتطام سفينته بالصخور عند جزيرة دهلك ، وهناك الرسائل الديوانية الرسمية — التى كتبها على لسان ابن ابى السداد سلطان دهلك ـ وهذه الرسائل تخضع للأصول العامة التى كانت متبعة على عهده،والتى تفرض على كاتب الرسالة ان يبسط المعنى ويصقل العبارة،ويلتزم بصنوف الألوان البديعية المعروفة.

ونلتهى إلى القول بأن نثر ابن قلاقس — على علاته — لا يقل عن مستوى نثر الاعلام الحاذقين فى ذلك العصر — مثل ابن الخلال والقاضى الجليس والقاضى الفاضل — بل لعله يتميز عنهم بشىء من التدفق والحيوية والبساطة .

مراجع وتعليقات

(١) انظر « الوافى بالوفيات ١/٤ » ، وكذلك « كشف الظنون » ٩٢٣/١ « وهدية العارفين » ٤٩٢/٢ .

(٢) ذكرهما ابن خلكان فى « وفيات » — طبعة محي الدين عبد الحميد — ٣٩٢/٢ .

(٣) ديوان ابن قلاقس (مخطوطة باريس) .

(٤) ذكر العماد مختارات منه فى الخريدة (القسم المصرى) ١ / ١٤٦ — ١ / ١٦٨ .

(٥) ليس بمستبعد أن يكون ياقوت قد اطلع على « الزهر الباسم » ونقل عنه ما استشهد به من أبيات قيلت فى صقلية وإن كنا نرجح انه نقل هذه الأبيات — وكذلك الأبيات المتعلقة بدهلك — من ديوان الشاعر نفسه .

الفصل الثاني

الشعـــر

ربما كان لزاما علينا — وقبل أن نقدم هذه اللمحة عن الخصائص الفنية لشعر ابن قلاقس الاسكندرى — أن نتوقف قليلا بازاء الدراسة الهامة التى عقدها د. عبد العزيز الأهوانى حول موضوع «ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار فى الشعر» ، ذلك لان كثيرا من الانتقادات التى صوبها د. الاهوانى على ابن سناء الملك يمكن أن توجه — على نحو وآخر — لابن قلاقس واغيره — من شعراء عصره .

والدكتور الاهوانى يذهب إلى أن «كثيرا من الدارسين المحدثين حين يكتبون عن شعرائنا القدماء يسلكون السبيل الذى يسلكه الأوربيون فى دراسة شعرائهم فيفترضون أن ديوان الشاعر صورة لنفسيته ، ويعتبرون أن الشاعر صورة لحياة عصره ومجتمعه ، لذلك يتجهون إلى دراسه البيئة والعصر ، وينتقلون إلى دراسة أسرة الشاعر وحياته ، ثم ينتهون باستعراض شعره ، وهذا منهج سليم إذا استقام الفرض الذى بنى عليه ، وهو لا يستقيم إلا فى حالات نادرة ، وعند شعراء قلائل فى تاريخ الأدب العربى ، أما شعراء القرن السادس الهجرى ، وأما شاعر كابن سناء الملك بالذات، فلن يكون للدراسة الإجتماعية والسياسية والاقتصادية بل ولن تكون دراسة أسرته أو دراسة حياته الشخصية ذات أثر كبير فى فهم شعره ، واكتشاف ما انطوى عليه هذا الشعر من أفكار واساليب ، ذلك لان هؤلاء الشعراء كانوا يفصلون فصلا تاما ما بين شعرهم وحياتهم العامة والخاصة ، ولقد عاشوا فى دواوين الشعر العربى القديم ، أكثر مما عاشوا فى بيئاتهم المعاصرة»

وكان همهم الأول ان يجيدوا فى منظوماتهم إجادة تتفق وفهم أصحاب الدراسات البلاغية لهذه الاجادة ، ولم يكن يعنيهم بعدذلك أن يكون هذا الشعر صادقا أو غير صادق فى تصوير واقعهم الحى . لقد عاش هؤلاء الشعراء ، منعزلين فى شعرهم عن جماهير الشعب ، وعاشوا منعزلين عن ذات انفسهم » .

وهو يرى — بديلا عن ذلك المنهج — أن « تركز العناية حول أساليب هؤلاء الشعراء (شعراء القرن السادس الهجرى) وصلة هذه الأساليب بالسابقين عليهم من الشعراء ، قبل العناية بما لا يتصل بإنتاجهم اتصالا مباشرا ، وترصد حركاتهم الذهنية والعقلية ، مرتبطة بالهدف الذى يريدون بلوغه ، قبل التماس ما لا يتفق مع طبيعة شعرهم من أفكار ولدت فى بيئات بعيدة عنهم ، واستمدت من شعر يختلف عن شعرهم » .

ومما لا ريب فيه أن وجهة نظر د. الأهوانى تنطلق من منطق عميق يريد للشعر أن يكون معبرا عن الشاعر وعصره ، وأن يأتى مفعما بالحس الانسانى والأصالة الجياشة النابضة بالصدق والحيوية .

لكن الإشكال فى هذا الرأى أنه يرتكز على مفهوم حديث فى تحديد معنى الشعر ، ويصح لنا هنا أن نسأل : أيجوز أن نطبق المعايير الحديثة تطبيقا مطلقا على الآداب القديمة ؟ ونترك الإجابة عن هذا السؤال لنقول : ما الذى يبقى من المقامات لو اننا طبقنا عليها أحكام القصة الحديثة ؟ وأى حكم قاس سيطبق على نتاج الجاحظ لو أننا أخضعناه لأصول البحث بمعناها الحديث ؟

ونعود للشعر لنرى الدكتور الاهوانى يقرر أن المنهج الذى يطبقه الأوربيون عند دراستهم لشعرائهم « لا يستقيم إلا فى حالات نادرة ، وعند شعراء قلائل فى تاريخ الأدب العربى ، وكأن الدكتور الأهوانى ينتهى إلى الجزم بأن نتاج

الشعراء العرب — ماخلا حالات نادرة — لا يصور نفسية هؤلاء الشعراء ولا يعكس صورة لحياة العصور والمجتمعات التى عاشوا فيها ، فالبيئة والعصر ليس لهما مكان فى دواوين الشعراء العرب .

ونحن — وإن اتفقنا مع جانب من هذا التصور — نرى أنه من الغبن للشعر العربى أن نغض منه إلى هذا الحد ، ونعتقد أن هذا الشعر — فى مجموعه — يعكس صورة للبيئة وللمجتمع . ولكن على نحو يغاير فى بعض الأحايين ما يجليه الشعر الأوربى لقارئه، واكتشاف هذا الجانب — جانب البيئة والمجتمع — يحتاج فى الشعر العربى إلى قدر أكبر من العناء لكى يتبدى للعيان ، لأنه يرزح فى كثير من الأحايين تحت ركام من الصنعة أو المحاكاة ، ولأن كثيرا من موضوعاته — كالمديح مثلا — تخلى فى الغالب الاعم عن الصدق والذاتية ووقف عند حد التفنن فى إعادة صياغة المعانى المألوفة التى طالما رددها الشعراء .

إلى جانب هذه الزاوية المعتمة نستطيع القول بأن الشعر العربى لم يتخل عن كل مسئولياته فى تصوير المجتمع ، وفى تحليل أغوار النفس الإنسانية ، ولا نريد أن ندخل فى تفصيلات تنأى بنا طويلا عما نحن فيه ، ونكتفى هنا بأن نضيف إلى ما سبق أن الوقت لم يحن بعد — فيما نظن — لكى نصدر حكما نهائيا على الشعر فى القرن السادس الهجرى ، فإن دواوين شعراء هذه الحقبة لم ينشر منها إلا قدر ضئيل (١) ، وما نشر منها لم يدرس إلى الآن دراسة منهجية فيما نعلم ، فضلا عن أن جانبا لايستهان به من أدب هذا العصر ضاع ولا أحد يعلم عن امره الا القليل، وأن جانبا آخر لا يزال قابعا فى خزائن الشرق والغرب ، لا يكاد يحس به أحد .

وها نحن أمام ابن قلاقس الإسكندرى وأمام شعره ، نقرؤه فنحس فيه بالأصالة تارة وبالتقليد تارة أخرى ، نراه فى بعض الأحايين حبيس المعانى القديمة

يرددها فلا يكون لها وقع ما ، لكنه يتفلت من اسارها فى أحايين أخرى ،ويطلق نفسه على سجيتها فإذا بها تعبر أحسن تعبير عما فى الحياة من آلام وعما فى النفس من رغبات واشجان ، ونحسب أن كل دراسة لهذا الشاعر ستظل ناقصة إذا لم توضع فى الاعتبار طبيعة العصر وأحداثه ، وما حفل به من قلاقل وأزمات .

كذلك لا نعتقد انه من الممكن تقديم تحليل فنى لأعمال هذا الشاعر إذا ما نحينا جانبا كل العوامل التى أسهمت فى تكوينه ، وما لاقاه فى حياته من فقر وحرمان،ومامرت عليه من أحداث ونذكر هنا،— فى إيجاز — بأثر السلفى فيه والسلفى كان من المولعين بالتسفار قبل أن يستقر به المقام فى الاسكندرية،فهل كانت رحلات ابن قلاقس صدى للمزاج الشخصى لاستاذه؟ وشاعرنا كان مولعا بالحياة مقبلا عليها ، ولكننا نجده من حين لآخر يرتدى ثياب الورع ، وينظم أشعارا تشبه أشعار الفقهاء والعلماء ، (وكانت للسلفى منظومات من هذا النمط) فهل هذه الأشعار أثر من آثار التتلمذ على يد عالم الحديث الشهير ؟

ولقد اتصل الشاعر بنبيل من نبلاء الثغر هو ابن خليف ، وعاش فى حماه فترة من الزمن ثم حدثت جفوة بين الرجلين — لأسباب لا نعرفها — فهل كان لهذه الجفوة دور فى رحيل شاعرنا عن الثغر ، وفى دفعه للتطلع إلى المغامرة التى قد تعود عليه بالجاه والثراء ؟

وهذه الأحداث المتتابعة التى توالت على مصر فى الفترة التى سبقت سقوط الدولة الفاطمية — ألم يكن لها أثر فى ديوان الشاعر تدل عليه عشرات النصوص التى تعكس لنا حالة الاضطراب والهلع ، وتصور المعاناة والحيرة ، وكذلك الانتصارات التى سجلت ضد الصليبيين ،ألسنا نراها ماثلة فى أعماله ؟

وبيئة الاسكندرية ، هذه البيئة التى طالما شهدت وفود التجار والرحالة

والحجاج،والتى تزخر بقصص الثراء والمشاهدات العجيبة وأنباء الملوك والأمراء والنبلاء — ألا تغرى هذه البيئة شاعرا كابن قلاقس كى يتطلع إلى البعيد ، ويتمنى لو يتابع الأمواج والرياح لعل الزمن يصفو له ، — ويخلص مما هو فيه من فقر ونصب ؟

إن ديوان هذا الشاعر يعكس — فى واقع الأمر — كل ماذكرنا.أو بالاحرى إن كثيرا من قصائد الديوان تتمثل فيها أجوبه للتساؤلات التى طرحناها،ولا يمنع هذا من القول بأن هناك — فى الوقت نفسه — عشرات من الأمثلة المتهافتة التى لا تضيف جديدا ، ولا تعدو أن تكون محاكاة كليلة ، وصدى لا صوات انطلقت منذ امد بعيد .

والذى نظنه أن الدكتور الأهوانى راعه ما فى ديوان ابن سناء الملك من توليدات عقلية ، ومن محاولات مضنية لتصيد المعانى ، فثار على ابن سناء الملك ومن معاصريه،بل وعلى كل شعراء العربية ماعدا قلة قليلة (لم يسع إلى تحديدها) ، وهو فى ثورته هذه يذكرنا بموقف الشعراء والنقاد الرومانسيين فى فرنسا عندما ثاروا على جفاف النزعة الكلاسيكية فنادوا بالعدول عن محاكاة القدماء فى موضوعاتهم وأساليبهم واخيلتهم ، وذهبوا إلى أن المحتوى هو الذى ينبغى أن يولد القالب لا العكس ، وفى سبيل الوصول لهذه الغاية دعوا إلى ضرورة ان يأتى الشعر تعبيرا خالصا عن احاسيس الوجدان ، وإذا كان الموضوع قائما على فكرة لا إحساس ، فإن هذه الفكرة ينبغى أن تصهر أولا فى بوتقة القلب حتى تبدو بعد ذلك وكأنها احساسات لا افكار .

ووفقا لهذا المنزع فإن التجربة الشعرية ، أيا كان كنهها ، لابد وأن تكون ذات طابع وجدانى تأملى إنسانى ، وفى هذا الصدد يقول لا مارتين :

« إن الشعر ينبغي أن يكون على وجه التحديد وجدانيا ، ذاتيا تأمليا ، جادا .. وأن يأتي صادقا عميقا واقعيا مخلصا معبرا عن ابعد ما في النفس من احساسات غامضة ، وسيكون الشعر حينئذ الإنسان نفسه لا صورة له (٢) » .

ليس من سبيل إلى تطبيق هذا الحكم بحذافيره على الشعر العربي ، وليس هناك ما يمنع في الوقت نفسه من الاستفادة من بعض جوانب هذه النظرية ، ومما يجد بعدها من نظريات في الادب .

ونختم تناولنا لهذه لنقطة بأن نكرر أننا نظلم شعرنا العربي ظلما بينا إذا ما حاولنا إخضاعه لمفاهيم لا تنبع منه ، ولكننا نستطيع مع ذلك أن نتلمس ملامح من الرؤية الكلاسيكيه خاصة فيما يتصل بشعر المديح وبالهجاء ، فالشاعر العربي ينطلق في بعض الإحايين للبحث عن جوهر المديح ومن ثم يرسم للممدوح صورة مثاليه للبطوله والنبل والأريحية ، ويهجم على عدوه فيجمله جماع الصفات الخسيسة كلها ، وكأنه في هذا وذاك لا يتحدث عن شخص بعينه بقدر ما يسعى إلى تجسيد الصورة المطلقة للعظمة أو للخسة .

ومن جانب آخر فإن هؤلاء الشعراء كثيرا ما لجؤوا للوقوف على الأطلال أو الغزل أو الخمر ، وليس من الضروري أن تكون هنالك رسوم ولا امرأة ولا كأس ، فهذه كلها قد تأتي تعبيرا عن شجن ما يخفى حتى على الشاعر نفسه ، ولكنه يجد له متنفسا في نطاق تلك الموضوعات العامة التي طرقها الشعراء من قبل ، وبعبارة أخرى إن هذه الموضوعات لا ينبغي أن تفهم في جميع الحالات على اعتبار أنها « محاكاة » فنية لا مجال للصدق فيها ، فقد تكون شديدة الإفصاح عن الذات ، وقد تأتي صورة مقنعة لما يعتمل في نفس الشاعر من هواجس وآمال وآلام .

غزارة انتاج ابن قلاقس :

ويجب أن نتذكر ونحن نطالع فى ديوان ابن قلاقس أننا بحيال شاعر قال الشعر وهو لا يزال فى مقتبل الشباب ، ومات وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره أى قبل أن يمتد به الاجل لكى يقدم كل ما عنده ، ويعود إلى شعر الشباب فينقح ما يراه فى حاجة إلى تنقيح ، وهو الأمر الذى كان الشاعر قد شرع فيه بالفعل كما يسجل هو فى إحدى رسائله . وقد صدق الصفدى حينما قال فى «الوافى» عن ابن قلاقس إنه «من الشعراء المجيدين ، ولعله لو عمر لكان شعره ازداد جودة» .

ويمكن القول بأن وجود اكثر من مجموعة من شعره دليل على أنه أراد اسقاط عدد كبير من القصائد التى لم يرض عنها ، لكن المنية وافته فجاءة ، وكانت النتيجة أن هرع فريق من أصحابه يجمعون كل ما وجده له من شعر ، ولم يضموا كل ما عثروا عليه إلى ديوان واحد ، ومن ثم تعددت المجموعات التى تنسب له ، ويهمنا الآن أن نقرر بأن هذه الدواوين تضم اللآلى والحصا جنبا إلى جنب ، ولاشك أن الأمانة العلمية تقتضى — عند التحقيق — أن تنشر هذه الأعمال كاملة ، ولكن القيمة الأدبية لكثير من القصائد ستكون ضئيلة الشأن ، والجانب الأكبر من هذه الأعمال الرديئة يعود — فيما نرجح — للمرحلة الاولى من حياة الشاعر .

إن أقدم النسخ التى بين أيدينا من الديوان نسخة محفوظة فى دبلن (تحت رقم ٣٨٠٠) ويرجح آربرى انها تعود إلى القرن السادس الهجرى ، وهذه المخطوطة تفككت اوصالها ، واضطرب ترتيب اوراقها ، وامحت كثيرا من معالمها وهى — فيما نرجح — تمثل النسخة التى اختارها الشاعر من شعره وبها من الشعر ما لايوجد

فى أى مصدر آخر ، ولا نرتاب فى أن هذه المخطوطة — ولسنا نملك منها الا مصورة على شريط « ميكروفيلم » — تحتاج إلى ترميم وإعادة ترتيب لأوراقها ، ومزيد من الفحص ، قبل أن يتمكن من الإستفادة منها على الوجه الأكمل .

وأما المجموعة (الباريسية) — نسبة إلى المخطوطة المحفوظة بالمكتبة الوطنية فى باريس — فانها تضم نصا واضح المعالم ، مرتبا بحسب الترتيب الهجائى ، وتنقصها قصائد عديدة مما فى المجموعة السابقة .

وهناك مخطوطتان تتلاقيان مع النص السابق ، ونعنى بهما مخطوطة ليننجراد ، ومخطوطة فينا .

ونعود إلى دبلن لنجد مخطوطة أخرى من ديوان الشاعر لا تحتوى على بيت واحد مما فى المجموعتين السابقتين ..

ويضاف إلى ذلك كله قدر كبير من الشعر ، رأيناه منسوبا لابن قلاقس فى كتب الادب والتاريخ والتراجم .

واذن فنتاج هذا الشاعر كان من الغزارة بمكان ، وهى غزارة لا تتناسب وسنه ، ولو افترضنا أنه كان قد عمر حتى بلغ الستين أو السبعين من العمر لكان من الطبيعى أن يتضخم الديوان إلى اضعاف ما هو عليه الآن .

وهذه المشكلة — مشكلة الكثرة — لها نظائر فى تاريخ الشعر العربى ، وقديما عاب ابن المعتز على أبى نواس أنه « لا يقوم على شعره ويقوله على السكر كثيرا ، فشعره متفاوت ، لذلك يوجد فيه ما هو فى الثريا جودة وحسنا وقوة ، وما هو فى الحضيض ضعفا وركاكة » (٣) وأخذ الآمدى على أبى تمام أنه لايبالى ان ينسب له الردىء الذى لا يساوى شيئا ، وبذا اجتمع فى ديوانه الدر والحصا معا .

ولنا أن نتساءل . هل كل ما يكتبه الشاعر من أعمال ، فى مختلف مراحل حياته جدير بأن يحتل مكانا فى ديوانه ؟ إن الملكة الشعرية لا تنبثق بين يوم وليلة ، وكذلك الثقافة والدربة اللغوية ، ومن البين أن التجارب التى تكتسب فى طور التكوين تبقى فى المادة تجارب غير مكتملة ، وكثيرا ما نرى فى شعر الشباب توثب الوجدان ، وصدق المشاعر ولكن المعالجة الفنية يكون فيها ما فيها من تسرع وحدة ولجاجة .

ولا ننسى أن الشاعر كان مدفوعا إلى هذه الكثرة دفعا منذ مستهل حياته الفنية ، فقد كان الشعر حرفة له يتعيش منها ، وكان الحافظ السلفى يجرى عليه راتبا فى مقابل ما يدبجه فيه من مدائح ، بل إن الحاجة ألجأته إلى النظم على لسان غيره (٤) .

وغنى عن الذكر أن مجالس السلفى لم تكن تأبى حتى الشعر الردىء (٥) فهى مجالس فقهاء ورواة حديث وطلاب علم ، لا مجالس مبرزين فى الأدب علماء بفنون النظم وأساليب الشعر .

ولننظر فى قصيدة قالها فى الحافظ السلفى ، منها :

قف بقفراء يباب ‏ ‏ ‏ بائنات لا إياب
فابك فيها بدموع ‏ ‏ ‏ مثلها دمع السحاب
إن هندا وسعادا ‏ ‏ ‏ عرضانى للعتاب
تركا قلبى كئيبا ‏ ‏ ‏ ودموعى كالرباب
بعد أن أقبل شيبى ‏ ‏ ‏ ومضى شرخ شبابى
هن كالشمس وجوها ‏ ‏ ‏ وخدودا كالشراب
وثغورا مثل سلك الد (م) ‏ ‏ ‏ ر من تحت الرضاب

عذبت ليست بملح   فهى كالشهد المذاب
فتفرقنا جميعـــا   بعد ذاك الاصطحاب
قهوة تذهب بالحقـــد لعمرى والضباب
ولقد سرت بأرض   مهمه ذات هضاب
سرتها فوق جواد   أسحم مثل الغراب
وتراه حين يهوى   مثل نسر أو عقاب

ثم لننظر فى مجموعة أخرى (نسخة باريس) لنرى الشاعر يقول :

أبعد شيبى اشبابى إياب
هيهات لا يرجع عهد الشباب
أم هل لمن عرضنى للعتاب
فالقلب منى فى أليم العذاب
ودمع عينى كدمع السحاب
وظبية مثل ظباء الشعاب
رقيقة الخدين مثل الشراب
فى ثغرها الشهد لعمرى مذاب
طوبى لمن يرشف هذا الرضاب
فى كفها حمراء مثل الشهاب
صافية رقت كمثل الشراب
تذهب بالحقد معا والضباب
ومنزل بالجزع منهم يباب
دارت عليه عاديات الرباب

قد رقمته ثم ايدى السحاب
ومهمه قفر كبير الهضاب
قطعته إبان عهـــد الشباب
بمنطوى الأحشاء طى الكتاب
اقب ساط أسود مثل الغراب
تراه كالأجدل فى الانتصاب
وحين ينقض كمثل العقاب

إننا نقرا القصيدتين فنجد انفسنا بازاء فكرة واحدة عولجت بنفس الألفاظ وبنفس الصور تقريبا ، ولكننا نحس فى الاولى وهنا وتهافتا ، ونحس أن النص يعود إلى المرحلة الاولى من أعمال الشاعر ، ولا يخدعنا قول الشاعر فيها :

بعـد أن أقبـل شيبى ومضى شرخ شبـــابي

فهذا كله من أساليب الشعراء ، ونحن نفترض أنه عاد إليها بعد فترة ، فحافظ على جوها وأخيلتها وألفاظها وقافيتها ، وأضاف اليها قدرا من التماسك والدقة ، ونحسب أنه كان سيسقط النص الأول من شعره لو أنه هو الذى تكفل بجمع ديوانه وتبويبه .

وهذا المثال الاول — ويرد فى مجموعة دبلن (رقم ٤٢٢٦) — يجعلنا نفترض أن هذه المجموعة — التى جمعها ابن خليف — تضم كثيرا من القصائد الاولى التى لم يرض عنها الشاعر بعد ذلك ،غير أن ابن خليف حرص على إيرادها وعلى ايراد كل ماوجده من شعر مما لم يرد فى المجموعات الأخرى ، حتى ما كان رديئا بالغ الركاكة ، كتلك التى تبدأ بـ :

ايها اللائم لم غيرى فيما قد اتينا

وقد قدمها جامع الديوان بالعبارة التالية : « وهى من أدون شعره » .

وخلاصة القول إن الدارس لشعر ابن قلاقس ينبغى له أن يضع فى الاعتبار أن عددا من قصائده كتب فى طور مبكر للغاية ، مما يجعلنا لا نعتبره مما يعتد به عند الحكم على شاعريته .

أثر الدراسة الدينية فى شعره :

وقد ألمعنا من قبل إلى أثر السلفى فى شعره عند الحديث عن المكونات العامة فى أدبه ، ونتناول هذه النقطة الآن فى شيء من التفصيل فنقول إن شاعرنا كان مدفوعا بحكم تتلمذه على السلفى إلى أن يعالج الموضوعات الوعظية من حين لآخر ، وفى الديوان قصيدة تتصدرها عبارة (وقال : حضرت بين يدى الشيخ السلفى ، رضى الله عنه ، فى جماعة ، فاقترح علينا عمل شيء من الشعر على وزن :

نعلل بالدواء إذا مرضنا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وهل يشفى من الكرب الدواء

فقال هبة الله بن وزير المصرى شيئا ، وقال عبد الله بن يوسف الغزوى شيئا ، وقلت أنا بديها :

أخى دع البطالة وانه عنها ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وجانبها فعقباها الشقاء
جمال المرء فى الدنيا صلاح ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وخير بضاعة الحر الحياء
عجبت لمن يميل إلى المعاصى ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وتعجبه الملاهى والغناء
تنبه يانؤوم فلست تدرى ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ عليك بما الذى سبق القضاء
ولذ بالحافظ الحبر المرجى ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ففيه الفضل أجمع والوفاء
إمام كل من فى الأرض أرض ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ إذا اختبروا وهمته سماء

ومن أمثلة استخدامه لمعانى القرآن الكريم والحديث الشريف قوله يصف ترحاله عبر البحار :

أقلعت والبحر قد لانت شكائمه ... جدا وأقلع عن موج وإزباد
فعاد — لاعاد — ذا ريح مدمرة ... كأنها أخت تلك الريح فى عاد
لا يستقر لنا جنب بمضجعه ... كأن حالاتنا حالات عباد (٧)
ولا تلاوة الا ما نكرره ... من مبتدى النحل أو من منتهى صاد(٨)

بل إن هذه المعانى الدينية تأخذ طريقها إلى مخيلته حتى وهو يعالج موضوعات الفحش والمجون ، كقوله متحدثا عن « علاقة ما » بغلام نصرانى :

ومزنر أضحى يقول ثلاثة ... وأقول من وجهين بل هو واحد
حتى إذا علقت بنا يد منكر ... كانت لنا فيما نقول مقاصد
هذى مناظرة نتيجة فقهها ... منى ومنه راكع أو ساجد
أستغفر الله العظيم فاننى ... بالزور معترف وقلبى جاحد

وقوله :

أعذر فؤادى إنه شاعر ... فى كل واد فى هواه يهيم
يارب خمر فمه كأسها ... لم أقنع من شربها بالشميم
أتبعت رشفا قبلا عندها ... وقلت هذى زمزم والحطيم

ومما استعمل فيه معنى من الأحاديث النبوية :

والله لولا أنه جنة المنى
لما كان محفوفا لنا بالمكاره (٩)

وسيطول بنا الحديث لو سعينا لأن نتابع عرض تأثير ألوان الدراسات المختلفة التى تلقاها الشاعر فى نتاجه الأدبى، والحق أن صدى هذه الدراسات قوى فى أعماله ، وبخاصة الدراسات النحوية (١٠) ، التى كان فيها ضليعا فيما يبدو .

« تأثير الموروث » فى شعره :

وإنما نؤثر أن نعالج هنا نقطة هامة ، نسعى فيها لمحاولة إيضاح آثار الموروث فى شعر هذا الشاعر ، وهى قضية شائكة متلاحمة الجوانب ، وسنسعى بإذن الله — لمعالجتها فى إيجاز ، تاركين التفريعات جانبا .

إن القارىء لديوان ابن قلاقس — أو بالاحرى لدواوينه . سيجد نفسه — وعلى الدوام — مدفوعا إلى تذكر ألوان من التراث تطل عليه هنا وهناك ، فالشاعر لا يفتأ يضمن ويقتبس ويعكس فى شعره ونثره مواقف وأمثلة من ماضى الأدب العربى ، وهو حريص على أن يؤكد مدى عمق ثقافته فى كل موقف .

هكذا نجده فى رسالة عتاب (١١) — يذكر أقوال بعض المولدين فى معنى العتاب ، ثم يثنيه بما قال ابن عرارة السعدى فى سلم بن زياد بعد ان جرب أقواما غيره :

عتبت على سلم فلما فقدته وصاحبت أقواما بكيت على سلم

ويكمل استشهاده بشىء من شعر أبى العتاهية ، وبما قاله احمد بن طاهر ، وبأبيات تنسب تارة لسلم الخاسر وتنسب تارة أخرى لضيف الباهلى فى البرامكة ، ثم يردد فيها ما قاله نصر بن حمد بن الخبزأرزى . . وهذا الذى يذكره فى معنى واحد ، دليل على سعة محفوظ ، وقوة ذاكرة تجعله يستجمع لكل موقف مادته .

ومن ألوان التأثير التى سجلت على ابن قلاقس أنه اخذ معنى البيت :

والماء يكسب ما جرى طيبا ويخبث ما استقرا

من قول بديع الزمان الهمذانى : « الماء إذا طال مكثه ظهر خبثه » هذا مارددوه ابن خلكان (ومن أخذ عنه ، مثل صاحب مرآة الزمان) كما ذكروا أن قولـه :

وبنقلة الدرر النفيسة بدلت بالبحر نحرا

مأخوذة من قول صردر :

قلقل ركابك فى الفلا ودع الغوانى للخدور
لولا التنقل ما ارتقى در البحور إلى النحور (١٢)

وقال ابن خلكان فى معرض الحديث عن أبيات أنشدها المأمون منها :

إن يكن للسواد فيك نصيب فبياض الأخلاق منك نصيبى

« وقد نظم بعض المتأخرين وهو ابن قلاقس هذا المعنى وزاد فيه وأحسن كل الإحسان ، وهو قوله :

رب سوداء وهى بيضاء معنى نافس المسك عندها الكافور
مثل حب العيون يحسبه النا س سوادا ، وإنما هو نور

بينما يقول صاحب « معاهد التنصيص » إن ابن قلاقس أخذ هذا المعنى من قول ابن رشيق :

دعا بك الحسن فاستجيبى يامسك فى صبغة وطيب
فإنما النور عن سواد فى أعين الناس والقلوب (١٣)

وله بيت مشهور أشاد به ابن خلكان وغيره ، هو :

صدرنا وقد نادى السماح بناردوا فعدنا إلى مغناك والعود أحمد

نرجح أنه نظمه وفى ذهنه قول مالك بن نويرة :

جزينا بنى شيبان أمس بقرضهم وعدنا بمثل البدء والعود أحمد (١٤)

ويذكر العماد فى خريدته أن بيته :

لم أستزق بمنامى وصل طيفهم فما له صار مقطوعا على السرق

مأخوذ من قول ابن سنان الخفاجى ، صاحب « سر الفصاحة » :

سرقت بالنوم وصلا من خيالكمو فصار نومى مقطوعا على الارق(١٥)

ولعله فى قوله :

كأنما أنا سهم والفلا غرض والبين قوس وراميها يد الزمن

متأثر بقول ابن حمديس فى وصف عصاه :

كأننى قوس رام وهى لى وتر أرمى عليها رمى الشيب والهرم

ونرجح أن نونيته التى أولها :

ابليت بعدك فى الانام ظنونى فظفرت عندهم بكل ضنين

معارضة لقصيدة صردر :

اكذا يجازى ود كل قرين أم هذه شيم الظباء العين

وقد ذكرنا من قبل أبياتا له قالها فى بلرم أولها :

وركب كاطراف الأسنه عرسوا على مثل أطراف السيوف الصوارم

لأمر على الاسلام . .

وهما مأخوذان بلا كثير تحوير من قول أبى تمام فى مدح ابن طاهر :

وركب كاطراف الأسنة عرسوا على مثلها والليل تسطو غياهبه

لأمر عليهم أن تتم صدوره وليس عليهم أن تتم عواقبه

وله فى وصف البحر فى ساعة غضبه :

والرمل فى حبك النسيم كأنما أبدى غضون سوالف المذعور

والبحر يرعد متنه فكأنه درع يشن بمعطفى مقرور

وقد علق الصفدى على البيتين بقوله إن معناهما ، اخذه من قول ابن المعتز :

والشمس كالمرآة فى كف الأشل (١٦)

ولو نظرنا فى خمريات أبى نواس فإننا سنجد ان عشرات النماذج النواسية قد أعيدت صياغتها على يدى ابن قلاقس ، فمن ذلك :

بقينا على كسرى سماء مدامة   مكللة هاماتها بنجــوم

فلورد فى كسرى بنى ساسان روحه   إذن لاصطفانى دون كل نديم

وقد أوردهما ابن حجة فى خزانته ثم ذكر أن معناهما ألم به ابن قلاقس فيما بعد ، وسبكه فى قالب حسن ، بقوله :

دارت زجاجتها وفى جنباتها   كسرى أنوشروان فى إيوانه

فخلعت عن عطفيه حلة قهوة   وشربتها فغــدوت فى سلطانه

والحق أن شاعرنا تأثر تأثرا عميقا بشعر أبى نواس ، وتأثر إلى جانبه بأبى الطيب المتنبى ، وقد كان — مثله فى ذلك مثل الأول — مولعا بوصف الشراب ومجلسه ، ولم تخف هذه الظاهرة على كثيرين ممن درسوا حياة شاعرنا ، حتى لنجد من بينهم من يتساءل :

« أيمكن أن يكون هذا الشعر صدى لحياة ابن قلاقس فعلا ؟ أم أنه من باب ترويض القول الذى يلجأ اليه بعض الشعراء أحيانا راسمين بأخيلتهم اشكالا لما حرموا منه فى واقعهم ؟ . . إن هناك نماذج . . من شعره . . تصف لنا ألوانا من هذا اللهو ، فيها حيوية التجربة ، وحرارة الواقع ، ترجح أن الموضوعات التى تناولها الشاعر ترتبط بالكثير من وقائع حياته (١٧) .

ونجد باحثا آخر يقرر :

« لم نصادف (من بين الشعراء الغزلين الذين جمعوا بين الغزل والخمريات) فى ميداننا الأدبى فى الاسكندرية غير ابن قلاقس الذى لم يحسن الغزل ، وإنما أجاد فى خمرياته إجادة تدنيه من مرتبة الفحول ، ويبدو أنه كان معاقرا لها وبها مدمنا ،

حتى بدت عليه النزعة النواسية فى شعره وفى مجالس سكره ، وانطلاقه فى التعبير عن ذاته ، وحريته فى الاشادة بها »(١٨).

ونحن لا نريد أن نشغل أنفسنا بمحاولة معرفة ما إذا كان شاعرنا عكوفا على الخمر أم لا ، لأن الذى يعنينا هو مدى توفيقه فى هذه الخمريات (١٩) ولن يكون من الصعب البرهنة على مدى نجاحه فى السير على نهج أبى نواس فالأمثلة الخمرية الجيدة من الكثرة بمكان ، وبحسب القارىء أن يعود اليها فى كتاب مثل « حلبة الكميت » وشاعرنا فى خمرياته يتدفق بالحيوية والبساطة والقدرة على التجسيد :

وليلة اطلعت فى جنحها   شمسا من الصهباء لم تحتجب
انشأت حربا بين فرسانها   تجرى بنا فيها خيول الطرب
أرماحها الشمع وأسيافها   نار الغضا والدم ماء العنب
نسمح للراح بأرواحنا   لكننا نرجع فيما نهب
تحت سماء من دخان لها   وثب شرار كانتفاض الشهب
إذا النسيم يشق أغصانها   حسبتها ألسنة تصطخب
فانتصب الشمع فكلفتة   أن يطلع الأترج فوق الذهب

وله مدحة فى القاضى الفاضل تعد من عيون شعره ، وقد استهلها بمقطع خمرى لقى قسطا وافرا من عناية القدماء ، فأورده ابن نباته فى مختاراته كما ذكرها ابن فضل الله العمرى فى « مسالك الأبصار » والصفدى فى الترجمة التى قدمها عن شاعرنا فى « الوافى بالوفيات » .. الخ .

وهذه المدحة تبدأ بقوله :

دعته المثانى وادعته المثالث   فها هو للندمان والكأس ثالث
وقارف قبل الموت والبعث قرقفا   يعاجله منهـا مميت وباعث

وكان الهوى أبقى عليه صبابة ... من اللب وافاها من الكأس وراث
فقام إلى أم الخبائث إنما ... بها أبداً تصفو النفوس الخبائث
وأحيا بروح الراح جسم زجاجة ... على يده منها قديم وحادث
وكم قال للصهباء إنى حالف ... فقالت له الصهباء إنك حانث

ولا شك أن أثر ابى نواس واضح هنا تمام الوضوح .

وأما ابو الطيب فانه عميق التأثير لا فى ابن قلاقس وحده ، بل فى شعراء القرن السادس الهجرى بصورة عامة ، حتى ليقول ابن الاثير :

« كنت سافرت إلى مصر سنة ٥٦٩ ورأيت الناس مكبين على شعر أبى الطيب دون غيره ، فسألت جماعة من أدبائها عن ذلك وقلت : إن كان لأن ابا الطيب دخل مصر ، فقد دخلها قبله من هو مقدم عليه ، وهو أبو نواس الحسن بن هانىء فلم يذكروا لى فى هذا شيئا ، ثم إنى فاوضت عبد الرحيم البيسانى (القاضى الفاضل) فى هذا فقال : إن أبا الطيب كان ينطق عن خواطر الناس (٣٠) » .

وفى أعمال شاعرنا نماذج كثيرة يتكىء فيها على معانى المتنبى وأساليب الصناعة عنده ، ولكن تأثير المتنبى — فيما نظن — يمتد إلى أبعد من هذا ، فشاعرنا فى جوهر أمره « متنبى صغير » عاش غريبا ومات غريبا ، وقد عرف الفقر مثله ، وعانى المهانة ، وامتلأ إحساسا بأنه خليق بالسيادة . وكان المتنبى شديد الحساسية حاد المزاج ، يحيط به الحساد والأعداء أينما حل ، ولعل نفسية ابن قلاقس تأثرت بشىء من هذا ، إذ نجده فى حياته شديد التوجس كثير الخصام لا يستقر على حال ، ولا يرضى بوانع ، وقد نراه يترنم :

ومازالت زوار الملوك مبجلا ... عزيزا عندها متكـــرما

كما نراه كثير المدائح ، ولكننا نظن أنه كان واسع الطموح ، وثابا لأن يثرى ويصبح فى غنى عن التكسب بالشعر ، مما دفع به إلى حياة الغربة والترحال ، وإذا كان المتنبى قد لقى حتفه فى أعقاب « رحلة مديح » فإن شاعرنا السكندرى وافاه قدره ، وهو عائد من مغامرة — خاسرة — كان يتطلع أن يثرى فيها عن طريق التجارة ، ولكنه لم يعد منها الا بالعطايا التى أفاضها عليه ياسر بن بلال . ومما لا شك فيه أن هذا التشابه فى المصير ليست له سوى دلالة رمزية .

وفى شعر ابن قلاقس أكثر من اقتباس من شعر ابى الطيب فمن ذلك انه ضمن شطرة :

هكذا هكذا والا فلا لا

والأبيات التى منها شطرة :

وانى عنك بعد غد لغاد

وكذلك :

تنشد أثيابنا مدائحه

كما نجده ، وقد هدت الحمى قواه يكتب ابياتا على البديهة يعارض بها قول ابى الطيب فى نفس المعنى ، ونراه يصف رجلا كث اللحية قائلا :

جاءنا يحمل ذقنـــــا حسبـــك الله وحسبى

شعرها لو كان شعرا كان مثـــل المتنبى

وفى حياة الشاعر ما يجزم بأن حبه للمتنبى ومصاحبته اياه يعودان إلى فترة شبابه الباكر ، أيام أن كان يعمل ناسخا للكتب لدى ابن خليف ، وهناك قصيدة له يعتذر فيها عن عدم تمكنه من إنجاز ديوان ابى الطيب بسبب ما كان فيه من عسر مادى .

موضوعات القصيدة :

من العسير — فى الحيز ، الذى نريده لهذا الفصل — أن نتناول كافة موضوعات القصيدة عند ابن قلاقس ، ولكننا سنتوقف امام الملامح العامة لهذة الموضوعات .

وأهم غرض تناوله هذا الشاعر غرض المديح ، فما أكثر المدائح التى كتبها وما أكثر الممدوحين الذين سعى اليهم بشعره ، وهو فى هذه المدائح الكثيرة يتقلب بين مستويات شديدة التباين ، فهناك الملوك والوزراء وكبار الساسة ، وهناك من لا يساوون فى معيار التاريخ خردلة ، هناك مدائح فى صلاح الدين والقاضى الفاضل والخليفة عبد المؤمن بن على وفى ملك صقلية . . الخ . وهناك مدائح فى أناس مغمورين لاحظ لهم من مجد أو شهرة .

وعدد لا بأس به من هذا المدائح يبدأ بالغرض مباشرة ، مثل مدحته فى صلاح الدين الأيوبى وقائده ابن مصال :

راح يرعى فى طراده طرده — فالسمر لا السمر تيمت كبده

أو قوله فى شاور السعدى وزير مصر

بك الاسلام قد لبس الشبابا — وكان سناه قد ولى فآبا

ومدحته فى شاور كذلك :

عارض الصفح فى يديك الصفاحا — ورأى البأس أن تطيع السماحا

وعشرات من المدائح التى دبجها فى ابن بلال تدخل على الموضوع بلا تمهيد فمن ذلك :

صدرنا وقد نادى السماح بنا ردوا — فعدنا إلى مغناك والعود أحمد

وتبدأ قصيدة أخرى :

أنا من جوارك فى أعز مكان — ومن اصطناعك فى منى وأمان(٢١)

ومن هذا النمط مدحته فى ملك صقلية :

يقر لغليلم المليك بن غليـــلم سليمان فى ملك داود فى حـكم

وهناك مدائح تبدأ بالوقوف على الأطلال أو بالخمر أو الغزل (٢٢) ، ومما بدأ بالأطلال قوله :

لمن رسوم الديـار باللبب قد درست من تعاقب الحقب

ومنها كذلك مدحة له فى الحافظ السلفى مستهلها :

بـين الـلوى فالجـزع فالمتثـلم دمن خلت من بعد أم الهيثم
ولقد وقفت بها وقوف متيم زمنا أسائلهـا فلـم تتكـــلم

وهو هنا يسقى الاطلال بدموعه ، ويتذكر الأحبة الذين بعدوا عنه ، ثم يستدير إلى موكب الحجيج المتجه إلى مكة ، مناشدا إياهم أن يبلغوا تحياته إلى المحبوبة ، فإن نسوا أو أهملوا فـ :

لا عرسوا بمنى ولا بلغوا المنى فيها الزمان ولا سقوا من زمزم

ولا يفوت الشاعر أن يهزأ بلوم العاذل ، ليكون هذا آخر العهد بالمقطع الطللى ، لأننا نراه بعد ذلك يمضى ممتطيا جواده « الأسحم الهزج الأصيل » ، يسرى به :

كالنجم فى وسط الغبار الاقتم

ولم ؟ اللأحبة ؟ لا ولكن :

حتى أقبل راحة الحبر الذى فاق الورى وعلا علو الأنجم !

ومن المدائح مايبدأ بالغزل مباشرة كمدحته التى مطلعها :

لمن الحمول بنجـــدة تسرى يدرين ما حملت ولا تـــدرى

أو ما يبدأ بوصف الترحال ، كقوله :

دع عنك ذكر منزل بالأبرق　　　أماته حيا السحاب المغدق

وهذه المدائح جميعا فى شيخه الحافظ السلفى ، وهناك قصائد أخرى متنوعة سار فيها على هذا النسق ، ومن المدائح ذات المقطع الخمرى ما قاله فى القاضى الفـــاضل :

دعته المثانى وادعته المثالث　　　فما هو للندمان والكأس ثالث

وأما الرثاء فإنه لا يحتل فى الديوان إلا منزلة ثانوية ، وأبرز ما له فى هذا الموضوع المرثية التى رأينا أنها ذكرت مرة على أنها فى رثاء الملك المنصور وذكرت مرة أخرى على أنها فى ابن رجا قاضى صقلية ، ومرثية كتبها فى القاضى الجليس ابن الحباب

وأما الوصف فقد مرت بنا منه الوان متنوعة ، ورأيناه كيف يلغ فيه منزلة رفيعة ، خاصة حين يتصل الموضوع بوصف البحر وأهوال السفر ، ونجد له نصوصا عديدة فى وصف الات الحرب ، ومجالس اللهو على النيل ،ووصف منارة الاسكندرية،ومما قاله فى وصف صياد يلقى بشبكته فى الماء :

وأشعث مثل أهل النار ثاو　　　بأخضر كل شط منه جنة
على يمناه أحداق صغـار　　　ترى كالماء عنه فهو جنة
فـيرسلها إليـه وهى درع　　　وتأتيه وقد ملئت أسنة

ومن تشبيهاته الجميلة :

وأدهم كالغراب سواد لون　　　يطير مع الرياح بلا جناح
كساه الليـل شملتـه وولى　　　فأقبـل بين عينيـه الصباح

أو قوله فى وصف عوادة قبيحة :

عوادة غنت لنا صوتـــا   يشبه نزع الروح والموتـا
كأنما والعود فى حجرها   ثاكلة قد أسندت ميتـــا
شبهتها من فوق أوتارها   بعنكبوت نسجت بيتـا

شكل القصيدة بين المحافظة والتجديد :

يسير القسط الأوفر من شعر ابن قلاقس وفقا للنمط المألوف للقصيدة ، وليس فى هذا الامر ما يستحق الاشارة باستثناء ما يلحظ من إكثار الشاعر — إكثارا نسبيا — من إستخدام بحر المنسرح ، ولجوئه إلى عدد من القوافى الصعبة كالصاد والضاد وأشباههما .

ونصادف هنا وهناك عدداً من القصائد التى تخالف البناء التقليدى ، فمن ذلك مدحة له فى السلفى ، أولها :

تيم قلبي أغيد   وظن فيه الجلد   وليس لى من يسعد
عليه مذ فارقـــنى

الله فى قتل فتى   ذى كبد قد فتتا   فكم وحتى ومتى
بعد الرضا تسخطنى

ومن الأشكال الأخرى قوله فى مدى السلفى كذلك :

ياعاذلى لا تطيلا عـــذلى
إنى عن عذلكما فى شغل
رضيت بالهوان والتذلل
فى حب من فى الحب لا يرق لى

ظبى ظبا أجفانه كالمرهف
ناهيكه من أغيد مهفهف
لو أنه فى كل حال منصفى
لفزت منه بالنعيم الأكمل

ومن أبدع أعماله أرجوزة طويلة فى السلفى راعى فيها تغيير القافية بعد كل شطرتين :

إن جوى لو يذهب الأوجالا يخفى الهوى ودمعه هطالا
أرقه الحب وأضنى جسده وأشمت الوجد به من حسده
فبـــات بين السقم والسهاد يبكى بدمع رائح وغادى

وقد أطال فيها من وصف المحبوب ثم تسلل من الغزل إلى الحديث عن مجلس الشراب ، حيث أرسل الموقد أنفاسه الحارة كالعقيق وراحت الأطيار من حولهم تصدح ، ، والأرض تفتر عن ازهارها ، إلى آخر هذه الاستطرادات - التى استغرقت قرابة خمسين بيتا - وصلنا بعدها إلى المديح :

والعيش كل العيش فى عصر الصبا لله ما أحسنه وأعذبا
سقيت يامعاهـــد الأحباب بعـارض منهمـل الرباب
مثل ندى الحافظ ديـن أحمد ذى المنزل الرحب وذى المفتدى

ولعل الشاعر نسجها على منوال أرجوزه ابن المعتز التى تحمل اسم «ذم الصبوح» والتى منها :

ألا ترى البستان كيف نورا ونشر المنثور زهرا أصفرا
وضحك الورد إلى الشقائق واعتنق القطر اغتناق وامق

لكن شخصية ابن قلاقس فى أرجوزته واضحة كل الوضوح، وقدرته على توليد الصور وصياغة المعانى مكتملة هنا للغاية .

وكان لهذا الشاعر إسهام فى مجال الموشحات ، ويتمثل ما نعرفه حول هذه النقطة فى نص وحيد ، يضاف إليه مطالع موشحة أخرى ضاعت مع الزمن ،ولعله ألف فى الموشحات غير ما ذكرنا ، لأن النص الذى وصل إلينا كاملا يكشف عن نضج فنى ، ووعى بالأصول العامة التى تلتزم فى هذا المضمار .

ومن ناحية أخرى فإن وجود موشحة فى شعر ابن قلاقس يعد فى حد ذاته نقطة هامة فيما يتصل بتاريخ فن التوشيح بالمشرق ، لأنه يصحح أخطاء من زعموا أن ابن سناء الملك « هو أول الوشاحين المصريين » ، ويمكن القول أنه فى حدود معلوماتنا حول الموشح المشرقى ، يعد من أوائل الوشاحين المصريين ولم يسبقه إلى التأليف فى هذا الفن أحد باستثناء ظافر الحداد وابن عياد ، وكلاهما من شعراء الاسكندرية (٢٣) .

ولم نعثر على مصدر ما يبرز دور ابن قلاقس فى الموشحات ما خلا الصفدى فى « توشيع التوشيح » و « اوافى بالوفيات » . وقد جاء فى مقدمة الكتاب الأول ، عند الحديث عن وشاحى أهل المشرق :

« . . ومن أهل الديار المصرية القاضى السعيد هبة الله ابن سعيد الملك . . ونصر الله بن قلاقس ، والأسعد بن مماتى ، وابن وزير، وابن المنجم». الخ..ويعد ابن قلاقس أقدم من ذكر من الوشاحين المشارقة ،وأما فى « الوافى » فإن الصفدى يحتفظ لنا فيه بالنص الوحيد الذى ألمعنا إليه ، والذى يستهل بـ :

نهيت عن نصحى   من رام أن أصحو   فما انتهى
وكيف للائم   أن يقتدى الهائم   كما اشتهى

ولدينا — كما قلنا - مطلع موشحة أخرى ، عثرنا عليها فى ديوانه (نسخة دبلن رقم ٤٦٢٦) فقد وردت فى هذه المخطوطة قصيدة فى مدح الكامل بن شاور مستهلها :

منع السلو لعاذر ولعاذل   غيد يحلى جيد عاط عاطل

وجاءت قبلها جملة تقول إنه أنشدها بين يدى موشحته فيه التى أولها :

ضحكت إلى الأحباب   عن ثغر الحباب

ولم نعثر له على أى شعر كتب باللغة العامية ، وإن كنا وجدنا فى وبدائع البدائه ، بليقة زجلية كتبت فى هجائه .

بين الصنعة والطبع :

لعل القارىء تعرف ، فى الصفحات التى مرت ، على طبيعة شعر ابن قلاقس ، ومدى تأرجحه بين الطبع والصنعة ، مما يجعل حديثنا هنا عن هذه النقطة بمثابة الكلمة الختامية التى نلخص فيها القول عنه وعن فنه .

ومن الطبيعى ، ونحن نعرض للصنعة ، أننا نعنى بها المبالغة فى الاستعمالات البديعية التى كان داؤها قد استشرى فى الشعر العربى منذ زمن بعيد ، ولا ننسى أن ابن قلاقس يوصف فى عدد من المراجع بأن « شعره يمتلىء بالجناس وضروب التصنع والتكلف » (٢٤) ولعل هذا الحكم قفز إلى أذهان الدارسين فور قراءتهم لإحدى قصائده التى ترتكز على التكلف ، مثل قوله :

لا أشرب الـــــراح إلا   ما بين شاد وشادن
وإن فنيت فمنــــــدى   إلى معــاد معادن
قم يانـــــديمى فأنصت   والليـــل داج لداجن

غــنى ونــــاح وفنزعـــــت ثوب خاشن مخاشن
طـــاوع على القصف والعز ف كل حاسن محاسن
هات الكميت وأهـــلا منهــا بصاف وصافن
اثــور من ذا ومن ذا فى كل غاب وغابن
وإن رمتـــنى الليـــالى يوما بـــداه أداهن

أو قوله — وهو موغل فى الركاكة والتكلف ، :

ومقتصر فى مشع مقلوب عقرب بما تحته من لسع مقلوب برقع
أبت شمسه الا الغروب وقد سما بها كلفى فى كل عضو بيوشع (٢٥)

ومن قبيل مطلع ردىء ، استحوز — مع ذلك — على إعجاب كثير من أدباء العصر المملوكى ، فذكروه مرارا فى كتبهم ومختاراتهم :

قرنت بواد الصدغ صاد المقبل وأعربت فى لام العذار المسلسل

وهذا الذى يؤخذ على شاعرنا له نظائر عند جل الشعراء الفاطميين، ود. محمد كامل حسين يعلل ذلك بأن الفاطميين كانوا مولعين بالألوان الحسية و بالمغالاة فى كل شؤون حياتهم،وكان الشعر فى تصنعه هذا صدىللمغالاة التى تصبغ عصرهم(٢٦) وأما د. شوقى ضيف (٢٧) فيرى أن هذا العصر لم يترك للعصور التالية شيئا ، فقد أكثر الشعراء فيه من الألغاز ، وكتبوا الموشحات ونهجوا نهج الحريرى وغيره من المتكلفين ، وحتى (التورية) التى زعم الصفدى وابن حجة أنها من اختراع القاضى الفاضل لها نماذج فى شعر القرن الخامس الهجرى .

وإذا كان هذا شأن جل شعراء الحقبة الفاطمية ، فلم يوصف ابن قلاقس على نحو خاص ، بالتصنع والتكلف ؟

فى حسباننا أنه يمكن تقديم إجابة لهذا السؤال حينما ننظر إلى مجموعة من العوامل المتشابكة منها ما هو قديم أصيل ، ومنها ما هو حديث طارىء ، فقد عاش شاعرنا فى حقبة ضمت من هم أعظم منه شاعرية ، مثل المهذب بن الزبير وأخيه الرشيد ، وعمارة اليمنى وغيرهم ، إلا أن هؤلاء لم يكونوا منقطعين للأدب كما انقطع هوله ، وكانت غالبيتهم تتبوأ مناصب هامة فى الدولة ، أو تسعى إلى ذلك سعيا حثيثا ، وقد علمنا أن عمارة اليمنى اعتزل الشعر فى الفترة الأخيرة من حكم شاور ، وعرفنا أن دواوين معظم شعراء العصر ، مثل الرشيد بن الزبير ، والمهذب ، والقاضى الجليس . . الخ ضاعت مع الزمن ، ولم تبق منها إلا شذور متناثرة ، أما ابن قلاقس فإنه ظل فى الأذهان أديباً وشاعراً ، وهكذا نجد أن ابن خلكان لا يؤرخ لغيره من الشعراء المصريين فى القرن السادس الهجرى ، ونجد ابن نباته يجمع فى كتاب منتخبات من شعره ، وابن حجة يؤلف « ناضج ابن قلاقس » والصفدى والعمرى والنواجى يوردون فى مؤلفاتهم مختارات متنوعة كثيرة له .

فإذا وصلنا إلى العصر الحديث رأينا أن ديوان ابن قلاقس يظل متواريا عن العيون — إلى يومنا هذا — ولا يعرف الدارسون إلا المقتطفات المبثوثة فى مؤلفات من ذكرنا ، وهم من أدباء العصر المملوكى الذين يؤثرون — فى الغالب الأعم — النماذج ذات الطابع البديعى ، ومما زاد الامر تعقيداً أن خليل مطران نشر اختيارات ابن نباته من شعر ابن قلاقس على أساس أنها ديوان الشاعر، وكان هذا الديوان المبتور المرجع الأول لمن تناولوا أعماله فى عصرنا الحديث .

والحق أن فى شعر ابن قلاقس ما يجىء صافيا متدفقا عذبا لا تكلف فيه ولا سقم ، ولعل فى ما سنقدم من نصوصه فى صقلية خير دليل على ما نقول ،

وبمعنى آخر إن المرء يستطيع أن يتخير من شعره ديوانا صغيرا يحوى كله (أو جله) شعرا خالصا لاعبث فيه ولا تكلف، ونستطيع أن نعثر عنده على ما يملأ كتابا صغيرا يحوى مثالا للتكلف والتهافت والركاكة .

وإذن فإننا نسلم بأن فى الأمر تناقضا ، لكنه تناقض لا ينفصل عن الجو العام الذى أحاط بالقرن السادس من كافة وجوهه الأدبية والاجتماعية والسياسية ، ولا يتناقض وحياة الشاعر نفسه ، هذه الحياة التى كانت مزاجا من الجد والعبث، ومن المغامرة والطيش والتعقل ، ومن السعى الحثيث نحو غايات لم يكن هناك من سبيل لتحقيقها ، ومن طموح عمر قدر له أن يذوى وهو فى شرخ الشباب .

مراجع وتعليقات

١) من الدواوين التي ظهرت ديوان عمارة اليمني ، وقد نشره ديرنبور ، وظهر كذلك ديوان أسامة بن منقذ وديوان القاضي الفاضل وديوان سبط بن التعاويذي وديوان ابن الساعاتي وديوان طلائع بن رزيك، كذلك كان لنشر وخريدة القصر ، وغيرها الفضل في التعريف بعشرات من شعراء القرن السادس الهجري ، لكن هذه الدواوين لم تدرس حتى يومنا هذا دراسة وافية ، وقد عقدت بعض دراسات حول أسامة بن منقذ وعمارة اليمني والقاضي الفاضل .. الخ لكن حياة هؤلاء الأدباء استحوذت على الجانب الأعظم من اهتمام الدارسين ، وأما الأعمال الفنية نفسها فإنها ما تزال في حاجة إلى من يعكف عليها ويبرز سماتها .

٢) للمزيد من التفصيلات يراجع كتاب « الرومانتيكية » للدكتور محمد غنيمي هلال .

٣) طبقات الشعراء ص ١٩٥ .

٤) في ديوانه (نسخة دبلن ٤٦٢٦) قصيدة تتصدرها عبارة : « وقال على لسان غيره وتعرف المقولة على لسانه .. » وهي قصيدة مدحية لعلها في أبي الحسن علي بن خليف ومطلعها :

بقيت في السعد موصولا مدى الزمن   ودمت للمجد أهلا يا با الحسن

وفي نفس الديوان قطعة ثانية من سبعة أبيات تتصدرها جملة « وله مما كتب على لسان غيره » وأول الأبيات :

لقيت حمامي إذ لقيت حميمي   وعوضت من همّاته بهموم

٥) هناك أبيات متفرقة قالها السلفى ، ليست بذات شأن ، فمن ذلك :

أنا إن بان شبــابى ومضى فلربى الحمــد ذهنى حاضر
ولئن خفت وجفت أعظمى كبرا ، غصن علومى ناضر

٦) من الأمثلة الأخرى لمثل هذا الشعر الوعظى عند ابن قلاقس :

طوبى لمن ترك اللذات وازدجرا وكان لم يقض من جهل الصبا وطرا
ما العيش إلا لمن ما زال ليلته جنح الدجى قائما عن ذاك ما فترا

وكذلك أبيات كثيرة فى قصيدته :

لمن ربوع مقفرات باللوى فالمنحنى فـذى الأراك فالوفا

والقصيدتان فى مدح السلفى :

(٧) ،(٨) مبتدأ سورة النحل « أتى أمره فلا تستعجلوه » ومنتهى سورة ص «ولتعلمن نبأه بعد حين» ، ولا شك أن مثل هذا البيت يكشف عن إستيعاب عميق لآيات القرآن الكريم .

٩) إقتبسه من الحديث الشريف « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » أنظر « معاهد التنصيص » ج ٢ ص ١٥١ .

١٠) من هذه الأمثلة قوله :

سأحمد من فكرى اليك جواهراً من الشعر قامت للمقصر بالعذر
خفضت بها الأشعار حتى كأنها وإن رفعتنى الآن من أحرف الجر

وقوله :

لئن لزنى الدهر فى حلبة عزيت بأحمــرها أحمرى
لما أطلعتنى يمين العـلا هنـالك من عقدة الخنصر
ولا كل فعلين قــد صرفا سواء سواء على المصــدر

وفى الترسل (النص رقم ٢١) تفصيلات عن « ندوة » اشترك فيها فى نخرة بغرة رجب سنة ٥٦٦ وكانت حول قضايا نحوية أظهر فيها — بحسب روايته هو — كثيراً من البراعة .

١١) فى « الترسل » .

١٢) وفيات ج ١ ص ٢٢ (طبعة محي الدين) .

١٣) العباسى (معاهد التنصيص) ج ٢ ص ٢٣ وانظر الغيث المنسجم (شرح لامية العجم) ج ٢ ص ١٦١ (ط القاهرة ١٢٩٠ ه) .

١٤) انظر الشعر والشعراء ، ط. شاكر ج ١ ص ٣٣٩ .

١٥) الخريدة ، القسم المصرى .

وأنظر أبيات ابن قلاقس فى معجم البلدان لياقوت (ط. بيروت) مادة « بلرم » .

١٦) الغيث ٢/١٥٣ ، والتنبيه إلى التشبيه ورقة ٧٨ ب .

١٧) عبد العليم القبانى « شعراء الاسكندرية » ص ٩٦ .

١٨) أحمد النجار « النتاج الأدبى » ص ١٦٠ .

١٩) نشير هنا إلى بيت للشاعر يقول فيه :

أشرب خمـــرا ثم أبكى دماً   كأنى أبكى الذى أشرب

وهو ينضح بروح « الاعتراف » ، وإذا كنا لا نستطيع الجزم بشىء حول هذه النقطة ، فإن ما نرجحه أنه كان من المدمنين لبنت الحان ، بدليل هذه الكثرة فى وصف مجالس الشرب واللهو ،ولا غرابة فى أن يكون ابن قلاقس شيخا ومقبلا على الخمر فى الوقت نفسه ، فقد ذكر المقدسى فى « أحسن التقاسيم » ص ٢٠٠ أن

« المشايخ فى مصر لا يتورعون عن شرب الخمر » كما أشار المقريزى إلى إنتشار الحانات فى القاهرة والفسطاط وغيرهما من المدن .

٢٠) الوشى المرقوم ص ١٠ .

٢١) من مدائحه الأخرى فى ياسر بن بلال ، مما يبدأ بالغرض الرئيسى مباشرة

نجوم علاك قد طلعت سعودا   وعرف سناك فينا فاح عودا

و : أحكم على الثقلين الإنس والجان   فأنت أقوم بالملك السليمانى

و : آيات مجدك لم تزل تتلى   وصفات مجدك لم تكن تبلى

و : إليك من ملك سام ومن ملك   كانت لنا الفلك مرقاة إلى الفلك

و : يريع الذئب حيث سواك راع   ويثلم غير نصلك بالقراع

ومن المدائح الأخرى التى تبدأ بالموضوع بلا تمهيد قوله فى شاور :

طليعة جيشك النصر المبين   ورائد عزمك الفتح اليقين

٢٢) من أمثلة ذلك قصيدة مطلعها :

وعدت ولم تف لى بذاك الموعد   فغدا الغرام غريم قلبى المكمد

٢٣) ناقشنا قضية الموشحات وانتقالها للمغرب فى بحث مفصل بعنوان « نشأة فن التوشيح بالمشرق » يجده القارىء بالمجلد الثانى من مجلة « كلية الشريعة والدراسات الاسلامية » بمكة المكرمة ، كما تناولنا دور ابن سناء الملك بالتفصيل فى دراسة عن « ابن سناء الملك وكتابه دار الطراز » نشرت فى مجلة « الثقافة » القاهرية أغسطس ١٩٧٨ وفى كتابنا « الموشحات الأندلسية » .

٢٤) د. شوقى ضيف « الفن ومذاهبه فى الشعر » ص ٤٧١ . وانظر كذلك د. محمد كامل حسين « فى أدب مصر الفاطمية » ص ٢٦٢ .

٢٥) علق العباسى فى « معاهد التنصيص » ١٨٩/٢ على هــذا البيت قائلا إنه شاهد من شواهد التلميح : «هنا إشارة إلى يوشع بن نون واستغاثته بالشمس فإنه قاتل الجبارين يوم الجمعة، فلما أدبرت الشمس للغروب خاف أن تغيب قبل قتالهم فدعا الله فرد له الشمس حتى فرغ من قتالهم » .

٢٦) « فى أدب مصر الفاطمية » ص ٣٠٧ .

٢٧) « الفن ومذاهبه فى الشعر » ص ٤٨٢ .

القسم الثالث

النصوص الصقلية

استنادا إلى مخطوطات القاهرة — باريس — دبلن — فينا — برلين —
ليننجراد — نيوهافن

تمهيد

هذه مجموعة « النصوص الصقلية » من شعر ابن قلاقس الإسكندرى ومن آثاره النثرية، استقيناها من مخطوطات ديوانه بنسخه المختلفة (دبلن — باريس — فيينا — لينجراد)، وقابلنا هذه النصوص على ما تيسر لنا من مصادر مطبوعة أو مخطوطة ، وبخاصة المختارات التى انتخبها نباتة من الديوان ، والقطع النثرية والشعرية التى أتى بها العماد الأصفهانى من كتاب «الزهر الباسم» ، وكتاب أبن حجة الحموى « ناضج ابن قلاقس (مخطوطة نيوهافن) ، وترسل ابن قلاقس (مخطوطة التيمورية) .

وقد رصدنا الفروق الهامة بين النسخ المختلفة ، وإن كنا آثرنا ألا نسجل ما هنالك من اختلافات بين نسخ « المختار من ديوان ابن قلاقس » — صنعة ابن نباتة — إلا فى الحالات المتميزة فحسب حتى لا تزدحم الهوامش بذكر ما لاجدى منه من الأخطاء المطبعية والإملائية العديدة التى صادفناها .

ولم نشأ أن نورد من النصوص إلا ما ثبت لنا أنه يتصل بصقلية ، من إشارة فى مستهل القصيدة أو الرسالة ، أو دليل فى العمل نفسه .

ومن النصوص التى وقفنا حائرين بإزائها برهة من الزمن قصيدة أولها :

متدذوها من القدود رماحا وانتضوها من الجفون صفاحا

ففى الديوان أنه قالها فى مدح « أبى الحسن على بن الشيخ أبى القاسم بن أبى الفرج » سنة ٥٦١ وأبياتها :

حسن جاء من أبى الحسن الند ب فرد الحسان عندى قباحا
نحسبه بالطروس روضا أنيقا يجتليه الشقائق وأقاحا

وكفاه من المعـــانى اللواتى يجتليهـــا حجاه روحا وراحـا
من أبي القاسم اقتسمت صفات زدت أوضاحـــها لها ايضاحا

وخيل لنا وقتها أن أبا الحسن هذا قد يكـون ابنـا لأبى القـاسم ابن الحجر (الصقـلى) إلا أن معـاودة النظر أثبتت لنـا أن هـذه المدحـة فى أحـد رجالات الإسكندريه .

ويجىء فى الخريـدة أكثر من قطعـة فى بعـض المغنـين هى قـوله فى وصف مغن :

لا أشـرب الـراح إلا مابـــين شـاد وشـادن

وقطعتان فى ذم زامر ، ورابعة فى وصـف مغن ، وهذه النصـوص تجىء فى الخريدة (وفى الديوان) مسبوقة ومتبوعة بنصوص صقلية ، ولكننا لم نشأ إثباتها هنا ، لأن محتواها لايؤكد أنها كتبت فى أثناء الرحلة الصقلية .

وتحتوى إحدى نسخ الديوان (مخطوطة دبلن ٣٨٠٠ ورقة ٩٠)على مقدمة قصيدة هى : « وصنع فى الحضرة القائدة جدد الله سعدها ، وأسعد جدها قصيدة تمي شكل خاتم ، وتستقرىء منها أوصاف كعب وحاتم وهى : .. » وبعدها بياض فى بقية الصفحة ، والمرجح أن الاشارة هنا للقائد أبى القاسم بن الحجر .

كذلك لم نثبت قصيدة أولها :

عقـدوا شعـورهم عمـائم ونضـوا جفـونهـم صـوارم

تجىء فى « المختار من ديوان ابن قـلاقس » على أنها فى مدح « أبى الغنائم الصقلى » ، وقد استندنا فى إسقاطها على ما جاء فى « ترسل ابن قلاقس » : « وكتب إلى أبى الغنـائم بن أبى الفتوح الكمونى متولى الفرضة بثغر عدن ، فى ذيل قصيدة مدحه بها أولها :

عقدوا شعورهم عمائم

كذلك ترد هذه القصيدة فى مخطوطه دبلن (٤٢٢٦) على أنها فى مدح « صاحب ديوان ثغر عدن » .

* * *

وإننا ، ونحن نقدم هذه المجموعة ، لنأمل أن يتاح للكشف عن مخطوطة « الزهر الباسم » التى تحتوى ، بلاشك، على الكثير من النصوص الصقلية الأخرى .

والحمد لله رب العالمين .

اختصـــارات

د ١ : مخطوطة دبلن رقم ٤٢٢٦ .

د ٢ : مخطوطة دبلن رقم ٣٨٠٠ .

ب : مخطوطة باريس رقم ٣١٣٩ .

ف : مخطوطة فيينا رقم ٤٦٨ .

ل : مخطوطة ليننجراد رقم ٢٩٧ .

المختار : المختار من ديوان ابن قلاقس طبعة خليل مطران

بر : مخطوطة برلين ٧٦٩٤ (من المختار)

ترسل : ترسل ابن قلاقس ، مخطوطة التيمورية .

الخريدة : خريدة القصر (القسم المصرى) .

مسالك : مسالك الأبصار (مخطوطة القاهرة) .

مطلع : مطلع الفوائد (مخطوطة باريس) وطبعة دمشق .

الغيث : الغيث المنسجم (ط . القاهرة) .

نفح : نفح الطيب (ط . القاهرة) .

تأهيل : تأهيل الغريب (مخطوطة باريس) .

حلبة : حلبة الكميت (ط . القاهرة) .

التذكرة : التذكرة الصفدية (مخطوطة القاهرة) .

ياقوت : معجم البلدان (ط. بيروت) .

وفيات : وفيات الأعيان (ط. محي الدين عبد الحميد)

الوافى : الوافى بالوفيات ، مصورة من نسخة استامبول .

التنبيه : التنبيه على التشبيه (مخطوطة باريس) .

أمارى : المكتبة العربية الصقلية .

أزهار : أزهار الرياض (مخطوطة باريس) .

(١) وقال ، وكتب إلى الحافظ السلفى من ثغر الاسكندرية حماها الله تعالى فى سنة إحدى وستين وخمسمائة، والمكتوب إليه القائد أبو القاسم بن الحجر الصقلى:

(المنسرح)

أرقصها مطرب الأغاريد   فاسترقت هزة الأماليد
ودب خمر السرى بأذرعها   فهى على البيد فى عرابيد
وغادرتها الصبا بمهلكة   تفجر الماء فى الجلاميد
تحمل عن روض عالج خبراً   تسنده عن ظبائه الغيد
أجرى عليه السحاب دمع شج   ومزق البرق قلب معمود
فأغرق الريح بين أربعها   موج وجيف ببحر توخيد
وخيلت ماءهم تبل صدى   ومورد الآل غير مورود
فى ذمة الشوق مهجة ركضت   تتبع زورا من المواعيد
أهدى إليها الخيال إذ كحلوا   جفون أحداقها بتسهيد
وانعطفوا للأراك وهى على   عهد من البان غير معهود
عذر يهز الجفاء دوحته   تحت صدوح الملال غريد
وناصح يمحض المودة لى   وليس فى نصحه بمودود
[ظن فؤادى معى فأنبهه   وهو من الموج غير موجود]
سار وجيش الغرام يتبعه   تحت لواء عليه معقود
يحط بمجهولة تضل بها   على اعتراف مناجز السيد
يلقى المرجين من أسرته   بشر كفيل بحسن تمهيد
ويغتدى عند كل نازلة   غوث صريخ وغيث مصدود
ويبسط العذر عن مقصرة   بطول طول عليه ممدود

ومنها :

[عرج عنها الصباح منطلقا   وغادر الليل رهن تقييد
لا يعرف الثعلب المقيم بها ،   لولا الثريا ، مكان عنقود
من علق البيض صارمت يده   حبال تلك الغدائر السود
وعمة الشيب لا خدعت بها   أخلق شيء أوان تجديد
واللهو خدن الصبا فمذ فقدت   أيامه لم يكن بمحمود
وأغبن الناس من ألم به   فقد سواد وفوت تسويد
وفى بنى الدهر كل معضلة   من الذى فات والمواجيد
إن اسكرونى بخمر لومهم   فقد رموا عرضهم لعربيد
وموعد صاح بى فقلت له   رب وعيد يطيح فى البيد
قد أقسم الحمد لا يسير إلى   غير أبى القاسم بن حمود
فى يــده للنــوال معركة   أرى بها البخل صارم الجيد
وعنده للضيوف نار قرى   تعرفها البزل كلما يودى

ومنها :

وتلتقى كتبه الكتائب فى   جيش من الخط صائد الصيد
بكل لفظ كأنه نفس   غير ممل بطول ترديــد
صحت معانيه فاقتسمن إلى   فضل ابتكار وحسن توليد
وربما استضحك الخميس به   عن أهرت الماضغين صنديد
يهوى قوام القناة ذا هيف   ووجنة العضب ذات توريد

ترد فى دا مصدرة بـ : « وكتب إليه بها » الخ . . مسبوقة بمدائح فى الحافظ السلفى . وهى فى الخريدة ١٥٢/١ ما عدا ١، ٧، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨ مصدرة بـ : =

ومنها :

دوحه مجــد تميد ناضرة لمحسنات بحسن تجديد
عرضت منها لنار تجربتى عوداً ففاحت روائح العود]

= « ومن شعره فى (الزهر الباسم) قصيدة مطلعها ، والبيتان الأخيران فى المختار دبر

١ — الخريدة : رافقها مطرب
٣ — دا : بمالكه
٤ — عالج : اسم موضع
٥ — الخريدة : جيب مصدود .
٦ — دا : توحيد . والتوخيد : ضرب من المشى السريع . الموج الوجيف : المضطرب .
٩ — دا : أهدو إليها
١٢ — الخريدة : ينصح المودة
١٣ — زيادة من الخريدة
١٤ — دا : سار جيش
١٩ — هذا البيت وما يليه إلى آخر القصيدة زيادة من الخريدة .
٣٦ — المختار : يميس من غصونه ميد

(٢) وقال بمدينة صقلية (١) بتاريخ سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، وفى منتصف شهر رمضان منها ، يمدح القائد أبا القاسم بن الحجر ، وبنيه أبا بكر وعمر وعثمان :

(البسيط)

زهرن فاعجب لروض ما له زهر ... إلا المباسم والألحاظ والطرر
ولا تقل لهب الوجنات يحرقها ... فللعذار على أرجائها نهر
أعجب لها غررا قالت محاسنها ... بالنفس تحمد فى أمثالى الغرر
سفرن والليل طرف أدهم فجرت ... فيه الحجول من الأنوار والغرر
وقن يحملن فى الأجفان مرهفة ... لو كانت البيض قلنا انها البتر
وكان من فعلها بالسحر أن هجمت ... على العشاء بما يأتى به السحر
فما ارتقيت الدرارى إذ سهرت لها ... إلا لا صداف حتم كلها درر
ولا اجتليت بدور الأفق عن كلف ... إلا لمن اتلفت فى صونه البدر
وفى الحشا والحشايا صبوة كبرت ... فزادها عنفوانا ذلك الكبر
تورى زناد اشتياق استطار به ... لا من مشيبى ولكن أدمعى شرر
وفى فؤادى لا فودى قتير هوى ... لم يخفه الشعر إذ لم يخفه الشعر
خذ من غرامى ما تتلو به سورا ... محذراتك ما تبلو به الصور
أما الخدور فلم يسكن بها قلقى ... يوما ولم يمش فى أشواقها الخدر
فإن تمنع قلبى من تقلبه ... فما انتهى بى لعمرى فى الهوى الغمر
إن قلت مال فما قصدى به غصن ... أو استنار فما قصدى به قمر
أنا المحب وما بى ما يقال له ... أولى لك العذل أم اولى لك العذر
خلقت كالنبع إلا أن لى ثمرا ... والنبع عريان ما فى نبته ثمر

المال عند ذوى الإقتار محتقب والمال عند ذوى الأقدار محتقر
فإن عدمت الذى صاروا به عدما فما افتقرت وعندى هذه الفقر
ولم أطف بركابى إن نبا وطن ولا أطلت اغترابى إن نأى وطر
لكن بنو الحجر استدعت مكارمهم عزمى وقد كان يستدعى به الحجر
نادى لسان الندى منهم فأسمعنى فقمت أعبر بحراً كـــله عبر
ترى المواخر تجرى فى زواخره فترتقى فى أعاليها وتنحدر
من كل سوداء مثل الخال يحملها بوجنة منه فيها للضحى خفر
حتى وردت فأروانى وأحسن بى صدر موارده يشجى بها الصدر
كانت مناقب آمـــالى منقبة فالآن أسفر عن جبهاتها السفر
هذا أبو القـــاسم المقسوم نائله ماالسيل ما البحر ما الأنهار ماالمطر
محاسن إن أبو بكر تقدمها فما تأخر عثمان ولا عمر
سمعت عنهم وقد شاهدتهم نظراً فأحسن الخبر ما لم يحسن الخبر
كذاك جاد وأندى فيه بحد ثناً فليس يعرف لا حصر ولا حصر
والشعر منه قصير عمره زهر يذوى ومنه طويل عمره زهر
فكالمواعظ سهـــل صوغها زبر وكالحديد ثقيل وزنه زبر
أو كالعيون فهذى لحظها حول يغض منها وهذى حظها حور
ياقائداً قاد من وصفى لعـــترته ما تحمل المسك من أنفاسها العتر
لله در حياء حزتـــه وحيا كأنك العضب فيه الأثر والأثر
تثير بالقول أو تـــثرى مجانسة فلفظك الضرب المعسول والضرب
وفى يمينك يجرى كيف تأمره ما يحسد الذكر منه الصارم الذكر
تلك البراعة من تلك البراعة إن تقصي السمر عنها طول السمر

وكم تشاجر أقوام فقلت لهم   إن الأصول عليها تنبت الشجر

(٤٠) أنالنى فى اغترابى كل مغربة   فما النفير بمعدوم ولا النفر

وشد أزرى فلم أحفل بنائبة   تقول أبياتها هيهات لا وزر

من بعد ما قرعتنى كل قارعة   أيامها الحمر لا أعيانها الحمر

وبت أضرب بالأشعار طائفة   لو أنهم ضربوا بالسيف ما شعروا

إذا نحت القوافى من مقاطعها   قالوا تكلف لنا أن يفهم البقر

(٤٥) إليك جئت بها عذراء منشدة   لا عذر عندك إن لم تفضض العذر

أنصفتها بك نصف الشهر شيقة   تكاد لو أخرت للفطار تنفطر

وطابقتك فمنها الدر منتظم   كما رأيت ومنك الدر منتشر

ترد فى دا ، وهى فى المختار ما عدا الأبيات ٣ ، ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٦ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ . وفى الخريدة ماعدا الأبيات ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٧ ، ٢٥ — ٢٩ ، ٣٤ ، ٣٦ — ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٥ — ٤٧ . ومنها فى مسالك ١ ، ٩ ، ١١ ، ١٣ ، ١٧ ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ .

١ — المختار ، مسالك : سفرن

٢ — المختار : فالمعقود على أرجائها

٣ — الخريدة : أحسن بها .. بالنفس يحمد

٤ — المختار : ولحن والليل .. من الأنواء

٥ — المختار : وقلن

٦ — الخريدة : أن فعلت

٧ — الخريدة : إلا كأصداف تم حشوها درر

=

= ١٠ — دا : لى من مشيبى ولكن أدمع
١١ — القتير : أول ما يظهر من الشيب . وفى المختار وبر : إذ لم يبده
١٣ — المختار : أما الحذور فلم يجنح لها قلقى ... الحذر
١٥ — الخريدة والمختار : ماس فيا
١٦ — الخريدة : لا أولى
١٧ — دا : ما فى فرعه . النبع : شجر تتخذ منه القسى والسهام
١٨ — دا والمختار : ذوى الأوزار .
٢٠ — الخريدة : إن نأى وطن .. ان نبا وطر
٢١ — المختار : وقد كاد
٢٢ — المختار : أعبر سحرا
٢٣ — دا : زواجره
٢٤ — المختار : بكل سوداء
٢٥ — دا : حتى وددت
٢٩ — المختار وبر : فالخبر أحسن ما لم
٣٠ — الخريدة : لذلك جادوا ندى فيه أجدت بنا . المختار : اجدت ثنا
٣٢ — الزبر : جمع زبور : الكتاب ، وجمع زبرة : القطعة الضخمة من الحديد
٣٣ — المختار : مثل العيون . دا يغض منه
٣٤ — المختار ، مسالك : ياقائلا .. من شكرى . دا : من أنفاسها
٣٥ — بر : حباه حزته . صبا قد . الخريدة : منه الأثر
٣٧ — دا : الذكر عنه =

= ٤١ ـ لا وزر : لا ملجأ

٤٢ ـ دا : الجمر من أعيانها

٤٥ ـ المختارون : أن لا تفضض

٤٦ ـ المختار : مشبعة

٤٧ ـ المختار : كما تراه

(٣) وقال يمدح القائد الأجل أبا القاسم بن حمود بن الحجر بجزيرة صقلية :

(البسيط)

ألحق بنفسج فجري وردتي شفقي … كافورة الصبح فتت مسكة الغسق
قد عطل الأفق من أسماط أنجمه … فاعقد بخمرك فينا حلية الأفق
قم هات جامك شمسا عند مصطبح … وخل كاسك نجما عند مغتبق
واقسم لكل زمان ما يليق به … فإن للزند حليا ليس للعنق
هب النسيم وهب الريح فاشتركا … في نكهة من نسيم الروضة العبق
واسترقصتني كاسترقاص حاملها … مخضرة الورق في مخضرة الورق
وبت بالكأس أغنى الناس كلهم … فالخمر من عسجد والماء من ورق
كم وردت وجنات الصرف في قدح … فتحت بالمزج ما يعلوه من حدق
يسعى بها رشأ عيناه مذ رمقت … لم يبق في ولا فيها سوى الرمق
حبابها وأحاديثي ومبسمه … ثلاثة كلها من لؤلؤ نسق
حتى إذا أخذت منا بسورتها … مآخذ النوم من أجفان ذي أرق
ركبت فيه بحاراً من عجائبها … أني سلمت وما أدرى من الغرق
ولم أزل في ارتشافي منه ريق فم … أطفأت في برده مشبوبة الحرق
يا ساكن القلب عما قد رميت به … من ساكن القلب مع مافيه من قلق
لا تعجبن لكل الجسم كيف مضى … وإنما اعجب لبعض الجسم كيف بقى
لم أسترق بمنامي وصل طيفهم … فما له صار مقطوعاً على السرق
ولا اجتلى الطرف برقا من مباسمهم … فما له مثل صوب العارض الغدق
في الهند قد قيل أسياف الحديد ولو … لا هند ما قيل أسياف من الحدق
لسيت ما تحت تفتير الجفون أما … خلوقة الجفن اثر الصارم الذلق
وبت بالجزع في آثارهم جزعا … إن جرد البرق ايماضا على البرق

في نار وجدي معنى من تلهبه　　　وفي فؤادي ما فيه من الومق
خوف أبو القاسم الأرزاق قسمه　　　عني فقد صح إفراقي من الغرق
القائد القائد الضدين في شيم　　　كالماء يجمع بين الري والشرق
تهلل الوجه منه مثل شمس ضحى　　　وانهلت اليد مثل العارض الغدق
وجدد النعم اللاتي نثرت لها　　　أزاهر الروض باسم الملبس الخلق
وحاز وصفي دقيقا رائقا فله　　　تشابه الحسن بين الخلق والخلق
وثقل المن حتى رمت أحمله　　　على عواتق أمداحي فلم أطق
فلست أعرف عماذا أقول له　　　خفف أعن عنق الأشعار أم عنق
مضمر العزم لو جاراه في طلق　　　من بطشه البرق لم يوجد بمنطلق
رئاسة تطأ الأعناق صاعدة　　　فلا كبت وهي بين النص والعنق
خصت بني الحجر الياقوت واعتزلت　　　قوما هم الحجر المرمى في الطرق
تخالف الناس إلا في فضائلهم　　　فليس تنظر فيها غير متفق
مراتب لأبي بكر بها سبق　　　كما أبو بكر المخصوص بالسبق
وهمة عمر فيها رأى عمرا　　　فضمها عنده الفاروق في فرق
وبسطة يرتقي عثمان هضبتها　　　رقي عثمان الا ساعة الزلق
فضل أبو القاسم المشهور قسمه　　　فيهم فهم في بهيم الدهر كالبلق
ولم تزل لعلي فيه أبو حسن　　　فآلا علو وحسن غير مختلق
وطاهر طاهر الأعراض من دنس　　　يدنو، وخيرون خير الراهن العلق
وللفتوح من الخيرات أجمعها　　　أبو الفتوح الذي صفي من الرنق
تبارك الله باري المجد من حمأ　　　وخالق الكرم الفياض من علق
فشد وسد واستردوا سعد وجد وأجد　　　وشق وارق وفق واسمق وسق ورق
وإن يكن لي بجسم عن ذراك مضى　　　فإن عندك قلب في ذراك بقي

(٥) ترد فى دا ومنها فى المختار من ١ إلى ٩ و ١٤ ، ١٥ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ وفيه « وقال يمدح أبا القاسم بن حجر صاحب صقلية » وفى الوافى من ١ إلى ٢١ ما عدا ٥ ، ٨ ، ١١ ، ١٢ وحلبة ٣٢٦ من ١ إلى ١٣ ماعدا ٥ ، ٨ وفى تأهيل (النواجى) من ١ إلى ٢٨ ماعدا ٥ ، وفى التنبيه ٣٦ البيتان ٢٢ ، ٢٣ .

وهى فى الخريدة ماعدا ١٧ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٤ (وكذلك بقية القصيدة) وصدرها العماد بقوله « وله القصيدة السيارة التى مطلعها » . وفى مطلع : ١ ، ٣ ، ٤ ، ٧

١ — المختار : الحق ينفج . . شفق .

٢ — تأهيل ، حلبة قد عطل الصبح ، فاعقد لجرك ، الأفق .

وفى الخريدة : قد عطل الحسن من أسمار .

٣ — جامك نجها : الجام وعاء من فضة تشرب فيه الخمر .

٤ — مطلع : لكل زمان ما يوافقه :

٥ — المختار : كنسيم الروضة .

٦ — المختار : بحضرة الورق . تأهيل : فى مخضلة الورق .

٧ — كذا فى دا ، وفى الخريدة : ومطلع فظلت . المختار : فصرت والكأس من

٩ — المختار : ان عينه رمقت .

١١ — الخريدة : شئ بسورتها

١٢ — « : انى سلبت ولم أشعر .

١٤ — السرق : شقق الحرير .

١٦ — يجىء بعده فى الخريدة أنه أخذه « من شعر أبى محمد بين سنان الخفاجى » حيث يقول :

إذا سكنتم فقلبي دائم القلـــق　　وان رقدتم فطرفي دائم الأرق
سرقت بالنوم وصلا من خيالكم　　فصار نومي مقطوعا على السرق

١٩ — الذلق : القاطع الحاد .

٢١ — الولق : الإسراع المتتابع .

٢٢ — المختار : حرب .

٢٥ — المختار : مثل الملبس .

٢٦ — دا : وحار وصفي رقيق رائق ، وفي المختار وبر : رقيق رائق .

٣٠ — النص والعنق : ضربان من السير الفسيح السريع .

٣٦ — ساقط من دا　　٣٩ — الزنق　　(المكاره)

٤٠ — العلق : الدم الغليظ الجامد ، وفي القرآن الكريم « خلق الإنسان من علق » ٢ العلق ٩٦ .

(٤) وقال :

(السريع)

نعم هو البرق على الأنعم … فاشق به ان شئت أو فانعم
لاح بأعلى هضبة خافقا … خفق لواء البطل المعلم
وزل من سهوة طرف الدجى … سقطة حجل الفرس الأدهم
حتى إذا قابل وادى الغضا … أغضى على مدمعه المثجم
واستقبل السفح وكم فوقه … من مقلة سائلة بالدم
فعندما شق كنوز الربى … عن ذلك الدينار والدرهم
قام نساء الحى يجنينه … بين فرادى منه أو توأم
فأشكل النوران من مفعم … تعبق رياه ومن مبسم
واشتبه الروضان فى نضرة … إلى حياء وحيا مبسم
ما بين وجنات إلى أعين … وبين حيرى إلى حيرم
ومعرك بينهما لم يزل … يفتك فيه الظبى بالضيغم
هول حمى بات كثيب له … مجردا من شمله المحتمى
تمنع ضيف العين منه القرى … وهو مباح ليد أو فم
يا عاقرى النيب لضيفانهم … غلطتم فى كبد المغرم
كم من دم بات به حبكم … كأنه ملتقط العندم
وكم عيون أصبحت عندكم … معدودة فى جملة الأسهم
أتلفتم قلبى فهاذا الذى … خفف عنكم ثقل المغرم
لا طرقت ربعكم غارة … تسأل فيها معشرى عن دمى
ولا سرت نحوكم أسرة … تأسر بالداهية الصيلم

من كل من تصدر أسيافه … بضربة مثل فم الأهتم
يقول إن جر كعوب القنا … تأبط الضيغم بالأرقم
لو لم يكن من فتكات الهوى … شفت على الحافر والمنسم
ما هذه أول ما ردني … عنه بلا أجر ولامغنم
فخل عن عتبك لى انها … شنشنة تعرف من أخزم
ولاتخف منى ضياعا فقد … حفظت عند الحافظ الأكرم
(أقسمت بالله ولولا علا … بجد أبى القاسم لم أقسم)
(أن ابن حمود له راحة … تستجلب الحمد من المرزم)
الجمل المنعم ان حبرت … مدائح فى الجدل المنعم
والكعبة الغراء لكنه … يحل مايحرم للمحرم
فى كل يوم لوفود الندى … ببابه يجتمع الموسم
للمال من راحته عندهم … أمثال ما للماء من زمزم
يفيض بحر الجود من كفه … فيزدرى بالزاخر الخضرم
يملى وقل يملأ مسترسلا … حقائب المنجد والمتهم
سائله أو سلمه يجد عنده … هدى جهول وغنى معدم
لو تحمل الأيام آدابه … لم يظلم الدهر ولم يظلم
ولو أعار الليل آراءه … ما احتاج ساريه إلى أنجم
فضائل كادت لإفراطها … تنطق بالشكر فم الأبكم
مابدأ الاحسان فاحتاج أن … يقول راجيه له تمم
حلو إذا لوين مر إذا … خوشن طعم الشهد والعلقم
حكمه الله فأحيا به … نص الكتاب المنزل المحكم
وأصبح الشرع به قيما … يهدى طريق السنن الأقوم

يروى فيروى بأسانيده	غلة فهم المعشر الحسوم
هذا وكم أيقظ ذا غفلة	غادره فى سنة النوم
مقدم الذكر وإن لم يكن	ممن أتى فى الزمن الأقدم
(٤٥) ولو أتى فيه لحط اسمه	من البخاوى ومن مسلم
يامن يجاريه إلى غاية	سالمه وارجع دونه تسلم
لايرتقى للنجم ذو سلم	فكيف من كان بلا سلم
ياسيدا أفعاله غرة	فوق جبين الزمن الأدهم
صم وافر الأجر وصم حاسدا	يشجوه قولى لك صم أوصم
(٥٠) وابق وزد واعل وسد واصطنع	وارق وجد وابد وعد واسلم

---

(٥) ترد فى ب ، ف ، ل ، كما ترد فى د ٢ ، مسبوقة فى ب : « وقال يمدح الفقيه الحافظ أبا طاهر أحمد بن محمد السلفى الاصبهانى رحمه الله » (وتذكر بقية النسخ انها فى الحافظ السلفى) وينقصها البيت الثامن والبيتان ٢٦ ، ٢٨ ، ومنها فى المختار ١ ، ٢ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١٤ ، ١٥ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٨ — ٥٠ وذكر أنها فى مدح القاضى السلفى .

وهى فى الخريدة ماعدا الأبيات ٢٥ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ وقد جاء قبلها : « ومن شعره فى الزهر الباسم قصيدة مطلعها :

رافقها مطرب الأغاريد فاسترقت هزة الأماليد

وبعدها : « ومن القصيدة الموردة الثانية كاملة مطلعها :

نعم هو البرق . . . الخ

وإذن فنحن أمام قصيدة واحدة كتبت مرة فى الحافظ السلفى ، ومدح

= بها مرة أخرى ابن الحجر فى صقلية بعد أن أضاف اليها الشاعر وحذف منها عددا محدودا من الأبيات .

ولسنا نملك ما يجعلنا نؤكد أنها قيلت أولا فى السلفى ثم أعيد تقديمها لابن الحجر ، ولكننا نرجح هذا الإحتمال ، استنادا إلى أن العماد نقـل نصها من « الزهر الباسم » لا من الديوان ، وكأننا نفترض أن الشاعر أجرى تعديلا على النص وهو فى صقلية ليتناسب والممدوح الجديد ، وأدرجه ضمن « الزهر الباسم » .

٣ — يجىء فى بر ، وهو ساقط من المختار .

٤ — ب : المشخم . والمتشجم : شديد الطول .

٦ — الخريدة : فجينها .

٧ — ب: يخنينه . ف : يجنينه . المختار : قام فرادى .

٨ — ب ، ف : فى منسم .. فى مبسم .

٩ — ب : واشتبه النوران فى نصره . حزرى إلى حزم . المختار : الروضان فى نضرة . الخيرى : ضرب من الزهر . الحيرم : البقر الوحشى .

١٠ — ف : خرم .

١٢ — الخريدة : بين حمى .. من شملة .

١٤ — يجىء بعده فى الخريدة الأبيات ١٣ ، ١٥ ، ١٦ — فى المختار : البيت .. لأضيافهم .

١٥ — ل : كم دم به بات ١٨ ب : يسأل .

٢٠ — الخريدة : من دم الأهتم . والأهتم : لقب سنان بن خالد .

٢٢ — ب : لو لم يكن فى .. سيقت . ل : سقت .

٢٤ — فى د ٢ ترد الأبيات حتى رقم ٢٨ مضطربة مشوهة تماما .

٢٥ — المختار : لا تطلبوا منى ضياعا وقد .

٢٩ — الخريدة : لكنها تحل المحتار : بنانه .

٣٢ — ب ، ف ، ل ، د ٢ : بحر العلم ب : الحضرم .

٣٦ — الخريدة : إلى الأنجم .

٣٩ — المختار : مقدم الفضل .

٤٤ — المختار : طعم الشهد .

٤٥ — ل : يخط . ف : بخط .

٤٩ — المختار : يشجيه .

(٥) وقال أيضا يهنؤه بالعيد وابلاله من مرض :

(الخفيف)

سفرت عنك أوجه الأسفار ... وجرت بالمنى اليك الجوارى
فرفعنا لك الكواكب يابد ... ر الدياجى على الهلال السارى
وركبنا على عذاب بحار ... أنزلتنا على عذاب بحار
واعتساف الأخطار محمد ما كا ... ن طريقا إلى ذوى الأخطار
ما امتطينا أخت السحائب إلا ... لتوافى بنا أخا الأمطار
كل نون من المواكب فيها ... ألفات مصفوفة للصوارى
تقسم الماء والهواء بساق ... وجناح من عائم طيار
وهى ضدان من جوانح ليل ... قد أقيمت ومن جناحى نهار
صورت كالفيول لولا قلوع ... أبرزتها فى صورة الأطيار
عوضتنا الأوطان عندك والأو ... طار بعد الأوطان والأوطار
فاستحقت بأن تحوض عودا ... بعد عود وعنبرا قار
إنما أنت ياأبا القاسم القا ... سم للجود لا على مقدار
صقلت صفحتا صقلية منـ ... ـك فوافت كا لصارم البتار
وكستها خلالك الزهر طيبا ... أرجته مجامر الأزهار
وسقتها ببنان كفك ريا ... سلسلته سلافة الأنهار
وأياديك إنهن ثمار ... حلتها معاطف الأحرار
ومساعيك أنهن نجوم ... أطلعتها مشارق الأقدار
ومعاليك أنهن شموس ... مشرقات على سماء الفخار
أنت بالفصل فى بنى الحجر السا ... دة مثل الياقوت فى الأحجار

وذلك البيت في الرياسة كالبيـ ... ـت أتته الزوار كالزوار
فـتراه وللمديح طـواف ... حوله فوق أنيق الأفكار
بمـكان ترمى أياديك بالجمـ ... ـر خلال القلوب لا بالجمار
كل عيد أوشحت لك ياشمـ ... ـس المعالى در النجوم الدرارى
لو عدت عادة لراقك منها ... تحت عقد الزنار حل الإزار
وبحق أتته أقطار شعرى ... حـين طالعته بمثل القطار
لم يقل فيك بعض ما أنت فيه ... أين أعشاره من المعشـار
وبيمناك طير يمن وسعد ... أصفر الظهر أسود المنقار
قلم دبر الأقاليـم فالكتـ ... ـب به من كتائب الأقدار
ياطراز الديوان في الملك أصبحـ ... ـت طراز الديوان في الأشعار
وبنوك الذين مهما دجا الخطـ ... ـب أرونا مطالع الأقمار
فأبو بكر الذى أحرز المجـ ... ـد بسعى الرواح والابتكار
وتـلاه فيها تـلاه أخوه ... عمر عاش أطول الأعمار
ولعثمان حظ عثمان الا ... في الذى دار من حديث الدار
حفظ الله منك جملة فضل ... بان في حفظها صنيع البارى
أنت كأس من المحامد والصحـ ... ـة عار من الخنا والعار
فهناك الورى بعيدين هذا ... للعـ وافى وذاك للإفطـار
فاستمعها مدائحاً في انتظام ... نتجت من مدائح في انتشار
وعليك السـلام منى فإنى ... عنك غاد أو رائح أو سارى
شاقنى الأهل والديار وذو البعـ ... ـد معنى بأهـله والديـار
وعزيز على سيرى ولو كنـ ... ـت أولى في يوم سيرى يسارى
لى في القرب منك والبعد عنهم ... خـبر معجب من الأخبار

لذة فى دوام كرب وسير ... فى انتهاك وجنة فى نار
وإذا شئت فالمجرة نهر ... لى فيه بنات نعش سمارى
ويكفى من النجوم كثير ... هو ما قد وهبت من دينار

---

* ترد فى دا ، وسبقتها قصيدة

أرقصها مطرب الأغاريد ... فاسترقت هزة الأماليد

(وانظر العبارة التى تتصدرها) .

ومنها فى المختار ٥ ، ٦ ، ٧ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٥ يتصدرها : « وقال يمدح أبا القاسم بن حجر » . وهى فى الخريدة ما عدا ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢١ ، ٢٦ — ٣٤ ؛ ٣٤ — ٤٢ يتصدرها : « وقال من قصيدة يصف فيها البحر وركوبه وقصده أيام وفوده » .

١ — دا : الحوارى
٦ — المختار : ألف مستقيمة للصوار
٧ — الخريدة : والهواء لساق
٨ — دا : وهى صنوان
٩ — دا : أوردتها
١١ — الخريدة : وعنبرا من نار
١٣ — المختار : فجاءت
١٤ — دا : الدهر
٢٠ — المختار : الذواد .
٢١ — المختار : أينق

---

٢٨ – دا : قمر

٣٢ — دا : وبلاه فيها بلاه

٣٣ — دا : وبعثمان . حديث الدار : اشارة للحديث الذى
دار بين سيدنا عثمان بن عفان ووفود الثائرين الذين حاصروا
داره أربعين يوما قبل أن يقتلوه سنة ٣٥ هـ .

٣٨ — دا : عنك عاد

٤٢ — بهامش البيت فى دا : هذا البيت ربما — ؟ — قال به صفة حمام

٤٣ — المختار : وإذا شئت فالمجرة بحر . وبهامش نسخة برلين :
لعله : سوارى (بدلا من سمارى)

بنات نعش : النجوم

(٦) وقال أيضا يمدح الفقيه أبا على حسن بن حمود بين الحجر ويهنؤه بمولود ، فى غرة شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة :

(السريع)

أبدى الفرند نجابة النصل … والفرع يظهر طيبة الأصل
والنبل قد نفضت كنائبه … سد السداد مسدد النبل
لا تعجبوا لليث حين غدا … وله يد عقدت على شبل
فى الشمس والبدر المنير إذا … جاءا بنجم صحة النسل
والفضل ما اضطردت مناسبه … حتى انتهت منه إلى الفضل
ثمر يرى كأبيه بحر ندا … واوبل أوله من الطل
فترى أسرته وأسرته … متقدمين بحجة فصل
زيدت بنو الحجر الكرام به … حجرا يفجر أعين البذل
أهلا وسهلا بل يقل له … أن يلتقى بالأهل والسهل
السعد والإقبال طالعه … وهما كذا قالا له قبلى
وافى وقد وافى الهلال معا … فقضى الحسود برتبة المثل
أنا لا أشبهه بغرته … فاحتل منه أخص الرجل
والغيث صنو أبيه قد شحذت … كفاه سيف الخصب للمحل
والأرض قد نزعت غلائلها … ما فى الصدور لها من الغل
والدهر قد عدلت حكومته … ولطالما عدلت عن العدل
ملأ الملا بسعيد غرته … لجميع ذلك منه يستملى
وإذا رأيت الحسن من حسن … فاطرب لصدق الاسم والفعل
بحر مناسبه إلى حجر … تربى مفاخره على الرمل
آباؤهم شتى فضائلهم … وهو الملقب جامع الشمل

وعلى اليفاع له خيام ندى ‏ ‏ ‏ أطنابها مستجمع السبل
وبه قريش جددت شرفا ‏ ‏ ‏ قد كان سيد بخاتم الرسل
لو قلت للساعى ليدركه ‏ ‏ ‏ ارجع عميت بمسلك غفل
هذى البسالة دون نهضتها ‏ ‏ ‏ ماشئت من متمتع بسل
وقف السوابق دون غايته ‏ ‏ ‏ ومضى على الغلواء يستعلى
حظوا فقاموا تحت طاعته ‏ ‏ ‏ لما رأوه قام بالثقـــل
وله سحاب من روى وندى ‏ ‏ ‏ بين الوبال يسح والوبل
ورئاسة نزلت بمنصبه ‏ ‏ ‏ فتعلقت بالشيخ والطفل
فإذا اختبرته وجدت معرفة ‏ ‏ ‏ صار الفتى فيها أخا الكهل
إن كان بعض الناس حين يرى ‏ ‏ ‏ فلرب بعض وهو كالكل
فقه تبين المشكلات به ‏ ‏ ‏ وتروح مطلقة من الشكل
وهدى مبين لم يخل أخا ‏ ‏ ‏ جهل ولو أضحى أبا جهل
وكتابة من حسن صورتها ‏ ‏ ‏ تغنى عن التنقيط والشكل
وسكون جأش صيغ من مهل ‏ ‏ ‏ فيه حراك صيغ من مهل
ولرب أجوف منه قعقة ‏ ‏ ‏ وكما علت مخارق الطبل
يا من أعاد له مناسبه ‏ ‏ ‏ ضمنت على عدة فكانت لى
صليت باسم أخيك ممتدحا ‏ ‏ ‏ فنجوت من لهب الهوى المصلى
ومدحتكم فى طى مدحته ‏ ‏ ‏ حكما ولما أبل بالنبل
والآن تم لديك مفترض ‏ ‏ ‏ وأصبت من نفل ومن نفل
ورأيت منصبكم فقلت له ‏ ‏ ‏ ما لم يخالف فيه بالفصل
والناس غيرك للفضول أترا ‏ ‏ ‏ وأتيت وحدك أنت للفضل

---

(٥) ترد فى دا، ومنها فى المختار ١، ٣ — ٦، ١١، ١٢، ١٤ =

= ١٦ — ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٤٠ يتصدرها : « وقال يهنىء ابن حجر بمولود » .

١ — المختار : طيبة الأصل . بر : نجابة الأصل .

٣ — دا : ويداه قد عقدت بالشبل . بر : ويداه قد عقدا على شبل .

٦ — المختار : ملك .

٨ — « : البدل . ١٣ — المختار : سيف البرق .

١٤ — « : ما فى القلوب . ١٩ — « : ابن حوى .

٢٠ — دا : البقاع . واليفاع : المرتفع من الأرض .

الاطناب : الحبال التى تشد الخيمة .

٣٣ — المهل : التؤدة والترفق . والمهل : التقدم فى الخير .

٣٥ — المختار : يا من أعادتنى له سنة .. طويت .

٣٨ — النفل : ماشرع زيادة على الواجب ، والنفل : الغنيمة أو الهبة .

٤٠ — المختار : الناس غيرك . بر : للناس .

(٧) وقال يمدح القائد أبا القاسم، ويهنئه بشهر رجب سنة أربع وستين وخمسمائة :

(البسيط)

لذى الظلامة عند الظلم والنسب   وهل إلى رفعها لولاهما سبب
هيهات يطفىء ذاك الوجد موقدة   قد ينضج الجمر أحيانا فيلتهب
وكيف يخمد عن صب ضرام جوى   إلى ضرام على الخدين ينتسب
وكيف لا يجب القلب الذى فعلت   يد الصبابة فيه فوق ما يجب
ماهذه القضب اللدن التى اعترضت   فعارضت دونها الأرماح والقضب
عقدن فوق وجوه كالبدور لها   أكلة مما شككنا أنها سحب
ولو رفعن ستور الحجب لانسدلت   من العفاف على عاداتها الحجب
للحسن ورد فليت اللحظ يقطفه   منه الغصون التى يحكون والكثب
وللشفاه كؤوس غير دائرة   لها الثغور وما شاهدتها حبب
لاتنكرن فما ذاك الرضاب سوى   خمر عناقيدها الأصداغ لا العنب
أولا فخل الحمى الفحل مذ ضربت   من دونه حجرات انه ضرب
وإن تقل أقحوان فيه طل ندى   فمنه حين تهب الريح ما يهب
هذى العياقة فاحسبها على وقل   للقائد العفة الزهراء والحسب
ورب يوم دخان الند صيره   ليلا وأقداحنا فى أفقه شهب
كرعت فى فضة منه وفى ذهب   لم تحتجب فضة عنها ولا ذهب
خمر إذا الماء أورى زندها بعثت   عنه شراراً على حافتها يثب
شددت لتسلبنى لبى فقال لها   مديرها : أنا بالألحاظ مستلب
يا قوم حتى بأرض الروم لى كبد   حرى تغير على أفلاقها العرب
فيا أبا القاسم الشهم الذى أبدا   جنابه من صروف الدهر مجتنب

هل لاكتائب غير الحسن ثائرة ... كيما أقول لها : يمناك والكتب
ما طال خطي مع خطب يحاولني ... إلا استثارت لى الأشعار والخطب
أقول فيك فتحميني وأنت بما ... أقول فيك بدست العز منتهب
عجائب فى المعالى ما برحت لها ... مكرر العقل حتى لم يقل عجب
واسم من الفضل لم يخصص سواك به ... إلا كما يستبين النعت واللقب
شوركت فيه فكان النعت مشتركا ... فى لفظه المندل الفواح والحطب
وعلة فى رماح الخط تمنعها ... من أن يقاس بها اشكالها القضب
جرى أبوك لشأو ما اقتنعت به ... فالمجد عندك موروث ومكتسب
ونلت من رتب العلياء غايتها ... ثم استوت فى انحطاط دونك الرتب
كم ملتقى طرفى عرف ومعرفة ... إليك جاذب وصفيه أب فأب
مناسب رق فيها وصف مادحها ... فليس يدرى نسيب ذاك أم نسب
إن تنتسب لقريش فهى طائفة ... إليك بعد رسول الله تنتسب
تنمى لها وكذا تنمى إليك فهل ... من يحسب البدر إذ وافى به الحسب
وكم وثبت بحيث الأمن مضطرب ... وما يغرك فى الآراب مضطرب
فقمت لا العطف عما سار منعطف ... وقلت لا القلب عما شام منقلب
وفك ما نصبوا من زور كيدهم ... رب به رد عنك النصب والنصب
وهل يضرك فى مال محاسبة ... وكل مالك عند الله محتسب
ياقائداً دارت العليا لمنصبه ... حتى كأنها الأفلاك والقطب
شهدت ذا الشهر بالبر الذى ملأت ... به حقائبها من قبله الحقب
وهل تخص به ذا الشهر منفردا ... وكل شهر بما أوليته رجب
لازالت عذب قناة الفضل خافقة ... عليك فوق رماح السؤدد العذب
لا يقتضى جودك الأزكى لمكرمة ... إلا ونائله الفياض ينتصب

(*) ترد فى دا ، وهى فى المختار ماعدا ٢ ، ٣ ، ١١ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٦ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٧ — ٤١ وفى مسالك ص ٢٧ : ١٠ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٥ ، ٣٦ وفى التذكرة ج ١٣ ورقة ١٠٦ : ١٠ ، ١٥ ، ١٦ .

١ — دا : الشب .

٢ — دا : قد ينصح .

٣ — دا : صرام .

٦ — المختار : لما ٨ — دا : عند الغصون . المختار للحسن روحن .

٩ — المختار : وبر : للسقاة .

١١ — الضرب : (بكسر الراء) الماهر فى الضرب .

١٣ — العيافة : الزجر .

١٤ — دا : النقع . التذكرة : فى جنحه ١٥ — المختار وبر : عنه .

٢٦ — رماح الخط : المنسوبة إلى بلدة الخط بالبحرين .

٣٥ — المختار ومسالك : وقاك ما نصب الأعداء من حيل . النصب : الداء ، والنصب : التعب .

(٨) وقال، وقد كلف صفة حال الارتحال فى التاريخ :

(الكامل)

أبليت بعدك فى الأنام ظنونى ... فظفرت عندهم بكل ضنين
وشدوا إلى اهلك دون اهلك راجما ... لولا يقينى فى علاك يقينى
وخرجت أطوى عن «بلرم» صحيفة ... ما نشرت الا لكى تطوينى
فحللت «ثومة» وهى تصحيف اسمها ... لولا حسين الندب ذو التحسين
فى حيث شب الماء جمرة قيظه ... وبقيت فى مقلاه كالمقلين
وشربت ماء المهل قبل جهنم ... وشفعته بطاعم الغسلين
حتى إذا استفرغت منها طاقتى ... وملأت من أسف ضلوع سفينى
أجفلت من «جفلوذ» اجفال امرىء ... بالدين يطلب ثم أو بالدين
مع أنها بلد أشم بحفه ... روض يشم فمن منى ومنون
تجرى بأعيننا عيون مياهه ... محفوفة أبدا بحور عين
وتركتها والنو ينزل راحتى ... عن مال قارون إلى «قارون»
وجعلت «بقطس» عن «لبيرى» جانبا ... وركبت جونا كالليالى الجون
كيف الخلاص إلى «ملاص» وسورها ... من حيث درت به يدير قرينى
وجعلت أنشد حين أنشد صاحبى ... من ذا يسينى على «مسينى»
فحللتها وحللت عقد عزائمى ... بيدى إلى السيد المبادر دونى
فأقامنى تسعين يوما لم تزل ... نفسى بها فى عقدة التسعين
بتجلف لا يستقل جناحه ... ولو استطار بريشتى جبرين
برد جرى فى معطفيه وكفه ... وكلامه وعجانه المعجون
ثم استقلت بى على علاتها ... مجنونة سحبت على مجنون
هوجاء تقسم والرياح تقودها ... بالنون أنا من طعام النون

حتى إذا ما البحر أبدته الصبا   ذا وجنة بالموج ذات غضون
ألقت به النكباء راحة عابث   قلبت ظهور مياهه لبطون
وتكفلت « سرقوسة » بأماننا   فى ملجأ للخائفين أمين
وأعادنا والبر أوطأ مركبا   بحر صحبنا ماءه بالطين
وأتى كتاب بالمثول فقادنى   بجميل رأى لم يزل يحدونى
ولو اغتدى بالصين ربعك شاقنى   شوقى وفرط صبابتى للصين
من بعد ما أغضت جفونك مرة   عنى وكدت اقولة تجفونى
وسعى بى الواشى إليك فكاد أن   يثنيك بالبهتان أو يثنينى
فركبت فوق مطا أقب مضمر   فى مهرق البيداء مثل النون
لو لم يكن هاديه جزعا مشرقا   ما كان من عطفيه كالعرجون
وسمت حوافره الفلا بأهلة   هى من بجر السمرفوق غضون
حتى رمى رحل الرثيث بعزمة   ما قلت ليتأ لى على « لنتين »
وعلا عقابا لو علا بحراكه   فيها عقاب بات رهن سكون
وسما أبو ثور إليه بقلعة   فى رأس أشمط شامخ العرنين
حكت الصقور به الصفون وهكذا   حظا صقور سطرت وصفون
وانصاع فى ذات اليمين تفاؤلا   يقضى له بالطائر الميمون
ورمى به « ثرمة » دونه متساميا   ل «بلرم» والأعلى خلاف الدون
وأقامنى أرعى جبينك تائبا   فسجدت ألصق بالتراب جبينى
وبسطت كفى فى خزائنك التى   ما بات فيها المال بالمخزون
وكذاك قيل المال ليس بصين   إلا لعرض لم يكن بمصون
وقصاد دين الجود انت أمامه   قال : الصلاة هى إقتصاد دينى
فلذا ترى شكر الغنى مؤيداً   فى راحتيك بدعوة المسكين

يامالكاً الدست الذى مذ حازه ... حلوه باسمى هالة وعرين
ومقلد الديوان والايوان من ... أوصافه بالجوهر المكنون
حاشى خلالك أن تعود مطالبى ... عنه إلى بصفقة المغبون
وتداك قد ضمن النجاح وإنه ... لندا يد واف بألف ضمين
ولديك آمالى تجر ذيولها ... فى أرض نجح أو ثرى تمكين
فاشحذ لسانى فى صفاتك إنه ... يزرى بحد المرهف المسنون
فمين فضلك كلها أوردتنى ... يوما مناهله أجل معين

---

(٥) ترد فى دا ومنها فى ياقوت الأبيات ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ (مادة ثرمة) ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ (مادة جفلوذ) والبيت ١٢ (مادة لبيرى) ، والأبيات ١٤ — ٢٠ (مادة مسين) و ٢٠ — ٢٤ (مادة سرقوسة) وفى المختار وبر الأبيات ٢٩، ٣٠، ٣١ مصدرة بـ « وقال من أبيات فى وصف فرس » .

٢ — دا : وسدوا إلى أهلك .

٣ — بلرم عاصمة صقلية .

٤ — ثرمة : مدينة بصقلية (ياقوت ٢/٨٦) .
وفى ياقوت : فدخلت ثرمة . وهى الآن Termini .

٦ — المهل : شراب أهل النار ، والغسلين : مايسيل من جلود أهل النار .

٨ — جفلوذ : مدينة بصقلية (ياقوت ٢/١٤٧) ، ذكرها ابن جبير ص ٢٢٧ (ط . القاهرة ٦٨) تحت اسم شفلودى ، وفى أمارى ص ٣١ : جفلودى ، وهى الآن Cefalo .

١١ — قارون (الثانية) : قارونية ، مدينة بصقلية هى Caronia الآن ، وانظر أمارى ص٣٢ . وهى فى دا : علىقارون .

١٢ — بقطس (أو بقدس) وانظر عنها ياقوت ٤٧/١ ، وأمارى ص ٣٢ .

لبيرى : يشير ياقوت بازائها إلى « البيرة » . . من نواحى الأندلس . قال ابن يونس ' واياها عنى ابن قلاقس بقوله . . . وقد اعتقد أمارى أن ابن قلاقس يشير هنا إلى Lipari ، ولكن ربزيتانو فى مقالته عن ابن قلاقس بدائرة المعارف الإسلامية أوضح أن المدينة التى يعنيها هنا هى Oliviri .

١٣ — ملاص : حصن بصقلية (ياقوت ١٨٩/٥) وفى أمارى ص ٢٣ (ميلاص) وهى الآن Milazzo .

١٤ — ياقوت : وأظل أنشد .

ومسينى مدينة هامة بصقلية .

وقد نسب ياقوت هذا البيت مرة لابن قلاقس (مادة صقلية) ومرة أخرى لابن حمديس الصقلى (مادة : مسينى) وانظر أمارى ص ١٢٥ .

٢٣ — سرقوسة : مدينة بصقلية (ياقوت ٢١٤/٣) .

٢٦ — دا : ولو اعتدى .

٢٨ — المختار ، ومسالك : وركبت فوق مطا الأقب المضمر والمعنى : ظهر الحصان دقيق الخصر . مهرق البيداء : الصحراء الملساء .

٣٠ — دا : جدعا . الجزع : منعطف الوادى ووسطه .

٣٢ — الرثيث : الجريح به رمق .

لنتين : مدينة بصقلية بين مسينى وسرقوسة .

٣٤ ــ أبو ثور : قلعة بصقلية ، ذكرها الادريسى فى « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » وقال انها « حصن مانع عامر ذو مزارع » (نقلا عن أمارى ص ٦١) .

٣٥ ــ الصفون : جمع صافن، وهو الفرس يقوم على ثلاث قوائم وطرف الرابع .

(٩) وقال يمدح أبا القاسم لما عاد إليه :

(الخفيف)

قد عصينا النهى فكيف النهاتا   وأطعنا الصبا فكيف الصباتا
وخشينا فـوات لذة عيش   قل ما ساعد الخليع فواتـا
فالسقاة السقاة أسعدك اللـ   ـه على حثك السقاة السقاتا
هات بنت الكروم واستعمل اللحـ   ـن لمغنى عندى وقل لى : هاتا
رشا كلما تجرد أو جرد لحـ   ـظا حكى المهـا والمهاتـا
علم المعجز المسيحى عينيـ   ـه فأحيا بلحظها وأماتـا
فأدار الكئوس تلهى عن الهم (م) سريعا وما يجوز اللهاتـا
قهوة تملأ الزجاج فما تحـ   ـسب إلا المصباح والمشكاتا
ما ركبنا منها الكميت فسرنا   فى نواحى الهموم إلا كماتا
أيها العـاذل المفند فيها   لات حين الملام ويحك لا تا
جعلتنا المدام نصبح أحيـ   ـاء ونمسى فى حكمها أمواتا
فإذا ما سألت عنى فسائـل   كيف أضحى ولا تسل كيف باتا
لى كالنخلة السحوق حديث   غير أنى ـ كما غرست ـ النواتا
كنت لا أرهب الليوث وقد دا   رزمانى حتى رهبت الشاتا
ولو أنى قذفت يوما حصاة   بيدى فطنتى أصبت الحصاتا
قل لمن ماله سلاح يدع من   جرد العضب واستجر القناتا
وهنيئاً له أبو القاسم الشـد   ـب نهانى فيها أقول الهناتا
هو بحر وما يكدره الحا   سد إن بات فيه يلقى القذاتا
قد سعى بى الوشاة نحو علاه   فسعوا لى فلا عدمت الوشاتا

حركوا لى الشباة منهم وظنوا أنهم جردوا على الشباتـا
فدعا من « بلرم » حجى فلبيـ ـت وكانت « سرقوسة » الميقاتا
وامتطيت الفلاة أقتحم الهـو ل ولولاه ما امتطيت الفلاتا
فى جبال أرسى الشتاء عليها قاطنا لا يخاف عنها الشتاتا
كل سامى الذرى إذا ما سابقته الشـ (م) ـمس يمتد نحوها مرقاتا
وقليل أن يركب الركب فى السعـ ـى لمعناه الموت لا المواتا
وهو قد جد واستجد على شر ط آبائه ، وقال ، وفاتا
ساقنى فضله فأسكننى الدو ر وأسكنته أنا الأبيـاتا
واقتسمنا فكان عارض غيث عشت فى ظله وكنت النباتا
واقتضت عنده الرفاهة أنى صار يومى سبتا ونومى سباتا
وتحـيرت فى لغاة أناس لم تزل عن مسامعى ملغاتا
بعدما كنت حاملا بين نابى سنـة خصصت الاسنـاتا
كلما رجعوا بها إلى أصوا تاوددت الأسواط لا الأصواتا
قد عدمت الوفاء منهم ولولا عطفه ما عـدمت الوفاتا
ثم حييت وجهـه فتأملـ ـت حياً يولى الحيا والحياتا
كرم ينحر العداة وسلطا ن على رسمه يبيد العداتا
يرقب الداء والدواء إذا ما قيل قـد قربوا إلى الرفاتا
ويداه فى الغرب أغرب شىء ما ترى النيل فيهما والفراتا
وحبال فى الله رثت فما با ت إلى أن لم يبق فيها انبتاتا
شرف تلتقى الجوانب منه فتعـد السراة فيه السراتا
من قريش الذين هم جبل الفخـ ـر إذا كان غـيرهم مرداتا
عد منهم فى السبق من يعبد اللـ ـه تعالت صفاته ، واللاتا

لاكن ماتت المنـــاسب منه ... فهو يحيى أرض المحال المواتا

لوغد المجد صورة كان منها ... أخمصاً حافياً وكنت الشواتا

وأنا الموضح الدليل بلفظ ... ما ارتضى توضحاً ولا المرقاتا

(٤٥) لى طبع لانت لديه القوافى ... فلو اختار لم يدع بعد هاتا

(ه) النص فى دا ، ومنه فى المختار الأبيات ١ ، ٢ ، ٤ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٥ ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥ . وفى ياقوت (مادة بلرم) : ١٩ ، ٢٠ (وأوردها أمارى ص ١٠٨) . وفى مسالك ١ ، ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٨ — ١٢ ، ١٦ — ١٨ ، ٢٥ ، ٢٨ .

٢ — دا : وحشينا

٩ — المختار : فثرنا

١٠ — دا : أيها العادل

١٧ — دا : نهانى بما

٢١ — المختار وبر : ودعا مكرم بحجى ... سرقولة .

٢٥ — « : وبر : إليه الموات

٣٥ — « : الفداة

٣٦ — « وبر : إليه الدواتا

٣٧ — « « : فى العرب

٤٠ — دا : حبل الفخر

٤٣ — دا : لو عدا ... احصا

٤٤ — المختار وبر : المقراتا

٤٥ — « « : لى فكر

(١٠) ودخل (ابن قلاقس) بصقلية سنة ثلاث وستين (١) . . وكان بصقلية بعض القواد يقال له : القائد أبو القاسم بن الحجر فاتصل به وأحسن إليه، وصنف (٢) له كتابا سماه : الزهر الباسم فى أوصاف أبى القاسم وأجاد فيه ، ولما فارق صقلية راجعا إلى الديار المصرية ، وكان فى زمن الشتاء ، ردته الريح إلى صقلية فكتب إلى أبى القاسم المذكور قوله (٣) .

(مجزوء الكامل)

منع الشتاء من الوصو ل مع الرسول إلى ديـــارى

فأعادنى وعلى اختيـــا رى (٤) جاء من غير اختيار

ولربمــا وقع الجـــــا ر وكان من غرض المكارى

---

(٥) المقدمة والابيات عن « وفيات » ط . محى الدين ج ٥ ص ٢٤ ونقل أمارى (ص ٦٣١) النص نفسه عن طبعة وستنفلد من الوفيات (وسجلنا الخلافات نقلا عن أمارى) وتجيء فى المختارة مصدرة بـ : « وقال وقد ردته الريح فى البحر إلى أبى القاسم المذكور » .

١ — أمارى : ودخل صقلية فى شعبان سنة ثلاث وستين .

٢ — « : فصنف له

٣ — ساقطة من أمارى

٤ — أمارى : وعلي اختياري رجاء من غير اختياري .

(١١) وقال يمدح الفقه السديد أبا المكارم هبة الله الحصرى وكتب بها إليه من من الاسكندرية ، ويهنؤه بالعيد من سنة خمس وخمسين وخمسمائة :

(الكامل)

عرضت لمعترض الصباح الأبلج ... حوراء فى طرف الظلام الأدعج
فتمزقت شبه الدجى عن غرتى ... شمسين فى أفق وكلة هودج
ووراء أستار الحمول لواحظ ... غازلن معتدل الوشيج الأعوج
من كل مبتسم السنان إذا جرى ... دمع النجيع من الكمى الأهوج
ومروع وطأ الحقود بشفرتى ... متوسع فى ضيق ذاك المنهج
قارعته وعلمت أنى ناكح ... طمعا متى القحته لم ينتج
وارب باب مرتج حاولته ... بلطافة ففتحته للمرتجى
ومولع بالصد هزت عطفه ... خدع الهوى فأمال جيد مغنج
وإذا الفتى تبع الصبابة والصبا ... وجد المنية سهلة المتولج
لا تنكرن على عادية الأسى ... فالحب كأس خمرها لم يمزج
ولئن أرادتنى الخطوب بمرها ... فالريح تزلق عن ثنايا منعج
أو رحت فى للشباب فانى ... كالعضب يفرى وهو رث المنسج
ولقد صبحت الليل قاص برده ... لعباب بحر صباحه المتموج
وكأن منتثر النجوم لآلى ... نظمت على صرح من الفيروزج
وسهرت أرقب من سهيل خافقا ... متفردا فكأنه قلب الشجى
واستعبرت مقل الغمام فأضحكت ... منها ثغور مفوف ومدبج
وفضضت عن مدح السديد ختامها ... فغنيت عن زهر الربى المتأرج
ودعوت ياهبة الإله فقال لى ... لفظ النجاح الهج بذلك تنهج

هو كعبة الافضال إلا أنهـــــا   بعدت ومن لم يستطع لم يحجج
ولقد شدانى العزم سر تلق المنى   فشدا له الإمكان دونك عرج
لله منه أغر مزق سعيـــــه   سدف العوارض عن أغر متوج
دمث الجناب يمج تربة أرضه   عرفا متى يلق الحمامة يهزج
يقظان يذهب بين طرفى نائل   متفجر فى سؤدد متبرج
طلق الجبين أريج أقطار الثنـــا   حلو السجية مستنير المنهج
متنوع الأوصاف شاب وقاره   طرب فجاء بخالص المتمزج
حر الفصاحة لو يساجل يعربـــا   لأبان فيه لكنة المتلجلج
راسى حصاة الحلم حيث تحللت   عقد الحبا وارتاح كل مهيج
نشر المكارم واعتلى فكأنمـــا   طويت له العلياء طى المدر
متقمص بالزهد لو بذلت له الد (م) نيا وقيل ادخل بها لم يخر
ومصيب سهم الظن يشرق رأيه   فى حيث نور الشمس لم يتو ج
تهديه فى سدف الأمور قريحة   تمشى على وضح الصباح الأ ج
فلأى خطب ضيق أوى بهـا   يوما على عجل ولم يتفرج
سبق الأكارم للمكارم فانثنــى   يعدو على العادى بخط المدلج
ومصرف الأحكام لم يعلق بها   طيش الضجور ولا اختلال المحرج
يقضى فرب التاج تحت قضائه   بالعدل منقاد لذات الدملج
لا زال كالبدر المنير منقـــلا   من أبرج مسعودة فى أبرج

---

* ترد فى ب ، ف ، ل على أنها فى مدح الشيخ السديد أبى المكارم هبة الله المصري ـ ا ـ ومنها فى د ٢ الأبيات من ١ ـ ٢٨ يتصدرها : =

= « . . . أبا المكارم هبة الله الأزدى فكتبت إليه قديما به من الاسكندرية

قبل اجتماعى به بصقلية ، وكان قد مدح قبل ذلك الشيخ الفقيه الحافظ — رحمه الله — ويهنئوه بالعيد » (ولا شك أن جملة رحمه الله زيادة من الناسخ لأن ابن قلاقس توفى قبل الحافظ) .

وهى فى ناضج ما عدا ٢٠—٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣، ٣٤ ، وفيه أيضا أنها فى مدح هبة الله المصرى .

وأورد منها المقرى فى أزهار الرياض (مخطوطة باريس ٢١٥٦ورقة٢٢٥و) أبيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ وذكر قبلها « من بديع نظم حازم رحمه الله تعالى قصيدة جيمية غريبة المنزع لها صيت عظيم عند الحذاق من أهل الأدب . . . ، أولها :

در المدامة فالنسيم مؤرج والروض مرقوم البرود مدبج

وبعد أن ذكرها قال : « وتذكرت بهذه الجيمية قصيدة ابن قلاقس الاسكندرى وهى . . . » وبعدها : « وابن قلاقس هذا له فى النظم الباع المزيد ، ومن محاسنه قوله :

سددوها قدودا من الرماح وانتضوها من الجفون صباحا

وصواب الشطرة الأولى :

سددوها من القدود رماحا

١ — أزهار : الزمان الأدعج

٢ — ف ، د ٢ : شية الدجى . أزهار : شبيه

= ناضج : ثقب الدجى

٣ — ل : وولاء

٤ — ب : الكمى من الكدى

٢٦— ناضج : معربا

٢٧— دا : طرفى مائل

(١٢) وقال يمدح الشيخ السديد أبا المكارم هبة الله عرف بابن الحصرى :

(الوافر)

أروه الجلنار من الخـــدود وأخفوا عنه رمان النهـود
وحلوا مقلتيه بدمـــع در تبسم فى المخانق والسرود
وهم نظموا الفريد على نحور فدمع العين يجرى كالفريد
وما غرسوا نخيل العيس الا وهم فيها من الطلع النضيد
يثنين المعاطف فى قيام ويقعصن الروادف فى قعود
فكثبان ترجرج فى مروط وقضبان ترنح فى برود
ويكسرن الجفون على لحاظ هى الأسياف تحفل بالغمود
بعثن على النوى جيش التدانى وسلطن الوصال على الصدود
فبات الطيف يقضى الطرف دينا تقاضيه كفالات الهجود
وكم جذب الصبا طرفى عنانى فغـــادره بسالفتى شرود
سقى مصرا وساكنها ملث صليل البرق صخاب الرعود
ولو أنى وجدت لقلت سقيا تعاورها على ناى وعـــود
موارد بى لهـا عطش شديـد ولكن لا سبيل إلى الورود
هل الرأى السديد البعد عنها نعم إن كان للشيخ السديد
إليك قطعت لا طوفان نخل لينزلنى على جودى جـــود
فصح وقد رأيتك كل وعد ملكت به مناجزة الوعود
معى خلع الثناء وليس منهـا خليع إن عزمت على الجديد

---

(٥) ترد فى ب ، ف ، ل ، د٢ (غير واضحة باستثناء المطلع) وفيها انها فى مدح الشيخ السديد أبى المكارم هبة الله بن محمد عرف بابن الحصرى) وفى ناضج

ما عدا ١٢ ، ١٥ — ١٧ : ومنها فى بر : المطلع وخمسة أبيات ، وبهامشها : «هذه القصيدة لم تكن فى الأصل المجموع فاعلمه» .

ويرجح احسان عباس فى « العرب فى صقلية» وريزيتانو فى مقاله ابن قلاقس بدائرة المعارف الإسلامية أنه الذى يذكره أمارى حـ ٣ ص ١٥٠ تحت إسم **Sedictus** .

ولا يخلط القارىء بينه وبين الشيخ السديد (شرف الدين بن سديد الدين) المتوفى ٥٩٢ هـ رأس الأطباء فى الديار المصرية فى خلال الفترة الأخيرة من عهد الفاطميين ، انظر عنه الزركلى ط ٣ ص ٢٤٢ ومراجعه .

٢ — ب : بدور دمع . المخانق : جمع مخنقة ، وهى القلادة .
— ب : بالفريد .

(١٣) وقال يمدح السديد هبة الله عرف بابن الحصرى :

(الكامل)

رحلوا وهم بين الضلوع حلول   فالقلب عقد سلوه محلول
وتبرجوا للبين وهو تبرج   ستر التحفظ فوقه مسدول
طلعت بدورهم لتغرب بيننا   فكأنما ذاك الطلوع أفول
ما أطلقوا الأجمال تحت جمالهم   إلا وقد علقت بهن عقول
فاحبس غرامك بالطلول صبابة   فدم التصبر بينها مطلول
اجر الرسوم على الرسوم فانها   آثار من آثاره التقبيل
دمن صحبت مع الصبا فيها الصبا   فأنا عليل والنسيم عليل
عبث الهواء بها وعاث بها الهوى   فمشى محول بيننا ونحول
ولطالما لعبت بعطف متيم   فى جانبيها شمأل وشمول
إذ جوها يندى وروض عراصها   يزهو وظل الطيبات ظليل
والريح تلعب فوقها بقوادم   تهفو وريش جناحها مبلول
ولعابر ولعاثر بفنائها   أبدا مقيل طيب ومقيل
حتى تعرض بين أنهار الرضا   كدر وفى روض الصفاء ذبول
وعلى الركائب غادة يدعونها   شمسا تقوم بما ادعوه دليل
ولأجل ذلك حيث حلت عيسها   فالليل فجر والنسيم بليل
إنى وإن صلبت قناة عزائمى   لتميلنى ريح الهوى فأميل
وكذا الكريم على جماع عنانه   ينقاد طوع هواه وهو ذلول
وإذا الفتى خلع العذار ولبسه   برد الشباب فعذره مقبول
من يمنح العشرين والعشر الصبا   ففؤاده المعذور لا المعذول

ولقد صحبت الصيد يسمع فيهم ال تفضيل مما قلت والتفصيل
وملأت أسماع الملوك غرائبا سارت بها الأمثال وهى مثول
وأنا امرؤ لو قيل فى تصعيده قولى لقيل كأنه التنزيل
تتطفل الكرماء فى إحرازه وعليه يحسن منهم التطفيل
غيرى يقال له ازدهاه منزل وزها له المشروب والمأكول
لو كان ذلك سكنت من نهضتى مصر وبالى من صداى النيل
ولما دفعت إلى صحابة معشر سيان فضل عندهم وفضول
وتركت بالفسطاط ملكا وجهه متلألىء والقول فيه جميل
سبق المنائح بالقرائح كفه فغدا يطيب صلاته ويطيل
لكن سمعت عن السديد وفعله فأتيته لأريه كيف أقول
وعلمت أنى إن سقيت سحابه نبت الرجاء وأثمر التأميل
كف أنامله الملاذ بظنها منها سيوب جمة وسيول
أعدى بشيمته الزمان فكله سحر تأرج زهره وأصيل
فكأنما الأيام طرف أدهم وكأنها غرر له وحجول
وجرى إلى شأو السماحة وحده ويقول قوم والغمام يسيل
قد قلت للساعين فى إدراكه مهلا فلا لكم اليه سبيل
لا تطمعوا فيه ففى مسعاكم قصر وفى طرق الرئاسة طول
بجارى الرياح إلى السماح فأخبرت عنه وأين من الكرام بخيل
ومصرف الرقش المتون كأنها قب بميدان الطروس تجول
تبكى فتضحك عن أزاهر حكمة بندى الفصاحة روضها مطلول
وصحائف كصفائح ليراعها فى الحالتين من الصرير صليل
من كل ماضى الحد كف غراره بالعفو فهو القاطع المفلول

وبلاغة تدع المبرد باردا ... وتقول جهرا ما الخليل خليل
أمروض الآمال وهي مواحل ... ومشيد العلياء وهي طلول
قد تيمتك المكرمات وهذه ... آثارها بك دقة ونحـــول
فكأن بثك للنوال بثينة ... وكأن رأيك فى الجميل جميل
وفيت شهر الصوم حق صيامه ... وقيامه وكذاك ليس يزول
وكسوت عيد الفطر حلى نباهة ... لعقودها فى جيده تفضيـــل
أضحى بها القرآن ناشر غرة ... شهدت بها التوراة والانجيل
واسلم فقد كثر الكرام وانهم ... لولاك ياابن الاكرمين قليل

---

(٥) ترد فى ب ، ف وفى ناضج ما عدا ١١ ، ٢٢ ٢٣ ، ٢٦ — ٢٨ ، ٣٧ — ٣٩ ، ٤٦ — ٤٨ .

١ — كلمة (فالقلب) ناقصة من ب .

٢ — فى ب ، و ف : شر .

٣ — كلمة (بيننا) ناقصة من ب . ناضج : دوننا .

٩ — ناضج : آثارها .

٢٠ — ب : التفضيل . . والتفضيل .

٢٣ — وعليه مفهم .

٢٥ — ب : وبلبل .

٢٩ — ب : شيقان .

٣١ — ل ، ف ، ناضج : كهف .

٣٢ — ب : بسمته . ناضج : شجر .

٣٤ — ب ، ناضج : رسيل .

٣٧ — ل : الكريم .

٣٨ — ف : الرمش ب الرمس المشون .

٤٥ — ب : بلثته .

٤٧ — ب : فى جيدها .

(١٤) وقال يمدح السديد هبة الله بن الحصري في سنة ثلاث وستين وخمسمائة

(السريع)

أطاع ما يأمره الناهي   وصار في حلبة أواه
لها وكم قيل لها مرة   فهل لمعنى واحد لاه
مشتغل دون الصبا بالصبا   ودون نيران بأمواه
فهو إذا فكر في أمـــره   رأيت منه حالة الساهي
أشبه ماء البحر أحشاؤه   ولم تضع ألفـــة أشباه
يسرد (طه) حين يبدو له   ذو الموج يحكي مرجل الطاهي
اجاه للأوطان لا أبعدت   أو بته بالمـــــال والجاه
عزم قوي يقتضيه السرى   ولو على مضطرب واه
يركب في قشر غضاة جرى   وإن جرى منطق غضاه
ولو على مقدار هماتـــه   حاول أدنى رتبه ما هي
يال مجال الرخ في موضع   يضيق عن منزلة الشاه
ياهبة الله دنـــا سيره   فما ترى يـــا هبة الله
قد أزف الوقت وداعي النوى   أطنب في ناه ونهناه
منظرك الباهي وشعري معا   فأمر بشيء ثالث باهي
نطقي بأفواه وكم بشر   قد نطقوا فيك بأفواه
وشم أفواه لها نكهة   أطيب من ريحة أفواه
أمضي بإكراه ولكـــنني   ماجئت - إذ جئت - بإكراه
في دعة الله وحفظ الورى   مقالهم في دعـــة الله
أفديك من هاد بأقلامه   إذا جرت في الطرس أو داه

بجتمع الوصفين ينشق عن وجه حيي الوجه جيباه
طلاقة ليست لذى ذلة وعزة ليست لتيــــاه
باه بها فى حالتى مجده إن كنت تبغى سنا باه
تشب مثل الجبل المعتلى وتنثنى كالغصن الزاهى
لو سئلت مصر على انها منازل العاضـــد لله
من عرفت سمته فى أول البســـــم وثنت بشهنشـــاه
جاءتك غصنا فى يدى منطقى أعمل فيها الحافظ الماهى
عذراء قالت لك أوصافها باه بحسنى كتب الباه !

(*) فى دا ، وهى فى المختار ما عدا ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٧ - ١١ ؛ ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ وقد صدرها بجملة . « وقال يمدح عبد الله ابن الحصرى » .

١ — دا : أصاع   ٣ — المختار : جنى يبدو .

٩ — دا : عصاه والغضاة شجر الأثل وخشبه شديد الصلابة .

١٣ — فى ناه ونهناه : فى نهى وزجر . وفى المختار : فى ياه ويهنياه .

١٥ — نطقى بأفواه : بأبيات كالطيب جودة . أطيب من ريحة أفواه : أطيب من روائح التوابل .

٢٤ — العاضد لله : الخليفة الفاطمى آنذاك .

شهنشاه : لعل المراد هنا نور الدين محمود، وكان صلاح الدين الأيوبى قد أمر بأن يذكر اسمه فى الخطبة بعد اسم العاضد (انظر مفرج الكروب ١ ص ٣٢) .

(١٥) وقال يجيب الفقيه ابن فاتح عن شعر كتبه إليه :

(الخفيف)

لست أدرى أتحفة تتهادى … أم عروس فى حليها تتهادى
أم عهود قد أضحك الدهر فيها … مبسم الزهر حين أبكى العهادا
أم بياض الخدود ينشر طرسا … وسواد الأصداغ سال مدادا
بل قريض من سيد سد عنى … لهوات العدا وشد وشادا
فاح من مجمر القريحة منه … شعر قد أعجز الإنـــــدادا
ورأت ما رأت صقلية منـــ … ـــه فحق إذا فاخرت بغدادا
ماجد جد فى اكتساب المعالى … والمعانى فأتعب الأجســادا
زاد عن رتبة النظم للشعـــ … ـــر ولو شاءها لكان زيادا
ولقد أظــلم الظــلام لعيــنى … وأرانيه كوكباً وقادا
فحمدت المراد فى ظل نعما … ء على نسكه وقلت المرادا
ومضى يدفع الشدائد عنى … ويسد القوى ويولى الرشادا
شاهرا سيف عزمه فى ملمـا … ت أمورى لا يعرف الأغمادا
ياعمادى وقد حرمت العهادا … وودادى وقد نسيت الودادا
والذى تملأ السماء انقادا … فى دياجى خطوبه وانتقادا
من يجاريك فى العلوم وقد … ملكك الفضل والكمال القيادا
هى روض قطفت وردته أنـــ … ـــت وخليت للحياة القيادا
فابسط العذر انها بنت فكر … ليس يروى وليس يورى الزنادا

(*) ترد فى دا

٤ — لهوات العدا : اللهوة اللحمة المشرفة على الحلق ، والمراد ألسنة العدا

١٥ — دا : رحلت

(١٦) وقال يجيبه (الفقيه ابن فاتح) عن شعر كتب به إليه :

(الطويل)

أقول رياض إذ ترصعها زهرا ... أقول سماء إذ تلمعها زهرا
أقول سيوف إذ تجردها بترا ... أقول سيوف إذ ترددها تبرا
معان بإمعان هى النـد والندى ... حريق رحيق سائل الجمر والخمرا
تعلق حظى بالحضيض فخـــله ... وإخلاده يا ملحق الشعر بالشعرا
وعندى فكر قدم الكاف تلفـه ... به فهو فكر ما عدمت به كفرا
تغير مثل الدهر فاسمح حكاية ... أتيت بها نظما وإن عرفت نثرا
أقول له زيـــد فيسمع خالدا ... ويكتبه بكرا ويقرؤه عمروا
وأما الطيور المرسلات فإنهـــا ... طوائر مذ جاءت أبت تألف الوكرا
نصبت لها لو ساعدت شرك النهى ... وأوسعتها من حب شغلى بها بذرا
وقلت عسى الببغاء يأتى بنعيه ... أو القمرى ولى مثل تصحيفه يسرا
فما كان إلا بلبـل بلبل النوى ... أتى أو حبارى كنت من قبلها الحبرا
فلا خـير لليعقوب منهـا فـإنه ... عقاب ولا الكركى من حيث ما كرا
ولا رزقت منى خلاصا وكيف لا ... غلطت فسامحنى ألم تولها الحصرا
وكنت سليمانـا لفهم لغاتهـا ... ومذ سلبونى خاتمى سلبوا الأمرا
فدع ذا وعد الأمر منه وقص لى ... أحاديث أخرى لا برحت لنا ذخرا
فماذا ترى فى ناكح بنت غـيره ... بلا غيرة منه ولم يدفع المهرا
وكنت أرى يوما ويومين مدة ... وقد زاد حتى كاد أن يبلغ الشهرا
فإن قلت لى لابـد منـه فعاجـل ... وإلا فمن هذا الذى يضمن العمرا
وقد مر بى فى ذا النهار عجيبة ... لو اعتمدت كسرى لما أمن العسرا

(٢٠) وجئنى بها عشرا ثقالا فقال ها   وقبل من كفى لا قبلها العشرا
فيا حسنها صفرا ويا قبح موضع   غدا بعدها منها ولم أغترف صفرا
وكنت كمن عيناه ترقب فجره   فلما تبدى الفجر وسمنا الفجرا
بثثتك سرى والحديث كما حكوا   شجون فيا صدر الكمال احفظ السرا

---

(٥) ترد فى دا

٢ — دا : سوف

٧ — دا : عمرا

١١ — دا : أوحبارى . والحبارى طائر رمادى اللون

١٥ — دا : لا رحت لنا

١٦ — لعل المعنى : أنت تهدى لى بنات أفكارك فأنالها دون أن أقوى على تقديم مقابل لها .

٢١ — دا : عدا بعدها

٢٣ — دا : سحون فيا

(١٧) واتفق اخراج البيت المطير (٥) فقال ، وكتب به الى الفقيه المذكور (١) :

(البسيط)

وغادة عادت الدنيـــا ببهجتها ما شئت من ذات أنوار ونوار
سعد لمن رقدت فى طى ساعده فريسة لا بأنياب وأظفـــار
تفتر عن مبسم كالأقحوان غدا من ريقه فوقها طل الندى جارى
ويستعير نسيم الريح رائحـــة من طيب أنفاسها فى عرفه السارى
زجرت فى شأنها الأطيار ساجعة ولم يخب قط عندى زجر أطيارى
هذا شعارك تكسونى دقائقـــه وهذه هذه لا شك أشعارى

---

(٥) ترد فى دا

(١) يعنى ابن فاتح

(١٨) وقال وكتب بها إلى الفقيه ابن فاتح :

(مجزوء الرجز)

يا ماجداً أسرى إذا   أسرى على منساره
ومن أنا أعشو إذا   أعشو لضوء ناره
شمار قلبي أن يرى   صبا إلى أشعاره
جدت على اختياره   أجدت في إختياره
فلست عن أوكاره   أرحل غير كاره
عهدت من أفكاره   وسماً على أفكاره
فدار عنى نازحاً   على دنو داره
نخاطرى مقتحم   للهو من أخطاره
يا ليت شعرى ما الذى   ثناه عن أشعاره

(•) ترد فى دا

٢ ـ أعشو : أبهر ، وأعشو (الثانية) : أقصد

(١٩) وقال يجيب ابن فانح عن شعر كتبه به اليه :

(البسيط)

شمس المحاسن قد أطلعتها فلكا   وكل فضل وأفضال بدا فلكا
أطاعك الشعر فاحكم فيه يا ملكا   وعفة النفس قالت فيك يا ملكا
ولو تمر على رق أيا ملكا   أقر بالرق كتاب الأنام لكا
إذا بقيت وكان الله أمهلكا   فما نبالى بمن قد عاش أو هلكا

(ه) ترد فى دا

١ — الفلك : الفضاء تدور فيه الكواكب والنجوم
وفلكا (الثانية) : فهو لك

٣ — ولو تمر على وق : على ورق

٤ — في الأصل : مما نبالى

(٢٠) وكتب إلى الفقيه أبى الحسن بن فانح أيضا فى التاريخ :

(الطويل)

وأبغضت فيك النخل والنخل يانع ويعجبنى من أجلك الدر والضال

أحب لجـــراك السماوة والغضا ولو أن صنفيه وشاة وعـذال

(ه) ترد فى دا

١ ــ دا : النحل والنحل .

الدر : شجر النبق . الضال : الدر البرى .

(٢١) وقال يجيب الفقيه أبا الحسن على بن فاتح عن شعر كتب به اليه

(مجزوء الرمل)

أندى وجـــــه وسيم   وشذا عرف نسيم ؟
واصطباحات مـــدام   بين راحـــات نديم
وسماع من رخيم الد   ل ذى صوت رخيم
ونعيـــم دار باللـذ (م)   ة من دار النعيـــم
وصباح من سرور   شق ليــــلا من هموم
أم بنيات كـــــريم   لا بنيات كــــروم
أطلعت عنها ليالى النـ (م)   ـفس أمثال النجــــوم
وتحلى الطرس منهــــا   بحـــــلا الدر النظيم
صاغها فــــكر علي   صاغها فـــــكر عليم
ببلاغات بهـا جــــر (م)   خطــــام ابن الخطيم
وتمام لم يفــــــه   حاجب بين تميـــم
ومعانى حــــكم از   رت بلـقـمان الحكيم
وكـلام صرت مذخو   طبته مثل الـــكليم
من خليــــل وجليل   وحــــمى وحميم
ذى المحيا الزاهـر الغر (م)   ة فى الدهــر البهيـم
والايـادات المستحقـا   ت بأعبـاء الغيـــوم
دونـه إن حـققت أو   صاف أرباب العـلوم
كل عــين ، كل لام   كل ياء كل ميـــم
سلم الله عــــــلاه   من جـــلاليل السليم

(٢٠) ما أمال الريح عطفى غصن الريح القـــويم

---

(٥) ترد فى دا

١٠ — قيس بن الخطيم : شاعر أوس

١١ — حاجب بن تميم : (توفى سنة ٣ هـ) من سادة العرب

١٣ — الكليم : سيدنا موسى عليه السلام

١٩ — السليم : المصاب المشفى على الهلاك

(٢٣) وقال ، وأجاب به الفقيه ابن فاتح عن شعر بعث به اليه :

(الوافر)

بعثت به جنانا أم جنانا   وصلت به لسانا أم سنانا
وقلدت الطروس به كلاما   يفصل فى الترائب أم جمانا
قريض زار بل روض أريض   فآتانا المحاسن إذ أتانا
نعانى أو نعاين منه لفظاً   معانا بالبلاغة لا معانى
يروع وقد يروق فأى بيض   تذكرنا القيون أو القيانا
قرأنا من محاسنها فنونا   وكدنا أن نسميها قرانا
شرائح موجبات أن تدانى   بدائع مانعات أن تدانا
فلو حسان فاز بها لعلى   جواهرها قلائده الحسانا
ولو رام ابن هانىء إتصالا   بصعب مرامها يوما ابانا
ولو أنى أطعت أطلت قولى   فلم أترك فلانا أو فلانا
أبا حسن ملكت الحسن طرآ   فأسقط شائنا أو فاعل شانا
نضيت على صقلية لواء   هدانا فى دجى خطب دهانا
بدا علما فكنت عليه نارا   ولولا الحلم سميت الدخانا
وكم رزق المكانة من أناس   لو اختبروا لما وجدوا مكانا
فديتك من خليل لا خليل   كفيت به الزمانة والزمانا
وقد شاهدت اخوانا ولكن   هم الاخوان إن نظروا الخوانا
وكم من تسكن الاجفان فيه   إذا اسكنته منك الجفانا

---

(٥) ترد فى دا

— ٢ — الترائب : جمع تريبة ، موضع القلادة من العنق ، والمراد الصدور

٣ — الروض الأريض : الذى تمكن نبته

٨ — حسان : حسان بن ثابت

٩ — ابن هانىء : الحسن بن هانىء المعروف بأبى نواس ، أو ابن هانىء الأندلسى،شاعر المعز لدين الله الفاطمى

١٢ — دا : « هدانا فى دجى ليل خطب دهانا » واستغنينا عن كلمة ليل لزيادتها على الوزن .

١٥ — الزمانة : طول المرض .

(٢٣) وقال أيضا وكتب بها إلى الفقيه على بن أبى الفتح بن خلف الأموى جوابا عما كتب به اليه :

(البسيط)

هذى المحاسن قد أوتيتها هذى — فكل شخص تعاطى شأوها هاذى

أقسمت بالنحل إن النحل قائلة — ماذى الحلاوة مما يحسن الماذى

أنفذت شعرا فأنفذت القوى فبدا — شكر وشكو لإنفاد وانفاذ

وقمت لى فى جفاء من صقلية — بلطف مصر عليه ظرف بغداذ

(٥) إن كان طبعك من ماء ورقته — فإن ذاك فرند بين فولاذ

وما وهمت وفى التلميذ معرفتى — حقا لأنك معروف باستاذى

الله يعلم - لولا أنت - ما جملت — يدى على كبد للبين أفلاذ

---

(٥) ترد كاملة فى الخريدة وفيها فى المختار ومسالك الأبيات من ١ إلى ٥ . وابن نباتة يصدرها بـ « وقال مجيبا للأديب أبى عبد الله » وأما فى الخريدةفيجيء: « قال (ابن قلاقس) : كتب إلى » أبو الحسن أبى الفتح بن خلف الأموى رقعة أنفذها لما أردت الرحيل عن صقلية .

يا ماجدا طبعه أحلى من الماذى — ومن يفوق ذكاء أهل بغداذ

وهمت فى رقعة سيرتها عجلا — اليك ما بين تلميذ لأستاذ

فابسط لى العذر واعلم أننى قلق — ذو خاطر لنواكم آلم هاذى

قال : فأجبت ، ولو أطعت الخجل لاحتجبت : . . . »

٢ — أقسمت بالنحل : بسورة النحل . الماذى : العسل الأبيض

٣ — دا ، الخريدة : فجرى شكو وشكر ، وفى مسالك : شكر وسكر
وفى المختار : شكر وشكوى

٦ — دا : ففى ، بأستاذ

(٢٤) وأجاب الفقيه أبا الحسن بن خلف عن قصيدة كتب بها اليه على الوزن أيضاً:

(الوافر)

هو النادى وأنت به أنادى ... فيا مروى الحيا مورى الزناد
لسانك أم سنانك دار فيها ... اراه من الجدال أو الجلاد
تبرز فى اطلاع واضطلاع ... وتبرز فى انقياد وانتقاد
وكم لك فى الفصاحة من أياد ... ملكت بها الفخار على الإيادى
قريض يدعيه الجو زهرا ... ينظمها بأجياد الدآدى
وترسيل براه الروض زهرا ... ينثره بواحات الوهاد
من الشعراء قلبى منك أضحى ... يهيم صبابة صبابة فى كل واد
تخذتك من صقلية خليلا ... فكنت الورد يقطف من قتاد
وشمتك بين أهليها صفيا ... فكنت الجمر يقبس من زناد
وما هى إذ بحورك غير صدر ... حمى الاضلاع منك على فؤاد
فإن وسعتك حيزوم وإلا ... فما ضاقت حيازيم البلاد
فديتك ، كلنا فيها غريب ... وذا نسب يضاف إلى الوداد
مرادى أن أراك ولست أشدو ... «عذيرك من خليلك من مراد»
بأرض نعمة النعمان فيها ... يزاد لمن يقدر عن زياد
« وإنى عنك بعد غد لغاد ... وقلبى عن فنائك غير غاد »
« وأبعد بعدنا بعد التدانى ... وقرب قربنا قرب البعاد »

---

(٥) ترد فى دا ، مصدرة بـ : « وأجاب الفقيه أبا الحسن بن فاتح » وهى فى الخريدة ١٦٧/٢ ماعدا ٥ ، ٦ ، ٧ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، وقبلها : =

= « قال (ابن قلانس) : وفاض بحر آدابه (أى بحر آداب أبى الحسن بن خلف) فيضاً فكتب إلى أيضاً :

أيا شمس الجلال على إقتصـاد   ويا بدر الكمال لدى انقاد
ويا من بذ فى الأشعار من قد   أباد الدهر من أزمان عاد
لقد أصبحـت لى خـلا صفيـا   وحبك قد تمكن فى فؤادى

ومنها :

يعز على أن تنأى وأبقى   فريدا مستهاما للبعاد
وان حكمت بفرقتنا الليالى   وقدما فرقت أهل الوداد
فـودى ثابت أبدا مقيـم   على مر الليالى فى ازدياد
ولولا طـيرة للبـين تخشى   لبست لذاك أثواب الحداد

قال : فأجبت وليتنى انجبت . . . » — الأبيات

٣ — الخريدة : فى اضطلاع واطلاع . . من انتقاد واتقاد

٤ — الخريدة : على الأيادى . إياد : قس بن ساعدة الإيادى المشهور بفصاحته .

٥ — دا : يدعبه الحو

المدآدى : جمع وأداء وهى آخر أيام الشهر (القمرى) وتكون شديدة الظلمة .

٧ — أخذ المعنى من الآية الكريمة « الشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون » ٢٦ الشعراء ٢٢٤ ، ٢٢٥

٨ — القتاد شجر صلب له شوك كالإبر

١١ — الحيزوم : الأرض الصلبة ، وتجىء بمعنى الصدر

١٣ — عجز بيت تردد أن سيدنا على بن أبي طالب ردده إذ رأى ابن ملجم، وصدره : « أريد حياته ويريد قتلى » وهو لعمرو بن معد يكرب أنظر « الكامل » لابن الأثير حـ ٣ ص ١٩٨

١٤ — فى البيت إشارة للنعمان بن المنذر والنابغة الذبياني (زياد)

١٥ — ١٦ : البيتان تضمين عن المتنبي . أنظر ديوانه (بشرح أبي البقاء العكبرى ، تحقيق مصطفى السقا — ابراهيم الأبيارى — عبد الحفيظ شلبي — القاهرة ١٩٣٦ ، حـ ١) قصيدة :

أحاد أم سداس فى أحاد   لييلتنا المنوطة بالتناد

ويرد البيت الأول (ص ٣٦٥) والثانى (ص ٣٥٨)

١٦ — دا والخريدة : فأبعد بعدنا . . . وأقرب قربنا « وأخذنا برواية العكبرى » .

(٢٥) وكتب إلى أبي الحسن الصقلي :

(الكامل)

أنا عبد ودك لا أضل وإن تكن		خليتني في الثغر باسم خليـــل
وعليك يا بدر الفضائل نظمت		مدحى فجاءت وهى كالإكليل
أهلا بشعر منك للشعرى به		شرف اشتراك الاسم لا التفضيل
وثلاثة عـــوذتها بثلاثة الـ		قرآن والتوراة والانجيـــل
(٥) ثنيت فكادت أن تكون بثينة		وغلقتها فغدوت مثل جميـــل

---

(٥) ترد في المختار و بر مصدرة بـ : «وكتب إلى أبي الحسن الصقلي» وهي في دا تسبقها عبارة : «وكتب إلى ..» ، ولا نستبعد أن تكون القصيدة في مدح أبي الحسن علي بن خليف السكندري وليس في أبي الحسن بن فاتح (الصقلي) ، خاصة وأن معظم النصوص التي سبقتها في دا موجهة للسكندري

١ — بر : حليتني

٢ — المختار : للشعرا

(٢٦) وقال يمدح متملك صقلية الفرنجى — خذله الله — لما وصل إلى صقلية فى ثامن عشر شوال سنة ثلاث وستين وخمسمائة :

(الطويل)

يقر لغليلم المليك بن غليلم ... سليمان فى ملك داود فى حكم
وتخدمه الأفلاك بالسعد فى العدا ... فتسطو بسيف البرق أو حربة النجم
فأى هلال ليس كالقوس راشقا ... بأى شهاب مر ينفذ كالسهم
وما النصر إلا جنده حيثما مضى ... على جبهات البر أو صفحة اليم
له مقربات يقصر الظن دونها ... إلى منشآت تستطيل على الوهم
كلا عسكريه كالسحائب لم يزل ... حواصب فى حرب صوائب فى سلم
يقود إلى اعدائه كل سابح ... فمن عرب دهم ومن سفن دهم
يسير بأمثال الليوث ولم يكن ... بها قرم الا إلى ملك قرم
تزلزل أقطار الديار بصوتها ... فتسكنها حسن العمارة فى الهدم
وتهتم فى أخذ الثغور فيقتدى ... بمنعها مثل الثغور على الهتم
وتعنو له الأفلاك حتى كأنها ... صغار الدرارى قابلت قمر التم
وما الملك الا للذى قالت العدا : ... هو الغيث اذ يهمى هو الليث اذ يحمى
فكم من مريض القلب صحح عزمه ... ونفس مروع قد أعاد إلى الجسم
ففاز بنور الرب يدعو إلى الهدى ... ويحيى لنا الموتى ويبرى من السقم
وزاد على الفضل المسيحى بالذى ... يعلمه حد الحسام من الحسم
وقد كان دهرا لا يخص مصاحبا ... أتاه بما قد خصه الرب من علم
وهذا يفيد السيف فى الحرب عزمه ... ويحرص فى تبليغه رتبة الفهم
فيا ملك الدنيا وسائس أهلها ... سياسة من لم يملك الملك بالرغم
ولكن بآبائه يقر لملكهم ... وتشهد سادات الملوك على علم

وتعنى لهم فى الشرق والغرب هيبة　　وقد أمنوا جور الظلامة والظلم
وبدلتهم أمنا من الخوف شاملا　　وعدلا من العدوى وغنما من الغرم
وحلت تاج الملك منكم بعزة　　يخر لها تاج الزمان على الرغم
وأرقصت أعطاف السرير مسرة　　غداة مضا تحت السيامة والحلم
وقلدت أجناد القصور جواهرا　　من الفضل والأفضال محكمة النظم
فمن للدرارى أن تعود مباسماً　　تشرفها من ترب بسطك باللثم
ويسجد إذ يبدو محياك يقظة　　كما سجدت قدما ليوسف فى الحلم
فتطلع منها كوكب السعد فى الندى　　وترسل منها فى الوغى كوكب الرجم
وتستخدم الأقدار فيما ترومه　　فتجرى إلى ما قد رسمت على الرسم
أظن خطوب الدهر ولتك حكمها　　وآلت يمينا لا خروج عن الحكم
فصرفها بالعدل تصريف ماهر　　بصير بأعقاب الأمور أخى فهم
إذا شرفت آراؤه فى ملمة　　تبسم بعد البشر فى وجهها الجهم
وتكشفها خيل عتاق كأنها　　وقد عصمتها الذابلات من العصم
عدت وهى أدرى بالقتال من العدا　　فلم تتشح بالحزم إلا على الحزم
ودهم أساطيل تحاكى متونها　　أراقم مما قد نفثن من السم
إذا أصبحت ثغر أعدا النصر مقسما　　بأن لهم من نيله أوفر القسم
كذا فليكن عزم الملوك وقل مما　　ترى ملكا يأتى بما لك من عزم
مدحتك ايقانا بأنك مليسى　　من الفخر ما أنجو به من يد الذم
وأصبح صرف الدهر فى طوع خادمى　　وقد كان يبدى لى مخالفة الخصم

(*) ترد فى دا . وهذا النص هو الوحيد فى مدح ملك صقلية ، وقد أشار ابن خلكان لمدائح ابن قلاقس فى غليالم الثانى وذلك فى ثنايا ترجمة أبى طاهر يحيى

= ابن تميم (ج ٥ ص ٣٠٢ ، ط محي الدين عبد الحميد) ونص عبارته :
« ولما هلك زجار ملك بعده غنيم بن زجار ، وعليه قدم أبو الفتوح نصر الله ابن قلاقس الشاعر المقدم ذكره ، ومدحه وأجازه ، وذلك فى سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، وغنى عن الذكر أن صواب زجار : رجار (أو روجار) وأن صواب غنيم بن رجاز : غليالم بن رجار .

أما ابن ميسر فانه ذكر أن « رجار كان يحب مديح الشعراء ويجيزهم ، فذهب اليه جماعة من الشعراء ومدحوه ، منهم ابن قلاقس ، وأمر أن يصنف له تاريخ كبير فصنف له تاريخ » (أنظر ج ٢ ص ٨٥) ، وهذا خطأ من ابن ميسر ، فالثابت أن شاعرنا لم يذهب إلى صقلية إلا على عهد غليالم الثانى . وأما الصفدى فى الوافى بالوفيات (مصورة بباريس وفى نسخة دار الكتب) الموسومة بعنوان أعيان العصر مجلد ٢ فإنه يذكر أن ابن قلاقس مدح ملك صقلية الافرنجى وأن جملة ما أعطاه اياه مركبا مملوءا جبنا :

وقد تساءل د. احسان عباس فى « العرب فى صقليه » ص ٢٨٧ : « ولسنا ندرى هل اتصل ابن قلاقس بغليالم الثانى أو لم يتصل ، فقد كان غليالم حين دخل ابن قلاقس صقلية سنة ٥٦٣ لا يزال تحت وصايه أمه ، وليس فى ديوانه — أو ما تبقى منه — قصيدة فى مدح صاحب صقلية » وفى هذا النص التى أوردناه رد على هذه التساؤلات .

٣ — دا : شهاب ينفذ ، وأضفنا (مر) لتمام الوزن

٥ — المقربات : الخيول ونحوها . المنشآت : السفن

٧ — العرب الدهم : الخيول السود ، والسفن الدهم : كثيرة العدد

---

٨ — القرم : الرغبة ، وتجىء بمعنى السيد العظيم

١٥ — دا : الجسم

٢٣ — دا : عداه

٢٦ — اشارة للآية الكريمة : « إذ قال يوسف لابيه ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » ٤ / ١٢ (يوسف)

(٢٧) وله من قصيدة فى مدح وزير صاحب صقلية :

(الوافر)

جرت خيل النسيم على الغدير ... وردت تحت قسطلة العبير
وعب الصبح فى كأس الثريا ... وكان براحة القمر المنير
وقام على جبين الصبح يهفو ... كما يهفو اللواء على أمير
ودار بها على يده فكانت ... كطوق الجام فى كف المدير
وعجت فى زجاج الماء لونا ... قد انتزعته من حلب العصير
فقمنا نستثيم إلى قلوب ... تناجت تحت أستار الصدور
نحقق بالوفا عدة الأمانى ... ونملأ بالرضا نخب السرور
إلى ان غادرتنا الكأس صرعى ... نفر من الكبير إلى الصغير
ونحسب أن ديك بنى نمير ... أمير المؤمنين على السرير
رزقنا التاج والإيوان فيها ... وطفنا بالخورنق والسدير
ورحنا نستطيف بنا الليالى ... ونبسط من يمين المستجير
كأنا من تسحبنا عليها ... روادف تستطيل على الحضور
وجردنا المدائح فاستقرت ... على أعطاف جردنا الوزير
فنظمنا المفاخر كاللآلى ... وحلينا المعالى كالنحور
وقمنا فى سماء العز نرعى ... جبين الشمس فى الغيث المطير
وأعجب ما جرى أنا أمنا ... ونحن بجانب الليث الهصور
وأرسلنا من الأشعار ريحا ... نهز بها المعاطف من ثبير
وقلدناه درا جاء منه ... كذلك الدر جاء من البحور
وقلنا للمسائل عن علاه ... تسمع قد وقعت على الخبير

أهيب صواعق العزمات منه ... يكاد يذيب أفئدة الصخور
وماء مكارم الأخلاق منه ... يكاد يرد صاعدة الزفير
وأغراس الأماني في يديه ... تهز معاطف الدوح النضير
وعين حراسة الملك استخفت ... فلم تطرف على سنة الفتور
رأى منه المليك حلى أمين ... بريء النصح من سقم الضمير
فأرقاه إلى الرتب اللواتي ... يراها النجم من طرف حسير
وصدره على الديوان سطرا ... هو الوسم الذي فوق السطور
فطال بضبطه باع ارتفاع ... تشمر فيك عن باع قصير
ونادته الدهور: خلقت معنى ... تكرر بين ألسنة الدهور
وأصبحت القصور كما عهدنا ... مشيدة على غير القصور
وصيرت البلاد جنان عدن ... وكانت وهي في نار السعير
يدبرها مدبرها برأي ... محا ظلماتها بضياء نور
ومد على الرعية ظل عدل ... وقام بلفح ألسنة الهجير
وجال بالسعادة منكبيه ... فجر ذيولها حبر الحبور
أحامي الملك بالباع المراعي ... وراعي الملك باللحظ الغيور
ومن هو ناظر فيه بذهن ... له إدراك أعقاب الأمور
خدمت بخاطري علياك جهدي ... فلم أخدم به غير الخطير
وكنت متى نظمت نظمت منه ... لرب التاج أو رب السرير .
فدم تطوى العدا والسعد يشدو ... عليهم لانشور إلى النشور

---

* ترد في دا مصدرة بـ « وله من قصيدة يمدح بها القائد يزجرد الخصي بصقلية وهي في المختيار ما عدا ٧ ، ١١ ، ١٢ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ،

= ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٢٧ مصدرة بـ « وقال يمدح الوزير بصقلية »
ومنها فى الغيث ١٨ : ١ ، ٢ وفى مسالك ٤٤ : ٣٠ ، ٣٨ وفى مطلع ٦٣ ب :
(وفى الطبعة ص ٢١٤) ١٥ ، ١٦ ، ومنها فى الخريدة من ١ - ٨ ، ١٣ — ١٨ ،
٢٠ — ٢٢ يتصدرها : « وله من قصيدة فى مدح وزير صاحب صقلية » .

١ — مسالك وبر : العثير : القسطل : شجر من الفصيلة البلوطية

٢ — برو الغيث : وغاب الصبح فى كمء الثريا . دا : وهب الصبح

٤ — الخريدة : وداربه

٦ — الخريدة : نستقيم . المختار : نستتم ، وفى هامش نسخة برلين :
« لعله نستتم أى نطلب أن نسمع ماقمتم به فخرا » وفيها
وفى المختار كذلك : « أسرار الصدور »

٧ — الخريدة : نحقق بالمنى حب السرور ١٠ — المختار والإيمان

١٣ — المختار : وجودنا . دا ، والمختار : يزجرد وفسره محققو الخريدة بالآتى :
Giordano وليس فيما بين أيدينا من مصادر ما يدل على أن رجلا بهذا الاسم وكان وزيرا للملك غليالم الثانى ، ولكنه اسم شائع فى صقلية فى العصر النورمانى ، وأخذ ريزيتانو بدائرة المعارف الاسلامية بهذا الرأى

١٤ — ثبير : جبل بمكة . أنظر ياقوت ٢ / ٧٢ ١٧ — المختار نشرا

١٨ — دا : جاء عنه كذات الدر

٢٢ — دا : وأعراس

٢٤ — مسالك : وآمنه ٢٢ — المختار : كل عدل

٣٣ — دا : وحال

٣٤ — المختار : بالباع المرامى

٣٦ — » : حذمت . فلم أحذم

(٢٧) وقال مرتجلا بين يدى القائد غارات (*) بصقلية (**)

(السريع)

وعسكرى كلها رمته ... جرد لى حت ملاحاته

آراء قلبى فيه خفاقة ... كأنها من بعض راياته

علقته بدرا ولكنه ... صير خوض الهول هالاته

كأنما ألحاظه علمت ... من فيك غارات غاراته

ه ترد فى ب (ولا تجىء فى كل من ف ، ل) وفى د ٢

(*) فى ب : عارات

(**) بعدها فى د ٢ : دمرها الله بقدرته

١ — د ٢ : رضته

٤ — د ٢ : وعاراته

(٢٩) وقال يرثى أبا عبد الله محمد بن رجا قاضى صقلية فى سنة اثنتين وستين وخمس مائه :

(الكامل)

شق الكمال عليه جيب عليه سواده ... وأفاض طرف المجد ماء فؤاده
وتيقنت رتب المفاخر أنها ... خفضت وقد رفعوه فى أعواده
وانهل دمع الغيث بعد مصابه ... أسفا عليه وكان من حساده
واعتاضت الأطيار من تغريدها ... نوحا يبين الحزن فى ترداده
ويد الدجى منذ استقل سريره ... نفضت على الإصباح صبغ حداده
خلع الشباب وما انقضت أيامه ... وأبى لباس الغصن من ابراده
وأظنه هز السماح بعطفـــه ... كرمـــا فقسمه على عواده
بدر تغشاه الكسوف وطالما ... ضاءت سيادته بأفق سواده
ومهند ما كنت أحسب قبلها ... أن القراب يكون من اغماده
صالت عليه يد الزمان ولم يزل ... بنواله يحنو على أولاده
وتحكمت فيه المنون وطالما ... حكمت ببيض ظباه فى اضداده
بالأمس كنت أقول أنشد مدحه ... وأرجع النغـــمات فى انشاده
فبأى لفـــظ أستطيع رثاءه ... إن لم أمت فخرست عن إيراده
أما الزمان فقد تعطل جيده ... قل من فرائده ومن أفراده
كم صارم ملقى بعاتق صارم ... أنحى عليه ونجده ونجـاده
هيهات أن يثنى المنية مانع ... بصعوده أو دافع بصعاده
شهدت فحل الدهر عن شداده ... وعدت فحل قبيله غن عاده
سفر جميع الناس ممتحن به ... ويفوز فيه من التقى من زاده
عجبا لمغرور بدار سفاهـــة ... عـــما يبلغه لدار رشاده

أيرى البقاء وقد رأى ما كان من ... آبائه الماضين أو أجداده
هذا أبو عبد الإله مخـــلد ... إن كان خلد سيد لسداده
ولقد يموت المرء قبل مماته ... ولقد يعود المرء قبل معاده
ذهب الذى كنا نقول لضيفه ... ياضيف ذا ناد الكرام فناده
ما أحسن الذكر الجميل فإنه ... روح نفوس الخلق من أجساده
ذهب الذى كنا نقول لمن روى ... خبر الأفاضل نص عن اسناده
من للمسائل فى المسائل بعده ... عرفا ومعرفة بقدر مراده
لولا رجاء فى رجاء ما اعتلى ... للشرع ضوء عموده وعماده
حملت به أم السيادة ماجدا ... سمة الرئاسة فيه من ميلاده
ومهذب الألفاظ ينسى دهره ... سحبان وائله وقس إيـــاده
كذب الذى يرمى الزمان بأنه ... نزر الفضائل وهو من أجاده
يامن يعلمنا العزاء بعلمه ... خذ بالعزاء وأعف من ترداده
وأعلم بأن محمدا لم يطوه ... موت وأنت نشرت من احماده
صلى الإله على صداه فإنه ... من سر صفوته ومن عباده
وسقى ثراه من الغمائم صيب ... ضحك المعاهد من بكاء عهاده

* ترد هذه القصيدة فى ب ، ف ، ل ، وناضج (ما عدا ١٥ — ١٨ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٣٠ — ٣٣) على أنها فى رثاء ابن رجا وفى الترسل ، (الرسالة ٢٨) حديث عن مرض ألم به و « فجيعات وجيعات لبس بها الضحى جلباب الدجنة ..... وخذل الملك بمصرع الملك المنصور ، وطوى الظلام ما انتشر فى أيامه من بهجة ونور ، وعدم الملاذ الذى يلجأ إليه الاسلام ، وأجدب الربيع الذى ينتجعه الأنام ... وقد انبعث الخاطر الخاطر ونطقت القريحة القريحة برائى ذكر فى كتابه أنموذجا من كل قصيدة وعزوا انا على كل عقيدة ، فأولها عندما ورد النعي =

= الذى أصم وإن كان أسمع ، وروع قلوب المعالى بفقد ذلك الأروع، اولها:

اصابت سهام اليأس قلب المطامع   وصابت بغيث البأس سحب الفجائع

(ذكر منها فى الترسل عشرة ابيات) ، جاء بعدها : « واتبع بثانية وأن لم تكن لعنان وجده بثانية أولها :

شق الكمال عليه ثوب سواده   وأفاض طرف المجد هاء فؤاده

(أورد منها أربعة أبيات غير المطالع) والملحوظ أن عددا من المخطوطات (ب ، ف ، ل ، د ٢) ينص على أن مرثية :

أصابت سهام اليأس قلب المطامع

قالها « يرثى السلطان المنصور ضرغام بن سوار، أحد امراء الدولة كان ، ثم وزرشاور » ، وانظر تعليلنا لهذا الاضطراب فى ثنايا الدراسة. ومنها فى المختاروبر: ١،٢،٣،٨،٩،٢٣،٢٤،٣١،٣٢ مصدرة بـ : « وقال يرثى محمد بن رجا » .

٢ — المختار وبر : وضعوه

٣ — الترسل : وانهل دمع الحزن

٥ — الترسل : صبغ سواده

وهناك اختلاف يسير فى ترتيب الأبيات

٩ — ب : صنع

٢٢ — ب : بشرت . المختار وبر : وقد نشرت

(٣٠) وقال بصقلية ،وكتب بها إلى الاسكندرية ،ووصلت فى العشر الأواخر من شوال سنة ثلاث وستين وخمسمائة :

(البسيط)

لو لم يحرم على الأيام إنجادى ... ما واصلت بين إتهامى وإنجادى
طورا أسير مع الحيتان فى لجج ... وتارة فى الفيافى بين آساد
إما بطائرة فى ذا وطارمة ... أو فى قتاد على هذا واقتاد
والناس كثر ولكن لا يقدر لى ... إلا مرافقة الملاح والحادى
هذا وليت طريقى ما رميت به ... مسلوكتان لرواد ووراد
وما أسير إلى روم ولا عرب ... لكن لريح وإبراق وإرعاد
أقلعت والبحر قد لانت شكائمه ... جدا واقلع عن موج وإزباد
فعاد ـ لا عاد ـ ذا ريح مدمرة ... كأنها أخت تلك الريح فى عاد
ولا أقول أبى لى أن أفارقكم ... فحيثما سرت يلقانى بمرصاد
وقد رأيت به الاشراط قائمة ... لأن أمواجه تجرى بأطواد
تعلو فلولا كتاب الله صح لنا ... أن السموات منها ذات أعماد
ونحن فى منزل يسرى بساكنه ... فاسمع حديث مقيم بيته غاد
أبيت إن بت منها فى مصورة ... من ضيق لحد ومن إظلام إلحاد
لا يستقر بنا جنب بمضجعه ... كأن حالاتنا حالات عباد
فكم يعفر خد غير معتفر ... وكم يخر جبين غير سجاد
حتى كأنا وكف النوء تقلبنا ... دراهم قلبتها كف نقـــاد
وإنما نحن فى احشاء جارية ... كأنمـــا حملت منا بأولاد
فلا يعد لنا يوم السلامة إن ... حزنا السلامة إلا يوم ميلاد

يا إخوتى ولنا من ودنا نسب ... على تباين آباء وأجداد
نقرا حروف التهجى من أواخرها ... ونحن نخبط منها فى أبى جاد
ولا تلاوة إلا ما نكرره ... من مبتدأ النحل أو من منتهى صاد
متى تنور آفــاق المنارة لى ... بكوكب فى ظلام الليل وقاد
وألحظ الشرفات البيض مشرفة ... كالبيض مشرقة فى هام انجاد
وأستمد من الباب القديم هوى ... عن الكنيسة فيه جل إسنادى
بحيث أنشد آثارا وأنشدها ... فيبلغ القدر نشدانى وانشادى
(القصر فالنخل فالجماء بينهما) ... فالابل فالقصبات الخضر فالوادى
على أروح وأغدو فى معاهدها ... كما عهدت ، سقاها الرائح الغادى
متى تقرد يار الظاعنين بهم ... والبين يطلبهم بالماء والزاد ؟

---

* دا ، وترد فى المختار ما عدا ٢ ، ٦ ، ٩ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، وفى التذكرة حـ ١٣ ورقة ٨٢ : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢١ ، وفى مطلع ٧٧ ط والمطبوع ، ص ٢٧٠ : ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، وترد فى الخريدة حـ ١ ص ١٥١ ما عدا ١٣ ، ١٨ ، مصدرة بقول الشاعر فى كتابه الزهر الباسم :

« انى لما تسنمت الأمواج ، وتنسمت الازعاج ، من ذات الألواح ، قلت بالسلامة ، أما ميلاد ومعاد ، أو يوم معاد ، وعجبت من حالى ، فى حلى وترحالى ، فتشوقت الوطن والوطر ، وكلفت الخاطر وصف ذلك فقال .. »

ويرد البيت الرابع فى الوفيات .

١ — الانجاد : من النجدة والثانية من السير إلى نجد وبمعنى الارتفاع ، والانهام بمعنى السير إلى تهامة ، وبمعنى الانخفاض

٢ — المختار : طورا أطير

٣ — الخريدة : فى ذا ورازمة . والرازمة : الناقة أهزلها السير
الطارمة : بيت من خشب يكون على ظهر السفينة وغيرها .
القتاد : بمعنى الشوك ، والاقتاد : خشب الرحل

٤ — الوفيات : والناس كنز

٥ — المختار : ما مررت به

٨ — عاد : اشارة لقوله تعالى « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية »
٦ الحاقة ٦٩

١٠ — الأشراط : أشراط الساعة — وفى المختار : كأطواد

١١ — المختار : السموات منه

١٣ — مطلع : إذبت (وفى المطبوع : إن بت منه)

١٦ — المختار : يقلقنا . التذكرة : يقلقنا . الجارية : السفينة

١٩ — فى أبى جاد : بمعنى أننا لا نقوى على ضبط مواقع الكلام من فرط اضطرابنا

٢١ — الخريدة : أو من مبتدا صاد
مبتدأ سورة النحل « أتى أمر الله فلا تستعجلوه »
منتهى سورة ص « لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم جميعا ولتعلمن نبأه بعد حين »

٢٢ — المنارة : منارة الاسكندرية

٢٣ — الخريدة : كالبيض مشرفة

٢٦ — دا : فالابل . الأثل شجر كثيف الأغصان، واحدته أثلة، والشطرة الاولى من بيت لأبى قطيفة (توفى نحو سنة ٧٠ ﻫ) وكان عبد الله بن الزبير قد نفاه إلى دمشق فبقى فيها يتغنى بالحنين

= إلى دياره إلى أعيد إليها ، ومن أبياته المشهورة فى الحنين :

القصر فالنخل فالجماء بينهما أشهى إلى القلب من أبواب جيرون

انظر ياقوت : مادة الجماء (جـ ٢ ص ١٥٨)

٢٧ — الخريدة : متى أروح . دا : رواها الرائح . والرائح الغادى اشارة للمطر

٢٨ — المختار : متى تعود . الظاعنين : الراحلين

(٢١) وقال يصف بركة بتاريخ . . . تحت قصر ملك صقلية

(الخفيف)

بركة بوركت فنحن لديها   نستفيد الخمار فى ضحضاح
نظرت من قرارها بعيون   غادرتنا بأسرع الالتماح
تسرق اللحظة اختلاسا وتقضى   نظرة الصب خلف إنكار لاح
قد صفت واعتلى الحباب عليها   فهى سيان مع كؤوس الراح
يالها أسهما بواطن لولا   زرد ظاهر لأيدى الرياح
أى درع مصونة النسج تمتد (م) السواقى فيها بمثل الصفاح
فى جنان له حلى العذارى   وحلاها من معطف ووشاح
من قدود نهودها عوض الرما (م) ن زهوا منهد التفاح
وربا وردت خدود شقيق   وجلت بالحيا ثغور أقاح
وقداح لها اقتسمنا المسرا   ت حضورا بحضرة الاقداح
ظفر الاغتباق منها بحظ   لم يخب عنه وافر الاصطباح
ومغن تناولت يده العو   د فسارت بنا إلى الأفراح
جس أوتاره فأفسد منا   صالحا صار فى يد الإصلاح
بين ريح من المزامير أسرى   بين أجسامنا من الأرواح
وصباح قد عقدوا طراز الـ   ليل جمالا على وجوه الصباح
يبعث الرقص منهم حركات   سرقت بعضها طوال الرماح
« هكذا هكذا وإلا فلالا »   طرق الجد غير طرق المزاح

---

* فى دا ، والخريدة ١/١٦١ ، ماعدا ٥ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ويتصدرها « وله فى وصف بركة »

= دا : فى صحصاح . الضحضاح . الماء القليل (عكس الغمار)

٢ — الخريدة : قطرت

٣ — = : وتمنى

٦ — دا : السواقى عنها

١٠ — اشارة إلى لعبة القداح ، والاستقسام فيها الاقتراع على الأقداح المغفلة .

١١ — دا : لم يجب عنه .

١٢ — دا : فعادت لنا على الاقتراح

١٣ — دا : فأفسد منها . الخريدة : فأصلح منا

١٥ — الخريدة : الوجوه الصباح

١٦ — الخريدة : بيعت الروض منهم

١٧ — الشطرة تضمين عن المتنبي

(٣٢) وقال

(الطويل)

وركب كأطراف الأسنة عرسوا　　على مثل أطراف السيوف الصوارم
لأمر على الإسلام فيه تحيف　　يجيء عليه أنه غير سالم
وقالوا بلرم عند إبرام أمرهم　　فنجمت أن قد صادفوا جود حاتم

٭ أورد هذا النص ياقوت فى مادة بلرم
والأبيات تتكىء على قول أبى تمام فى مدح ابن طاهر :

وركب كأطراف الأسنة عرسوا　　على مثلها والليل تسطو غياهبه
لأمر عليهم أن تتم صدوره　　وليس عليهم أن تتم عواقبه

من قصيدة « من عوادى يوسف وصواحبه » . انظر ديوانه (ط . عزام)
جـ ١ ص ٢٢١ .

(٣٢) وقال بمدينة صقلية :

(الخفيف)

ما رأينا مثال ذا اليوم يوما ‏ ‏ صح فيه تناقض الأمثال
صار فيه الغربال يمسك ماء ‏ ‏ من رأى الماء قط فى الغربال

---

* في دا ، مصدرة بـ « وقال في .. بمدينة صقلية سنة ..»

(٣٤) ٭ وقال بمدينة صقلية :

(الكامل)

حتى كأن الدهر صـــيرنى به ... فى مثل ما أهواه أو منانى
فطلبت فوق مناى لاستعجازه ... فأتى بمعجزة من المنـــان

٭ فى دا ، مصدرة بـ : « وقال فى ... بمدينة صقلية سنة » ، وبالهامش :
« أحسب البيتين اللذين على حرف النون ليسا له » .

وجاء بعدهما :

« وقال حين أشرف على جزيرة صقلية ، فى أول وصوله اليها فى شعبان سنة ثلاث وستين وخمسمائة »

بلد أعارته الحمامة طوقها ... وكساه حلة ريشه الطاووس
فكأنما الأنهار فيه سلافة ... وكأن ساحات الرياض كؤوس

وبالهامش : « هذان البيتان لابن اللبانة من جملة قصيدة » . ويردان فى المختار وبر على أنهما من شعر ابن قلاقس .

والبيتان فى الخريدة ، فى ثنايا ما اختار العماد من كتاب « الزهر الباسم » (دون أن يبدو من السياق ان كانا من شعر ابن قلاقس أم أنه استشهد بهما) بينما يردان فى الخريدة (قسم الأندلس) مخطوطة باريس رقم ٣٣٣٠ ورقة ١٩٤ على أنهما من شعر ابن اللبانة ، وهما فى المغرب (قسم الأندلس) ٢٠ / ٤٦٢ منسوبان كذلك لابن اللبانة فى وصف جزيرة ميورقة .

وذكر المقرى البيتين فى النفح (حـ ١ / ١٥٨ ط . محى الدين) على أنهما بدورهما لابن اللبانه فى وصف جزيرة ميورقة ، ويردان فى المصدر نفسه (حـ ٩ / ١٥٨) ، دون ذكر قائلهما ، وقد استشهد بهما لسان الدين بن الخطيب فى وصف مدينة فاس .

= والبيتان فى « المكتبة العربية الصقلية » ص ١٥١ ، وقد ساقها أمارى نقلا عن مسالك الأبصار (مخطوطه بودليان) مسبوقان بـ « قال، وجزيرة صقلية — وهى من أجل جزائر البحر .. وفيها يقول شاعرها ابن حمديس .. » واستنادا إلى هذا المصدر ألحقها د. أحسان عباس بديوان أبن حمديس (ص ٤٧٨) ، وفى الوقت نفسه يجملها فى كتابه « العرب فى صقلية » ص ٢٩٤ من شعر ابن قلاقس ! وعلق د. سعد شلبى فى كتابه عن ابن حمديس الصقلى (ص ٩٣) على تذبذب نسبة البيتين بين ابن حمديس وابن قلاقس مرجحا : « أنها لابن حمديس ، لأن المراجع تنسبها اليه، وقد تمثل بها ابن قلاقس .. وظن بعض الرواة أنها من انشاده » والذى نرجحه نحن أن البيتين لابن اللبانة وقد نشرنا حول هذا النص مقالة بعنوان « نص حائر بين ثلاثة شعراء » ، وعرضنا لها فى مقال آخر نشرناه عن ابن حمديس الصقلى .

النثر

(١) مقتطفات من كتاب « الزهر الباسم » *

« هذا كتاب نظمت فريده فى عقد الكرم ، وجلوت فرنده فى عضب الهمم ، واستخلصت بنار الطبع تبره ، وشحذت من لسن الذهن تبره ، وأنبت فى روض الشرف أزاهره ، وأثبت فى سماء العز زواهره ، وسمت عواتق المجد بحمائله ، ورقمت دمائث الحمد بخمائله ، ناضرة مشرقة اللألاء ، بل مشرقة الآلاء ، وهذا السيد الأيد — وإن عظم سوره وكبر صوره ، وشرف نسبه وظرف نصبه ، واجتلى من مجالس الفضل ومغارس النبل — منتدى صدور ايوانها ومبتدأ سطور ديوانها ، فان مثلى واياه ، كراعى سنين عجاف ، وداعى مسبتين لايجاف طواة إدقاع ، وأجراه صفصف قاع ، فاحتل بوهد ، رهين جهد ، ماله بالسحائب واذيال السحاب من عهد ، قد لفته النكباء فى شملتها ، وأتلفته بتفصيلها وجملتها ، فلما يبست مراتعه ، ويئست مطامعه ، أنت أكيلة ليث فسامها ، وعنت مخيلة غيث فشامها ، وأصاخ ليستمع أين موقعه ، وينتجع ماينفعه ، وإذا هو نبت فى رمل خبت ، قد أرضعته بدرها الأمطار ، ورصعته بدرها الأزهار ، واندفقت أنهاره ، وسجعت أطياره ، بما خرق له خارق جيب الابداع ، وانحط عنه ابن جامع عن درجة الاجماع ، فوقع اختياره بما أداه اليه اختياره ، على شجرة أصلها فى الماء ، وفرعها فى السماء :

يصيف إلى مرتقى منتقى ويشتو إلى مجتلى مجتنى
وتأتى على حالتى سومها لذا بالمنون وذا بالمنى (١)

وهو — أيده الله — تلك النخلة ذات الظل المديد ، والثمر الجديد ، من الطلع النضيد ، ذلك الراعي الذي هجر ملأه ، ووجد كلأه ، وسائر الكرام

وإن كانوا كنبقة فى تلك الحـــديقة الأنيقة ، ففى كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار » .

ومنها :

« والعصر ، ان فى المصر ملكا استملك رق المدح، واستهلك المحن بالمنح. نقل الدهر إلى نقش خاتمه ، وجعل موطىء كعبه كعبة همة كعبه ، وباهى بنهضة من عمره نهضات عمره ، وكم نقى مثار مثيره ، ممن يصول كعنترة ، وكم استبسله فى بأسه ممن يضحك باياسه ، فما زال مرتع أمالى فى ذراه خصيباً ، وسهم مطالبى فى ثغر النجاح مصيبا ، وأمانى لا تجد لابن ليلى دونه فى بت نصيب نصيبا ، وإنما القيت من وعثاء السفر ولقاء الخطر وابغاء الظفر ، قبل حلولى بهذه الحضرة النضرة حضرة القائد أبى القاسم الأجل ، الذى إن ألبس قلمه المداد ، عرى من الفصاحة قبن اياد ، وانطق طرسه الرسائل ، أخرس عن الخطابة سحبان وائل ، يلزم لديه إبن العميد سمت العبيد ، ويغدو عليه عبد الحميد غير حميد ، ويقول له الصاحب أنا عبد لا صاحب ، ونهاية الصابىء أنه بألفاظه صابىء ، حتى لو انقلب الديوان ديوان شعر ، والقرطى أقراط شذر ، لكان هو المقرط المحلى والمقرظ المحلى — ما أوجب ذاك الشكو الذى دخل به الشك ، وجاء بهذا الشكر فالحمد لله حمداً تقصر الألفاظ عن حصر معانيه، وتعيى النية منتهاه عن قدر وسعها فتعانيه ، وصلى الله على محمد وآله ما خفق آل ، وحققت الآمال ، فى هذا الحساب مال ومآل » .

ومنها فى وصف البحر :

« انى لما نسنمت فى ذات الألواح ، وتنسمت الإزعاج من ذات الأرواح ، قلت بالسلامة اما ميلاد ومعاد ، أو يوم معاد، وعجبت من حلى، فى حالى وترحالى، فتشوقت الوطن والوطر ، وكلفت الخاطر وصف ذاك الخطر ، فقال :

لو لم يحرم الأيام انجادى   ما واصلت بين اتهامى وانجادى (٢)

القصيدة ...

ومن النثر فى وصف المركب وأهله :

ثم إن البحر تخبطه شيطان الموج من مس الريح ، فلو رأيته وقد شاب فى عنفوان شبابه ، وشابه فروع الأطواد بأصول هضابه ، والحنية تدوى بأهلها كالخلية بنحلها ، ونحن نصلى لمؤنس يونس وعلى لوح نوح، لاسترشدت رأى من آثر الجبل فى العصمة ، وما لحقت بأبيه — لولا وحى الله عز وجل — ولقلت الصخر يقى أنى حضر ، هل غنى لمجنوبته عليه إلا المنية ؟ ولم يزل يدنو كالجنون ، وتداريه من الجنون ، حتى كسته الرضاء ثوب وقارها ، وأمسكت الزعزع عنه كاس عقارها ، فصح وصحا بعد جنونه وسكره ، ونطق منا بلسان المجاز بالحقيقة بعد المجاز ، فوصلنا طرف الجزيرة بمسين ، غرة شعبان سنة ثلاث وستين وخمسمائة :

بلد أعارته الحمامة طوقها وكساه حلة ريشه الطاووس
فكأنما الأنهار منه سلافة وكأن ساحات الديار كؤوس(٣)

ومن نثره فيه :

« ولما أذن لشوال فى أن تشال الكؤوس، ويوضع فى طاعة الخمر بالرؤوس، خلعنا عن سوالف الخلاعة عذار العذل ، وركبنا خيل الفتك والمجون على أرض الجذل ، وقلبنا لظهر العفة ظهر المجن ، ومرنا ببعض تحت عجاج البذر وداج الدن » ،

(*) من خريدة القصر (القسم المصرى) وقد صدر العماد هذه المقتطفات بقوله « ثم ظفرت بكتاب الزهر الباسم من أوصاف أبى القاسم وهو بعض القواد بجزيرة صقلية فاطلعت فيه ، وأطلعت فى فلك الخريدة نجوم معانيه ، فأول ما بدأ فيه بوصف الكتاب كلام أصفى ديمة من ذر السحاب ، وأوفى قيمة من در السحاب فمن ذلك نثره »

---

(١) لم نستطيع أن نحدد أن كان البيتان لابن قلاقس أم أنه أوردهما على سبيل التضمين .

(٢) انظر القصيدة فى باب الوصف .

(٣) البيتان من شعر ابن اللبانة . انظر التعليق الخاص بمقطوعة :

حتى كأن الدهر صيرنى به   فى مثل ما أهواه أو منانى

من « ترسل ابن قلاقس »

وكتب إلى السديد الحصرى بصقلية :

عرف الله المجلس بركة هذا الشهر السعيد ، وجعل ورود العيد عليه غير بعيد ، فهو شهر عظيم البركة ، لكنه ثقيل الحركة ، فالله تعالى يعين المجلس على صيامه ، ويخفف عنه طول أيامه ، ويقرب عليه حركته ، مع توسع بركته ، ويتداركه شوال ، ويسجى (١) بدوره بهلاله ويمده بتحرير فلك ، وتحرير هلك (٢) ، حتى ينقضى سريعا ، ويقضى صريعا ، بخنجر هلال الفطر صريعا ، وعفا الله عن مزح جرى فيه القلم ، ونطق به الفم ، وسوى ذلك .

---

(٥) من « الترسل » ، (مخطوطة التيمورية) النص رقم ٤٤

(١) بالهامش : أى يعطى

(٢) فى الأصل ملك ، وفوقها : لعله هلك .

(٣) وكتب إلى ابن فاتح بصقلية :

على حضرة المولى الشيخ الفقيه الأديب، دامت بهجتها ، وحرست مهجتها بأن الشكر يستمرى الأخلاق بلا خلاق،وقد يحمل مملوكها على استحلابه واستجلابه، ولاسيما وعنده لأياديها فى ناديها،وبين أعاديها ضراعة يقبح أن يتشبث بها اسمها ، أو يتعلق بها وسمها ، وقد استمسك منها بعروة تأمن الانفصام ، وآوى إلى جبل به الاعتصام ، وكانت آنفا قد أعانته على عدوه ، وزانته بإقامة أوده ، والان فقد رجع وانتجع،فان رأت أن تيسر له أسباب سفره ، وتفتح له أبواب ظفره، قبلى خروج ركابها العالى ، فلسان شكره ينقلب دعاء ، ويكون له سمع الأجابة وعاء ،والله المجازى ، والدافع للمخازى ، وهى — ثبت الله مجدها وأعلى جدها — أثرى خير ، وأسرى إذا استمجد(١) الغير ، ولرأيها فضله إن شاء الله تعالى .

---

(٥) النص رقم ٣٨ من الترسل

(١) بالهامش : « من تمجد إذا وقع فى المرعى على العشب الكثير » .

(٤) وكتب إلى القائد غارات بن جوسن ، خاصة المملكة الغليمية بصقلية :

أشواق العبد الخادم، ثبت الله تعالى مجد الحضرة السامية الأجلية العلية القائدية الشجاعية ، وأطال بقاءها إطالة باعها وكثر منافعها تكثير اتباعها تكاثر الأنفاس، وتستعجز الأنفاس، وتستضيق مجال القرطاس ، وارتياحه إلى تقبيل يديها ارتياح الظمآن إلى الماء الزلال، والمريض إلى الإبلال ، والصائم إلى رؤية الهلال ، وغير ذلك فقد فارق جنابها الكريم ممتلىء اليد نعمة ، والفم نغمة ، والخاطر آمالا ، والناظر أموالا ، اصطناعا منها وتفضلا أبى الله أن يصدر إلا عنها .

(*) النص رقم ٤٨ من الترسل ، ونرجح أن غارات هذا هو نفسه الذى جاء اسمه قبلا على أنه يزجرد أو جوردانا . انظر التعليق على قصيدة :

جرت خيل النسيم على الغدير   وردت تحت قسطلة العبير

القصائــــد المــــذكورة

بحسب الترتيب الهجائى

رقم النص

الـذال

الـراء

القـاف

الكاف

اللام

النصوص بحسب ورودها

أولا : النصوص الشعرية :

مدائح فى ابن الحجر وافراد أسرته :

١ — أرقصها مطرب الأغـــاريد فاسترقت هـــزة الأماليد

٢ — زهرن فاعجب لروض ما له زهر إلا المباسم والألحاظ والطرر

٣ — ألحق بنفسج فجرى وردتى شفقى نافورة الصبح فشت مسكة الغسق

٤ — نعم هو السـبرق على الأنعم فاشق به ان شئت أو فانعم

٥ — سفرت عنك أوجـه الأسفـار وجرت بالمنى اليك الجوارى

٦ — أبدى الفرنـد نجابـة الأصـل والفرع يظهر طيبة الأصل

٧ — لذى الظلامة عد الظلم والنسب وهل إلى رفعها لولا هما سبب

٨ — أبليت بعدك فى الأنام ظنونى فظفرت عندهم بكل ضنين

٩ — قد عصينا النهى فكيف النهاتا وأطعنا اللهى فكيف اللهاتا

١٠ — منـــع الشتاء من الوصو ل مع الرسول إلى ديارى

مدائح فى السديد الحصرى

١١ — عرضت لمعترض الصباح الأبلـــج حوراء فى طرف الظلام الأدعج

١٢ — أوره الجلنار من الخـــدود وأخفوا عنه رمان النهود

١٣ — رحلوا وهم بين الضلوع حلول فالقلب عقد سلوة محـلول

١٤ — أطاع مــــا يأمره الناهى وصار فى حلبـــة أواه

مكاتبات مع ابن فاتح :

١٥ — لست أدرى أتحفة تتهـــادى أم عروس فى حليها تتهادى

١٦ — أقول رياض إذ ترصعها زهرا أقول سماء إذ تلمعها زهرا

١٧ وغادة عادت الدنيا ببهجتها ماشمت من ذات أنوار ونوار

١٨ — يا ماجـــــد أسرى إذا أسرى على منـــــاره

١٩ — شمس المحاسن قد أطلعتها فلكا وكل فضل وافضال بدا فلكا

٢٠ — وأبغضت فيك النخل والنخل يانع ويعجبنى من أجلك الدر والضال

٢١ — أنـــــدى وجه وسيم وشذا عـــــرف وسيم

٢٢ — بعثت به جنانا أم جنـــانا وصلت به لسانا أم سنانا

مكاتبات مع ابن خلف الصقلى :

٢٣ — هذى المحاسن قد أوتيتها هذى فكل شخص تعاطى شأوها هاذى

٢٤ — هو النادى وأنت به أنادى فيها مروى الحيا مورى الزناد

٢٥ — أنا عبد ودك لا أضل وإن تكن خليتنى فى الثغر باسم خليل

فى مدح ملك صقلية :

٢٦ — يقر الخليلم المليك بن غليلم سليمان فى ملك داود فى حكم

فى وزير صاحب صقلية :

٢٧ — جرت خيل النسيم على الغدير وردت تحت قسطلة العبير

٢٨ — وعسكرى كلمـــا جردته جرد لى حب ملاحـــاته

فى رثاء ابن رجا قاضى صقلية :

٢٩ — شق الكمال عليه جيب سواده وأفاض طرف المجد ماء فؤاده

فى أغراض متفرقة :

٣٠ — لو لم يحرم على الأيام انجادى ما وصلت بين اتهامى وانجادى

٣١ — بركة بوركت فنحن لديهـــا نستفيد الخـــار فى ضحضاح

٣٢ — وركب كأطراف الأسنة عرسوا   على مثل أطراف السيوف الصوارم
٣٣ — ما رأينا مثال ذا اليوم يوما   صح فيه تناقض الأمثال
٣٤ — حتى كأن الدهر صيرنى به   فى مثل ما أهواه أو منانى

ثانيا : النصوص النثرية :

١ — مقتطفات من كتاب « الزهر الباسم » .
٢ — من الترسل : رسالة إلى السديد الحصرى .
٣ — « « : رسالة إلى ابن فاتح .
٤ — « « : رسالة إلى القائد غارات .

قائمة بأهم المصادر والمراجع

ابن ابي أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ط. القاهرة ١٨٨٢ م .

ابن أبي حجلة : ديوان الصبابة القاهرة ١٢٧٩ هـ

ابن الأثير (ضياء الدين) : المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر، ط. القاهرة ١٩٣٩ م

ابن الأثير (عز الدين) : الكامل فى التاريخ ١٢ ج ، القاهرة ١٢٧٤ هـ

« اللباب فى تهذيب الأنساب ٣ ج ، القاهرة ١٣٦٩ هـ

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ١٤ ج القاهرة ١٩٢٩ — ١٩٤٩ م

ابن جبير : الرحلة. ط. القاهرة ١٩٦٨م بتحقيق د. حسين نصار

ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان حيدر أباد الدكن ١٩٥١ م

ابن الحسين (يحى) : انباء الزمن من أخبار اليمن . برلين ١٩٣٦ م

ابن حجة الحموى : خزانة الأدب القاهرة ١٢٩٤ هـ

« ثمرات الأوراق « ١٢٧٩ هـ

« تأهيل الغريب « ١٢٩٣ هـ

« ناضج ابن قلاقس مخطوطة نيوهافن

ابن حمديس الصقلى : ديوان تحقيق د. احسان عباس بيروت ١٩٦٠ م

ابن الساعي : الجامع المختصر ج ٩ ط. بغداد

ابن سعيد المغربي : المغرب في حلى المغرب قسم الفسطاط تحقيق د. زكي حسن وآخرين ، القاهرة ١٩٥٣ م

» : » » » قسم القاهرة تحقيق د. حسين نصار القاهرة

ابن سناء الملك : فصوص الفصول وعقود العقول، مخطوطة باريس رقم ٣٣٣٣

ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات جزءان ، القاهرة ١٩٥١ م

ابن ظافر الازدى : بدائع البدائه مخطوطة باريس ٣٥١٤ ، ط. القاهرة ١٢٧٨ هـ ، وطبعة أبي الفضل ابراهيم ١٩٦٩ م

ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ٨ أجزاء القاهرة ١٣٥١ هـ

ابن العديم : مختصر بلوغ الامل . مخطوطة بلدية الاسكندرية

ابن فضل الله العمر : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار . مصورة دار الكتب رقم ٥٥٩

ابن قلاقس الاسكندرى : ديوان : مخطوطات دبلن — باريس — فيينا — لينجراد — برلين .

» : ديوان . طبعة خليل مطران . القاهرة ١٩٠٥ (وانظر ابن نباتة)

» : ترسل . مخطوطة التيمورية ٦١٧ أدب

ابن كثير : البداية والنهاية . القاهرة ١٩٣٢ م

ابن المجاور : صفة بلاد اليمن (المسمى بتاريخ المستنصر) ، تحقيق أوسكر لوفغرين ، ليدن ١٩٥٤

ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ . القاهرة ١٩١٩

ابن نباتة : المختار من ديوان ابن قلاقس . ط خليل مطران القاهرة ١٩٠٥

» مطلع الفوائد ومجمع الفرائد مخطوطة باريس ٢٣٤٤ ، وطبعة دمشق (١٩٧٢) بتحقيق عمر موسى باشا

ابن واصل الحموى : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب . تحقيق د. الشيال القاهرة ١٩٥٢ — ١٩٥٧

أبو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية جزءان . تحقيق د. محمد حلمى أحمد . القاهرة ٥٦ — ١٩٦٢

أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ٤ ج ط. القاهرة ١٣٢٥ هـ

الادفوى : الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد ، القاهرة ١٣٣٢ هـ

الاسكندرى (أحمد) (وعنانى) مصطفى : الوسيط الأدب العربى وتاريخه القاهرة ١٩٢٨

أمارى (ميخائيل : المكتبة العربية الصقلية . مصورة عن طبعة ليبسك ١٨٥٧ م

الأهوانى (د . عبد العزيز) : ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار فى الشعر ، القاهرة

باشا (د. عمر موسى) : أدب الدول المتتابعة . عصر الزنكيين والأيوبيين والمماليك ، دمشق

بدوى (د. أحمد أحمد) : الحيـاة الأدبيـة فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، القاهرة ١٩٥٤

« : الحياة العلمية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام القاضى الفاضل القاهرة ١٩٥٩

« : ابن قلاقس. مقالات فى مجلة الرسالة ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ من سنة (١٩٣٢)

« : صلاح الأيوبى بين شعراء عصره وكتابه . مجموعة المكتبة الثقافية (القاهرة) .

البديرى (أبو البقاء) : سحر العيون . القاهرة ، ١٢٨٦ ﻫ

البستانى : دائرة المعارف ، بيروت ١٩٤٦

البغدادى : هدية العارفين جزءان. استامبول ١٩٦١ — ١٩٥٥.

« : ايضاح المكنون (فى الذيل على كشف الظنون) جزءان . استامبول ١٩٤٥ — ١٩٤٧

الجعدى (أبو سمرة) : طبقات فقهاء اليمن . تحقيق فؤاد السيد ، القاهرة ١٦٥٧

الجندى (البهاء) : السـلوك فى طبقـات العلمـاء والملوك . مصـورة دار الكتب ١٩٦٦

حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون . جزءان استامبول ١٩٤١ — ١٩٤٣

حسن (د . حسن ابراهيم) : تاريخ الدولة الفاطمية ط ثانية القاهرة ١٩٥٨
حسين (د . محمد كامل) : فى أدب مصر الفاطمية القاهرة ١٩٦٣
الحفناوى (شهاب الدين) : بغية الجليس . مخطوطة باريس ٣٤٤٨
خفاجى (د . محمد عبد المنعم) : قصة الأدب فى مصر ٥ أجزاء . القاهرة ١٩٥٦
الرمادى (د . جمال الدين) : خليل النيل ، القاهرة لات
الزركلى (خير الدين) : الأعلام ط ٢ ، ١٠ أجزاء القاهرة ١٩٥٤ — ١٩٥٩
زيدان (جرجى) : تاريخ آداب اللغة العربية ٤ أجزاء ، القاهرة ١٩٢٧
السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ٦ أجزاء القاهرة ١٣٢٤ هـ
سركيس (يوسف اليان) : معجم المطبوعات العربية والمعربة . القاهرة ١٩٢٨
سرور (د . محمد جمال الدين) : مصر فى عهد الدولة الفاطمية . القاهرة (مجموعة الألف كتاب)
« : النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب القاهرة ١٩٥٩
سلام (د . محمد زغلول) : الأدب فى عصر صلاح الدين الاسكندرية ١٩٥٩
« : الأدب فى عصر الأيوبيين القاهرة ١٩٦٨
السلفى (الحافظ) : أخبار وتراجم أندلسية تحقيق د . أحسان عباس . بيروت
سليم (د . محمود رزق) : الأدب العربى من عهد الفاطميين إلى اليوم . الاسكندرية ١٩٣٨
السمعانى : الأنساب . نشر مرجليوث . لندن ١٩١٢
السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة القاهرة ١٢٩٩ هـ
شلبى (د . سعد) : ابن حمديس الصقلى حياته من شعره . القاهرة ١٩٧٧

الشيال (د . جمال الدين) : مجموعة الوثائق الفاطمية ج ١ القاهرة ١٩٥٨

« : أعلام الإسكندرية فى العصر الاسلامى . القاهرة ١٩٦٥

الصفدى (صلاح الدين) : أعيان العصر ، مصورة دار الكتب (الجزء الثانى) ١٠٨٤

« : الغيث المسجم فى شرح لامية العجم . الاسكندرية ١٣٠٥

« : التذكرة الصفدية مصورة دار الكتب رقم ٩٧٩٦

« الوافى بالوفيات طبع منه ٩ أجزاء أولهافى استامبول ١٩٣١ ومخطوطة الزيتونة

« توشيع التوشيح تحقيق د . البير حبيب مطلق . بيروت ١٩٦٦

ضيف (د . شوقى) : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى . القاهرة ط ٨ — القاهرة ١٩٧٤

العاملى : الكشكول ط . القاهرة تحقيق الزاوى ، جزءان القاهرة (دار احياء الكتب العربية)

عباس (د . احسان) : العرب فى صقلية . القاهرة ١٩٥٩

العباسى : معاهد التنصيص شرح شواهد التلخيص القاهرة ١٣٠٤

عنان (محمد عبدالله) : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط . القاهرة ١٩٣٤

عنانى (د . محمد زكريا) : نشأة الموشح فى المشرق ، مجلة كلية الشريعة — مكة المكرمة ، المجلد الثانى ١٩٧٨

عنانى (د. محمد زكريا) : مدخل لدراسة الموشحات والأزجال. الاسكندرية ١٩٨٢

العماد (الاصفهانى) : خريدة القصر وجريدة العصر . قسم مصر، تحقيق أحمد أمين . شوقى ضيف . احسان عباس . جزءان القاهرة ١٩٥١

— قسم الشام ، تحقيق د . شكرى فيصل جزءان ، دمشق ١٩٥٥

— القسم الخاص بالاندلس وصقلية ، تحقيق عمر الدسوقى وعلى عبد العظيم . القاهرة ١٩٦٤

عمارة اليمنى : النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية نشر هرتويغ درنبرغ . شالون ١٨٩٧

— المختصر ، المفيد مخطوطة دار الكتب ٨٠٤٨ خ

القبانى (عبد العليم) : شعراء الاسكندرية فى العصور الاسلامية من سلسلة « مذاهب وشخصيات » رقم ١٠١ — القاهرة .

القفطى : المحمدون من الشعراء . تحقيق معامرى . الرياض ١٩٧٠ م .

القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ١٤ جزءا . القاهرة .

: نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب . تحقيق ابراهيم الابيارى ، الطبعة الأولى . القاهرة

كحالة (محمد رضا) : معجم المؤلفين ١٥ جزءا . دمشق ١٩٥١ - ١٩٦١ .

كيلانى (محمود سيد) : الأدب فى عصر الحروب الصليبية . القاهرة .

ماجد (د عبد المنعم) : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر القاهرة ١٩٥٣ .

مبارك (علي) : الخطط التوفيقية ٢٠ جزءا بولاق ١٣٠٥ .

المدني (أحمد توفيق) : المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا . الجزائر ١٣٦٥ هـ .

محمود : د حسن سليمان) : (بالاشتراك مع د. حسين الهمداني) الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ١٩٥٥ .

مشرفة (د.عطية مصطفى) : نظم الحكم في عصر الفاطميين . القاهرة ١٩٤٨ .

مصطفى (محمود) : إعجام الأعلام . القاهرة ١٩٦٧ .

« : الأدب العربي في مصر من الفتح الاسلامي إلى نهاية العصر الأيوبي . القاهرة ١٩٦٧ .

المقدسي : أحسن التقاسيم ، تحقيق دي غريه . لندن ١٩٠٦ .

المقري : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ١٠ اجزاء القاهرة ١٩٤٩ .

المقريزي : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار جزءان القاهرة ١٣٢٤ هـ .

« : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، جزءان د. الشيال ١٩٤٨ .

المناوي (د. محمد حمدي) : الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي . القاهرة ١٩٧٠

النجار (أحمد) : الإنتاج الأدبي في مدينة الاسكندرية القاهرة ١٩٦٤ .

النواجي (شمس الدين) : حلبة الكميت مخطوطه باريس ٣٤٠١ (١) .

« : صحائف الحسنات « « ٣٤٠١ (٢) .

« : تأهيل الغريب جـ٢ « « ٢٣٩٢ .

« : حلبة الكميت ط بولاق ١٢٧٦هـ .

النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ١٨ جزء ، القاهرة ١٩٢٣ - ١٩٥٥ .

وجدى (محمد فريد) : دائرة معارف القرن العشرين ١٠ أجزاء ، القاهرة ١٩٢٣

اليافعى : مرآة الجنان وعبرة اليقظان مخطوط باريس ١٥٩١

وطبعة حيدر أباد الدكن ١٣٣٧ — ١٣٣٩ هـ فى ٤ أجزاء

ياقوت : ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب (معجم الأدباء)

ط . الرفاعى . القاهرة ١٩٣٦ .

: معجم البلدان ٥ أجزاء ، بيروت ١٩٥٠ .

(* إضطرتنا الظروف فى فترة من الزمن إلى الإستعانة بطبعات غير محققة أو إلى الرجوع إلى مخطوطات عدد من المؤلفات التى كانت قد طبعت لكن طبعاتها لم تتيسر لنا فى وقتها ، وقد حرصنا — قدر الإمكان — على إضافة ما وصل الينا منها فى أثناء المراجعة ، ونرجو — اذ نعود إلى العمل برمته فى طبعة تالية — أن نستدرك هذا كله بإذن الله .

مراجع أجنبية :

Amari (M.) : Storia dei Musulmani di Sicilia 2e. ed. Catania – Roma, 1939 ;

Brockelmann : Geschichte der arabischen litteratur. Weimar– Berlin 1898 – 1942 .

» » : Supplement band. Leiden 1937 - 1942 .

Encyclopedie de l'Islam, 1e et 2e ed .

Huart (C.) : Litterature arabe. Paris, 1902 .

Rikabi (J.) : La poesie profane sous les Ayyubides. Paris, 1949 .

Rizzitano (U.) ; Ibn Qalaqis, dans: Encycl. de l'Islam, 2e., ed. III, p, 838 .

محتويات الكتاب

القسم الثانى

القسم الثالث

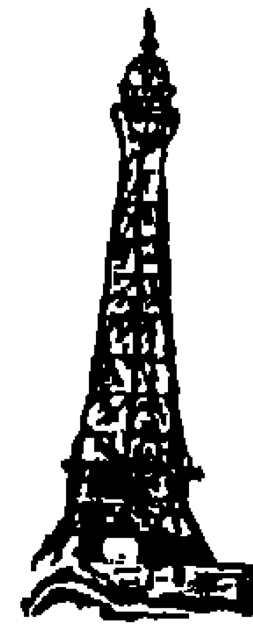
تصـــويب

وقعت بعض أخطاء مطبعية طفيفة نعتذر عنها ونكتفي بالتنبيه إلى ما وقع

ص ٢٠٨ :

البيت	خطأ	صواب
٦	المواكب	المراكب
٨	جوابح	جوانح
١١	تحوض	تعوض
١١	قار	بعد قار
١٥	بيان	بنان
١٩	بالفصل	بالفضل

رقم الايداع ١٨٦٢ / ١٩٨٢
الترقيم الدولى ٨ - ٣١ - ٧٣٥٨ - ٩٧٧



المطبعة العصرية
• شارع كافور الحضرة القبلية ــ اسكندرية

٣٠٠ م

١١٦٦٠٧ / ٧

دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة

الناشر منطقة الاسكندرية ٤٢ ش سعد زغلول - ٢ ميدان التحرير (المنشية)

